وَجْدي الكوُمي

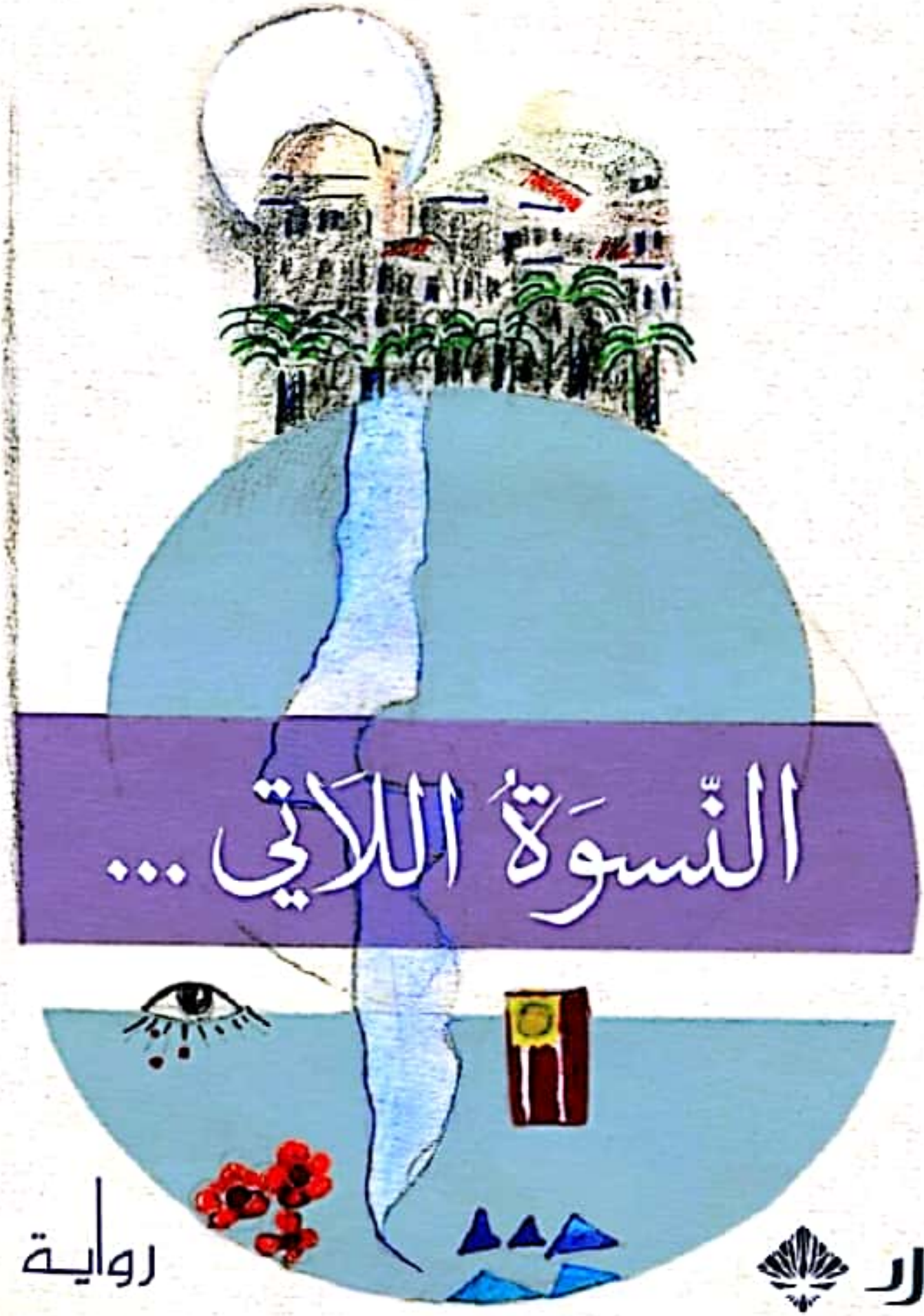

النّسوَةُ اللاَتي...

رواية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النسوة اللاتي...

رواية

وجدي الكومي

النسوة اللاتي... - رواية

تأليف: وجدي الكومي

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 97 - 5

الطبعة الأولى: 2020

دار سرد للنشر
جوال: 961+ 81756938
البريد الإلكتروني:
info@darsard.net
الموقع الإلكتروني:
www.darsard.net
facebook.com/Sard.Publishing
twitter.com/SardPublishing

سوريا - دمشق - ص ب: 9838
هاتف-فاكس: 963+ 11 6133856
جوال: 971+ 557195187
البريد الإلكتروني:
addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني:
addar.mamdouhadwan.net
fb.com/Adwan.Publishing.House
twitter.com/AdwanPH

جميع الحقوق محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرَين الخطية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«هنا الطريق إلى مدينة العذاب، هنا الطريق إلى الألم الأبديّ،

هنا الطريق إلى القوم الهالكين».

« الأنشودة الثالثة » - الجحيم

دانتي إليجيري

تدور أحداث هذه الرواية في بلد المحيط.

يقع هذا البلد بين خطَّيْ طول 10 و17 غرب خطّ جرينتش، وخطَّيْ عرض 20 و30 شمال خط الاستواء.

يطلّ على المحيط من جهة الشمال بسواحل تصل إلى ألف كيلومتر، وتحيط به الصحاري من كلّ مكان، وفي قلبه نهرٌ كان عذب الماء، ثم لم يلبث أن يبس، وبقي منه ملحٌ وقصدير.

أمّا حاضرته فهي مدينة واحدة، صارت عاصمته بعد الاستقلال عن الاحتلال، وانسحاب الغزاة يائسين قانطين من العثور على أيّ موارد تصلح للاستثمار، أو حتى استخدام مواطنيها في الخدمة أو الاستعباد.

ومنذ نيله هذا الاستقلال القانط توالى على حكمه رؤساء من أهلها، لم يحاول أيٌّ منهم إنشاء مدنٍ جديدة لشعبه، فظلّوا يعيشون في العاصمة نفسها، واستثمروا صحاريها لنفي المعارضين، يرسلونهم إليها للعمل مدى الحياة في مزارع أراضيها مقفرة، وتربتها صخرية لا أمل من استصلاحها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثَبتٌ بأسماء أحياء عاصمة بلد المحيط

الأحياء الشمالية:

مدينة سطح اللحم - حيّ الكرماء - شرق النهر المالح

غـرب النـهر المـالح - جبـل الولـيّ المطـلّ علـى المحـيط والنـهر والصحراء

أحياء وسط العاصمة:

منطقة الترعة الصوفية - الستّ وردة

ميـدان الخضـراء (الـذي وقعـت فيـه أبـرز الأحـداث الجـهنّمية الجديدة) - كفر الخواجة

أحياء العاصمة القديمة:

المدينة الغايصة - شارع المسلخ

علوة المنقذ قزمان - جامع المنقذ

باب الشمس

باب القمر

كفر الخواجة

أحياء جنوب شرق العاصمة:

حي الصنايعية - حي المزهرية

ترعة النهر الحافي

أحياء جنوب العاصمة :

الكهوف السود

الجبال الزرق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحياء غرب النهر المالح:

شمال غرب :حيّ المتنبّي

وسط غرب :البنجر المفتون

السوالمة - بلد الشيخ (جنوب غرب النهر المالح): عين الشوق والورود الصُّفر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«جلّاب المصائب».

هكذا وصفتني نسوة بلد المحيط، إذ ترافق وصولي إلى هنا مع ما حدث، والتصق هذا الاسم بي، لكن اسمي الحقيقي هو «جون».

غريبٌ أن أكون بحاجةٍ إلى تعريف نفسي بهذه الطريقة. طريقة فرضتها ما آلت إليه ظروف وجودي هنا في هذه المدينة، وبواباتها الحصينة، التي كان يصفُها مؤرخوها بأنها منزل المُلك، ودار الإمارة للكثير من الطغاة والمستبدّين.

كنت أعمل موظفاً في الأمم المتحدة، في إدارة الاستشعارات المبكّرة والإنذار الأوليّ، المختصة بدراسة الظواهر العجيبة، التي قد تتسبّب في تفشّي أوبئة، أو أمراض مستعصية، أو طواعين بشعة في بلدٍ من البلاد، وما يلزم من إجراءات للحدّ منها، وحصارها في بلد المنشأ.

جئت إلى هذا البلد المطلّ على المحيط، للتنقيب عن قصة حب. ويا للعجب! إذ أخبرني رؤسائي أن أهله كانوا دائماً ينفرون من الحب ومناسباته، وعيده العالمي، ولم تشهد بلدهم ذيوع علاقة قائمة على الحب، بل إنهم اعتادوا عقد الزيجات بتشجيع من الحكومة، لإنجاب الأطفال المطلوب إرسالهم إلى المصانع فور بلوغهم العاشرة، أو إلى الصحاري التي تعانق مدينتهم من كل جانب عدا الشمال، لاستصلاحها.

فور أن سمعت تفاصيل المهمة العجيبة، ارتعش بدني، وضقت ذرعاً بما أنا مُقبل عليه، على الرغم من أن عملي في تلك الإدارة يفرض علينا أن نتعامل مع القضايا العجيبة والمثيرة، كأن نبحث مثلاً في مدى دقة النظرية التي تزعم أن إنسان النياندرتال لم يزل حياً بيننا، لكن حتى البحث في مثل هذه الأمور لم يرقَ لصعوبة البحث عن قصة حب نادرة في بلد لم يعرف أهله الحب يوماً.

حين أجبرني رؤسائي على المجيء إلى هنا، سألتهم لماذا تهتمّون بهذا البلد المنبوذ الواقع على المحيط، وتحاصره الصحراء من كل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجهات؟ فقالوا: لأن العقم ضرب رجالها منذ فترة، وربما يكون الحب علاجاً نافعاً، ونرغب أن نكون أول من يحضر لحظة الشفاء إذا تمّت.

ماطلت في قبول الرحلة، حاولت التهرّب بذارئع شتّى، خشيت مما يقال عن قسوة أهلها، وبؤسهم، لم أكن مهتمّاً بأخبارهم قبل ذلك، ولكن حين كُلّفت بالمهمّة، قرأت ما تعرّض له الباحث السويسري، فتأكّد يقيني واكتشفت أن هواجسي لها أساس.

كانت الصحف قد تداولت ما جرى له، إذ كان يحاول الاتصال بإحدى الصحفيّات المحليّات، من أجل تدقيق قصّة عن ملوحة نهر البلد، الذي يجري في أرضها ويصبّ في المحيط الذي يحدّها من الشمال. اختفى السويسري عشرين يوماً، قبل أن يعثر محقّقون من بلده على جثّته مسجّاةً على طريق خارج عاصمة البلاد ومدينتها الوحيدة، ووجهه مشوّه بالكدمات وآثار الضرب، والتعذيب.

قَطعاً، هذه القصص تصيب كلّ أجنبي بالهلع، وتجعله ينفر من قبول أيّ مهمّة بحثيّة هناك، فما بالك بتكليفٍ يرغب رؤسائي عبره أن يدقّقوا في قصّة حبٍّ مزعومة!

حدَّد لي رؤسائي أن بداية المهمّة ستكون بالتردُّد على سيّدة معمّرة، تمتلك حكمةً بالغة، ويُجلّها قومها كثيراً، إذ يعتبرونها معجزةً خالصة، نظراً لأنها فاتنةٌ صبوح، رغم عمرها الذي تخطّى المئة.

انتابني الفضول لمقابلة هذه السيدة، قبلت المهمّة، على الرغم من كلّ المخاوف. حين وصلت توجّهت إلى أحد فنادق المدينة، فاستقبلني موظّفوها بوجوهٍ مطفأة، مسامها مسمّمة بذرّات الحزن والكآبة. شربت الشاي الأحمر في مقاهيها، وتناولت الطعام الساخن البسيط المكوّن من الفول والبقسماط والجبن القريش في مطاعمها الفقيرة.

حينما تخلو مدينةٌ من براءة الأطفال، تسيطر عليها الأرواح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخبيثة وتغتال روحها، وتستشري في جنباتها الشراسة والدمامة. بات استكشاف أسباب ذلك العقم من نصيبي. ما لم يخبرني به الرؤساء، في إدارة الاستشعارات المبكرة، أنه حينما اتسعت في البلاد الكراهية وانتشرت، بات حرمانها من براءة الأطفال عقابها الأوحد.

مرّت فترةٌ طويلة منذ أن وضعت آخر امرأة في المدينة طفلاً. نشطت بطن الأرض في ابتلاع الناس، مقابل عزوف بطون النساء عن الحَبَل، تبتلع الأرض في رحمها المغدورين، والمقتولين بالمفخّخات، أو ضحايا المواجهات غير المتكافئة، تتضخّم المقابر، وتزحف بما تحمله في أحشائها من مقتولين أبرياء أو مجرمين، على مناطق الأحياء.

مرّت ثلاث سنوات الآن على وصولي إلى بلد المحيط، كان الشيء الوحيد الذي يبدو أنه متحضّرٌ فيها هو المطار، الآن وجدت تفسيراتٍ عديدةً للنظرات المطفأة والوجوه الكابية وحبسة الدم التي استقبلني بها الناس آنذاك، وقتئذٍ حاولت العودة من حيث أتيت، لكن الفرصة قد فاتت، وها أنا ذا هنا حبيس مغامرتي التي أُجبرت عليها. السائق الذي أقلّني في ذلك اليوم استغرب قدومي. أتذكّر بوضوحٍ ما قاله يومذاك: «من مدّةٍ طويلة لم أقلّ أحداً من المطار إلى البلد. بل العكس، رحل كثيرون. ما الذي جاء بك؟».

أكتب هذه السطور الآن، ولم أكن كاتباً من قبل، بل كنت أحرِّر التقارير القصيرة في مكتبي.

الآن تضخّم تقريري، وامتلأ، وتعطّل اللابتوب بعد انقطاع الكهرباء عن المدينة، فصرت أكتب بسرعةٍ خشيةَ أن يفوتني حدث ما، مستخدماً أيَّ شيء أصادفه. الأوراق البيضاء ملأتها كلّها، فانتقلت للكتابة على الكراتين البنّية، وأسطح لوحات الدعاية الممزّقة، التي كان يستخدمها المشرّدون كأردية وملابس، تقيهم البرد القارس. شهدت بنفسي انتشار أعمال السلب والنهب التي استشرت نتيجة الأحداث التي تلت وصولي، وما كان الناس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتصوّرونه بالأمس مستحيل الوقوع، صار يتكرّر كلّ يوم. لم يعد هناك مخرج، انقطعت أخبار العالم الخارجي، كأننا سقطنا في جُبّ، أو كأن العالم ركلنا خارجه، وصار استمراري في تدوين الوقائع ملهاتي الوحيدة للنجاة، حتى بعد نفاد مداد الأقلام، واختراعي وسائل بدائية للكتابة، منها تجفيف الفحم بعد تكسيره وتفتيته إلى بودرة. سطوت منذ فترة على «مول» مهجور كان لم يزل به أقلام كحلٍ في ركن الماكياج نسيها كثيرون في خضمّ اهتمامهم بالسطو على أشياء يسهل بيعها، أو استخدامها في التداول، والمقايضات. وجدت أقلام الكحل كنزاً، لكنني لم أجد كرّاسات، أو أوراقاً تنفع لمواصلة الكتابة التي صارت غايتي. لربما يقولون إن الرحّالة الأجنبي الذي جاء إلى المدينة من مكتب الأمم المتحدة هو الذي سجّل ما جرى قبل فناء البلد وأهله.

اندلعت حرب. وحينما تندلع حرب فإنّ الناس وحدهم يجوعون، أما المتقاتلون، فلا يعبؤون إلا بكبريائهم. بات الوصول إلى رغيف، أملاً ودعاءً تلهج به ألسنة المتضرّعين، والجوعى، فيما من عجز عن الدعاء، بات يترقّب عربات الغذاء التي ترسلها الأمم المتحدة وتسقط في قبضات البرمجية والبلطجية، وقادة الميليشيات، لعلّه يظفر بفتاتٍ من بين قبضاتهم. الرغيف عزيز، وكذلك الدقيق، أما السمن والسكّر والشاي، فصارت أحلاماً. أُغلقت متاجر، وهُدمت صوامع، وبات الكلّ يردّد: «أهذه هي القيامة التي حدّثونا عنها؟!».

كنت أستقبل تحويلاتٍ بنكية قبل اندلاع الحرب، مدّخراتي كانت تكفيني فعلاً، الدولار الواحد كان يمكّنني من تناول ثلاث وجبات. وطيلة فترة إقامتي نجحت في ترشيد ما أتناوله، كأنني كنت أستشعر ما أنا مقبلٌ عليه، وحينما انقطعت الاتصالات، وأغلقت البنوك أبوابها، انقطعت معها التحويلات، وصرت مضطراً للعمل مثل كثيرين في بناء الحصون، والمتاريس الحجرية، وغيرها من الأعمال الشاقة، التي كانت تقرّبني من المتقاتلين، وفي الوقت نفسه توفّر لي قوتي، لكن حتى هذه الوظيفة صارت عزيزة، وحينما شارفت الحرب على النهاية، كان ذلك بفضل نفاد الذخيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والرصاص من أيدي الناس، ومن أيدي الميليشيا التي تملكها شركة الأدوية، إذ كفَّ كثيرون عن القتال طواعية، والبعض قرّر أن يبتلع هزائمه، ويلملم ضحاياه، ويعضّ أوجاعه، بعدما لم تجد الأفواه ما تعضّه.

جاءتني العديد من الفرص لمغادرة البلاد، قبل اندلاع الحرب، ومع اشتعالها. عرفت سماسرة التهريب، الذين يهرّبون الفارّين، والنسوة الهاربات من الملاحقات، في قوارب متهالكة عبر المحيط، أو على ظهور جمال على وشك النفوق عبر الصحراء، مهرّبون يتعاونون مع السلطات، فيسلّمون الراغبين في الفرار إلى السجون بدلاً من إيصالهم إلى القوارب. خوفي من التسليم أقعدني، على الرغم من مصارعتي للجوع الذي ضرب معدتي وجعلها تصرخ، أو جفاف شفتيّ من ندرة الماء، والعطش المذلّ، صرت أتلهّى بالبحث وسط الأنقاض عما يصلح أن أدوّن على سطحه، ولا ينمحي، كانت أيادٍ شقيّة تبحث معي وسط الركام عن وعاء ماء منسي، أو صهريج عربة ساقي لم يثقبه الرصاص، ولكن بلا جدوى، لا أنا عثرت على ما ينفعني لأكتب عليه، ولا الآخرون عثروا على ما يقيم أودَهم.

في الأشهر الأخيرة من الأحداث التي اجتاحت المدينة، توقفت إمدادات الغلال والحبوب، وامتنعت الأمم المتحدة عن إيصال ما تعهّدت به للعاصمة المنكوبة، بعدما أدرك مسؤولوها أن ما يرسلونه يقع ببساطة في قبضة قادة الميليشيات، الذين استولوا في عتوّ وتجبُّر على شون القمح، وسيطروا على مخازن الدقيق الهائلة في الريف، وتلك الواقعة على تخوم الطرق الدائرية، التي كانت تحوي كميات وفيرة من القمح والدقيق والسكر، والشاي والبقوليات، فضاعت كلها.

الشوارع أغلب الأوقات مظلمة، ما لم تضِئها الحرائق، أو قاذفات لهب المتقاتلين، مجاري تُغرق المنعطفات، والحفر المستطيلة التي خلّفتها العربات المفخّخة تحوّلت إلى بركٍ آسنة. مواسير مياه الشرب لا تحوي قطرة، العطش يضرب العروق، الجفاف يعمّ، وأهل المدينة يشربون بولهم إذا بالوا، ورؤسائى يزعجون أنفسهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسط هذه الأحداث المتلاحقة بقصة حب! يا لي من بائس يعمل تحت إمرة تافهين!

تعلّمت انتظار المطر، وتحويش أوراق الشجر، وطحنه ومزجه بماء المطر، وشربه كأنه حساء شهيّ. وحتى هذا الطبق نادر، فالمناخ قاري، والمطر شحيح، لأن البلاد يحدّها من الشرق جبالٌ شاهقة لم يسجّل أيٌّ من الرحّالة عبوره لها، أما من الغرب والجنوب، فتحاصرها صحاري قاحلة، عجز الفارّون عن قطعها، فابتلعتهم رمالها المتحركة، ولا مدينة أخرى في تلك البلاد مثل عاصمتها. باقي مدنها إما قرى تطوّرت إلى مراكز فقيرة من العمران، والخدمات، أو ظلت كما هي تجمّعات صغيرة متناثرة تحت لفح الشمس، وفقر الموارد، يعيش أهلها فقط على زراعة أرضهم من النهر الذي لم يزل يجري باستماتة مقاتلٍ يحاول جولةً عقب جولة الانتصار على ماردٍ غير مرئيّ.

منذ شهور يضربني التِّيهُ، ضائعاً كورقة شجرٍ تتلقّفها الريح وتحملها وتهوي بها في أيّ موضعٍ كما تشاء، بعد أن تركت منزل شاهيناز، وهذا هو اسم المرأة المعمّرة، التي بلغت شهرتها رؤسائي، ودعوني للتعرّف إليها. لم تزل شابّة فتيّة الجسد، على الرغم مما تحمله على كتفيها من قرنٍ ونيف. كنت قد اتصلت بها منذ وصولي، وأقمت عندها طيلة فترة الحرب. سمحت لي بالإقامة بعدما أغرتها فكرة انتشار صيتها خارج حدود بلدها، وعاينت بنفسي كيف امتلأت روحها بالكراهية تجاه ياسمين، الشابّة الفاتنة الشقراء المثيرة، وكيف أبلغت السلطات عنها، وعن زوجها ذهني. كانوا جميعاً أبطال حكايتي، وتقريري لرؤسائي، الذين ظنّوا أن الحبّ سينقذ رجال البلد من عقمهم، فإذا بالحكاية تنحو نحواً آخر.

ولكنني مع ذلك كنت آمل في النهاية السعيدة، لذلك لم أغادر بلد المحيط، حتى مع زيادة المخاطر المحدقة بي: أجنبي، ويدوّن مئات الصفحات، ويختبئ في منزل سيدة عجوز، ويشرب من مياه المطر، ويعمل في بناء المتاريس الحجرية، لا ريب أنه جاسوس، هكذا سيظنّون! لحسن الحظ لم تسلّمني شاهيناز كما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعلت مع ياسمين وذهني، لم تبلّغ عني. اعتبرتني أنيس وحدتها، ومدوّن سيرتها العجيبة، أما أنا فاطمأننت إلى حياتي وسط البلد الذي شوّهته الحرب، وبثُّ أحلم أن أرى نهضتها، وبينما أدخن بعمق آخر نفَسَين من تلك السيجارة التي أشعلتها منذ شهر، كنت أحلم بسيناريو هانئ، مغاير لما يجري حولي من بشاعات.

عقب وصولي، شممت كثيراً رائحة البارود في الجو، قالوا لي ثمّة حريقٌ بعيد عن الفندق الذي نزلت فيه أولاً، وطمأنني أكثر من عامل، أما الذي حمل حقائبي، فابتسم ساخراً مني، وودّعني دون أن يعبأ بالبقشيش الذي مددته له. سمعت صوت فرقعة هنا، وهناك. صحف المدينة التي كانت تصدر منتظمة منذ ثلاث سنوات، كانت تتحدّث وقتذاك عن وقائع تدافُع في التجمّعات التجارية الكبرى من أجل زجاجة زيت في مواسم التخفيضات، أو كيلو أرز في ساعة «الأوفرز»، وكانت أغلب هذه الصحف، تضع صوراً ملوّنة لقائد البلاد، بنظرة عينيه البراقتين، اللتين تحملان تهديداً وتشفّياً، يمزجهما بقدرة عجيبة مع بسمة صفراء واسعة يحاول بها أن يكتم مخاوفه من أيّ اضطرابات أو قلاقل قد تطيح به.

لاحظت دوماً أن الصحف تبالغ في نشر صوره، بصرف النظر عما يفعله، وكانوا يصفونه بأنه المعلّم وقاهر المحيط. لم أعبأ بما يقولونه عنه، كنت أكتفي بالابتسام ساخراً، وأكتم انطباعاتي عن الرجل، فلا شيء مأمون، وحتى شاهيناز نفسها، تكشّف لي في ما بعد أنها تحب الرجل، وتجلّه، بل وانتهزت أول فرصة لتحبط انتصار ياسمين وذهني، وتسلّمهما للسلطات. لا أريد حرق الكثير من الأحداث التي دوّنتها في أوراقي، سأحكي بالترتيب، حكايات شاهيناز، وياسمين، وغيرهما ممن تعرّفت عليهم في تلك البلد، وسأحكي أيضاً عمّن شاركوا في طمس الحقائق التي كتبتها، ومنهم برلمانيون، وسياسيون محنّكون، ومذيعون، ومروّجون لنظريات المؤامرة، ودجّالون، ووزراء سابقون، وحاليّون، ورجال دين، وملحدون، وثوريون متقاعدون، وإعلاميون، وصحفيون.

كلّ حزب ستجد من يبرّرها، ويدافع عنها، ويسمّيها الاسم اللائق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بها، الذي يعبّر عن حقيقتها. أسميتها أنا: «حرب الولادة»، أما النسوة، بطلات هذه الحرب، فأسموها: «الأبيض المنتهي»، بينما روّج قائد بلد المحيط لمسمّى «الحرب على الفوضى»، ووصف نساء بلده بالانفصاليات، لأنهنّ قُدن ضدّه حربَ شوارع حاولن بها إسقاطه.

أفتخر أنني دوّنت ما حدث أولاً بأول، وإن كنت حتى الآن لا أدري كيف سأخرج بما كتبت من صفحاتٍ، ودفاترَ، تمتلئ بسطورٍ لا نهائية عمّا جرى.

ينتابني الجنون كلّما شعرت أنني لن أفرَّ إلا بنفسي، تاركاً سطوري ورائي، لذا أعيد قراءتها عليكم اليوم، وسأبدأ حكايتها كما بدأت منذ ثلاث سنوات، بشاهيناز، العجوز النبيّة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شاهيناز المعمّرة: عجوز شائخة من الداخل، فاتنة صبوح من الخارج

(1)

لا أعرف كيف وصل إليّ هذا الرجل المرتّب مثل طقم حلل عروس اشترته عانسٌ.

يقول إنه جاء من الخارج لكتابة حكاية قصة الحب التي تجري بين رجل وامرأة هنا، ولكن هل يوجد مثل هذا الشيء؟ الحب؟ اعتاد رجال المدينة ونساؤها الزواج عبر مؤسسة «المجتمع المستقيم»، التي تنشر كلّ أسبوع صوراً وبياناتٍ للفتيات الجميلات اللاتي بلغن سن الزواج، فتيات في التاسعة عشرة والثامنة عشرة من أعمارهن لم ينضجن تماماً، إنما نضجت بويضاتهن واستعدّت لاستقبال الحيوانات المنوية لتفريخ الأطفال ومنحهم للدولة بعد وصولهم إلى سن العاشرة، شباب البلد يتزوّجون زواج معامل خوفاً من النفي إلى مزارع الصحراء، التي باتت سجوناً للعُزّاب، أو خوفاً من الإخصاء النهائي، وهي العقوبات المتدرجة التي فرضها رئيسنا على رافضي الزواج، يسجن العوانس، ويخصي العُزّاب، ينشر الفضيلة بطريقته، لكنه لحسن الحظ لم يقترب مني، بتُّ مشهورة وسط الحيّ بكراماتي، وأفضالي على النسوة، وبلغت شهرتي الرجل، فلم يرسل الخفراء لطردي، أو لمحاكمتي على عنوستي التي لا دخل لي فيها.

أقول لروحي: الحب موجود، ويوماً ما أحدهم سيعود، وكلّما طُرق بابي، أقول ها هو قد عاد، وسرعان ما أفتح فأجد الصمت.

هذه المرة كان على الباب هذا الشاب الحليق، تفوح منه رائحة عطور أخّاذة، يرتدي ملابس شابٍّ جامعي، بنطلون جينز ممزّق عند الفخذ والركبة، وسويت شيرت قطني أبيض، ولا تبدو على جبينه قطرة عرق، كانت في كفّه ورقة ممزّقة من صحيفة قديمة، تحوي ذلك الخبر الذي كتبوه عني بعد الواقعة، يحملها كأنّ الخبر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دليله إلى منزلي، لكنها في الحقيقة كانت تحوي تلك الذكرى المقيتة. كانت سطور الخبر تقول:

«شهدت عاصمة بلد المحيط حادثاً مؤسفاً مساء أول من أمس الخميس 18 مارس، في قلب ميدان الخضراء، بطلته فتاة كانت تقف إلى جوار والدتها على محطة الأتوبيس في انتظار الأتوبيس رقم 17، الذي كان من المفترض أن يقلّهم إلى حيّ العشش، كانت الفتاة ووالدتها قد أنهتا رحلة تسوّق طويلة، على مدار اليوم الذي مرَّ هادئاً كالعادة في الميدان المزدحم بهؤلاء الذين جاؤوا للتسوّق وشراء احتياجات عيد الفطر، وقبل وصول الأتوبيس المنتظر، اقترب شابّ أسمر قصير القامة مملوء البنية، ونظر إلى الفتاة وأمعن في ملاحقتها بنظراته، وحينما وصل الأتوبيس، أسرعت الأم، وتركت خلفها الابنة، التي تحرّش بها الشاب، ثم مزّق ملابسها على مرأى من كلّ الناس».

حينما فتحتُ الباب، لم يُلقِ التحية. ظلَّ يحدّق في وجهي، كأنه يتأكد من ملامحي، يتأكد من عثوره عليّ، ثم قال: «أخيراً وجدتك!».

ثم صمت كأنه لم يجد المدخل الجيّد لتعريف نفسه، فقلت أستوضحه:

- أنت مين اللي باعتك؟ المحل مش بفتحه دلوقتي!

قال كأنه لم يسمعني:

- جئت لأتكلّم معك عما يحدث في البلد هذه الأيام، لا ريب أنك على دراية بما يتكلّم عنه الناس.

تعجّبت من طريقته في الكلام، ومن الفصحى التي يستخدمها، كأنه مدرّس نحو، خمّنت أنه لم يتحدّث كثيراً مع آخرين، أو أنه تعلّم الكلام بالعربي قبل أن يطرق بابي بلحظات، طرحت السؤال في تردُّد:

- أنت مين؟ وعرفت طريقي إزّاي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- سألت ووصلت.

تقدّم خطوتين بقامته الشاهقة. تأملته، ملابسه تشي بأنه مسافر متعجّل، الغربة واضحة على ملامحه، لكن نظرات عينيه مطمئنة مع ذلك.

سمحت له بالدخول، كان قد تخطّى عتبة بيتي فعلاً. عادةً لا أسمح للغرباء بدخول بيتي، لا يطرق بابي أيّ رجل، إلا أولئك الذين أجلبهم بنفسي. كنت أتحرك ببطء، أمسك يدي كأنه يختبر درجة حرارتي، وقال:

- تعيشين وحدك منذ سنوات؟ لم تتزوجي منذ الحادث؟

نظرتُ إليه في استخفاف، من هو حتى يسألني لماذا لم أتزوج؟ انتزعت يدي من كفّه، ثم قلت:

- أتجوّز مين؟ أنا بلعن كلّ رجالة البلد!

ثم بترت باقي عبارتي، أعرف أن نصف ما قلته كذب، ألعنهم صحيح، لكنني أنتظر دائماً أحدهم. بحثت عيناه عن مقعد، ثم تقدّم نحوه، وجلس في ثقة، كأن البيت بيته، أخرج من حقيبته ما يشبه الأجندة، لكنني فوجئت بانبعاث أضواء منه، ثم أدركت أنه ما يسمّونه هذه الأيام «تابلت»، حاولت أن أراقب ما يفعل، لكن ضعف بصري عاقني، أدركني هو حينما قال:

- لكن الزواج كان سيداويك، أليس كذلك؟

شعرت أن كلماته جريئة أكثر مما ينبغي، قلت مستهجنة طريقته:

- من دون ما تعرفني بتكلّمني عن جوازي؟

- لا، لكن هناك أسباب أخرى.

قالها وهو يبتسم ابتسامته العريضة المغوية، ونظراته تتفحّصني، فأحكمت لفّ الشال على صدري، وهندمت فستاني الطويل الأزرق الذي أحبُّ ارتداءه دائماً، إذ أشعر أنه يمنحني تخفّياً لا أعلم كنهه، لكنه يخبئ كثيراً من تفاصيل جسدي، فيبدو مشدوداً في أعين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغرباء، أعرف أنه يتأمل في دهشة هذه المعجزة التي أصابتني، ظننت أنه مثل الآخرين، مخدوع بمظهري الخارجي الذي لم يتبدّل، شكلي الذي لم يزل فاتناً، بدني الذي لم يزل مشدوداً وملفوفاً، وقامتي المفرودة، على الرغم من أنني أشعر بآلامٍ في ظهري، وفي ركبتيّ، وفي مفاصلي، إلا أني أبدو مثل فاتنة في العشرينيات.

قلت له مبتسمة بمرارة:

- إذا كنت صحفي عاوز يفتح اللي فات، أنا زهدت في أيّ كلام، أنا عجوزة، بوش شباب، وشي مكرمش تحت جلدي، بضحك بالعافية، إن كنت فاكرني قمر!

رمقني في دهشة، ثم اعتدل في مقعده مائلاً تجاهي، وهو يقول:

-أنت معجزة مخبّأة، تتقدّمين في السن، بينما ملامحك صبوحة، نضرة، كيف عجزت قوانين الكون عن إصابتك؟

صمت قليلاً، وهو يتخلّى عن دهشته، ويحاول أن يكسو وجهه بطابعٍ واثق:

- جئتك لأمرٍ مهمّ، هناك قصة حبّ تدور أحداثها هنا في المدينة، تعلمين طبعاً أن لا مدينة غيرها، لكنّني منذ وصلت، لا أعرف كيف أستدلّ على طرقَيها، إلا أنني لاحظت أشياء أخرى تحدث، منها مثلاً اختفاء الأطفال من الشوارع. أين ذهب الصغار؟ هزّني صمت الحدائق، وخلوّ الشوارع من التلاميذ. أما وجوه الناس، فصارت تنضوي على أسرار، وتدفنها. هل لديك تفسير؟

يتحدّث عن الشيء الذي أنتظره. عن الحب الذي صار هدفاً صعب المنال، ويقول إن ثمة قصة بين اثنين، هل تحلم يا هذا؟ أما اختفاء الصغار، فقد لحظته في رحلتي اليومية إلى المحلّ في سكّة سوق الزلط، بل رأيت كتابات على جدران المدينة، كتابات غريبة مؤذية، النسوة اللاتي يتردّدن عليّ في الضريح يهمسن أيضاً عمّا يجري، وعن المكتوب على الحيطان. الناس مشتاقون للبوح، فلا يجدون سوى الجدران، وحينما يبوحون لي بما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضايقهن لا يقلن كلّ شيء، يتخيّرون لبوحهم جدراناً شهيرة ومعروفة، وفي مواقع حيوية في البلد. يختارون تلك الجدران التي شيّدها أرباب السلطة، من الأحجار الضخمة، التي تشبه أحجار المساخيط، فإذا بقادة البلد يغلقون بها الشوارع في وجه الثورة الجارفة التي اندلعت منذ عشرين عاماً. كتل حجرية عملاقة بنوا بها أسواراً أمام الثوار لوقف زحفهم على المنشآت، تحوّلت الجدران إلى صفحات مفتوحة لا نهائية لكلّ من يرغب في أن يدوّن سبابه ويختفي، تبقّت جدران أخرى في شوارع شهيرة، لكن ظلّت الشتائم تلطّخها، حاصرت الشتائم الجدران، بعدما كانت الجدران تحاصر الثوار، استغلّها هؤلاء وسطّروا عليها نقوشهم التي اختلفت عن النقوش الوثنية. من هذه النقوش، عبارة كتبها أحدهم بعلبة دوكو حمراء اللون: «الحب سينتصر على الحكومة».

قطع الرجل أفكاري، وقال فجأة:

- ملاهي الأطفال خالية بشكل عجيب. هل هذا معتاد؟ الرياح تعصف بمراجيح وألعاب خاوية كأنها مدينة ملاهي لأبناء الأشباح، يحرّكها الهواء وفقاً لرغباتهم، كأنها تستجدي الأطفال أن يكفوا عن الاختباء، ويظهروا ليلهوا بها. محال اللعب الكبرى أفلست، وأنا في طريقي إليك مررت على بضعة مستشفيات للولادة فوجدتها خالية، أعجزت بطن المدينة عن قذف أطفال جدد إلى شوارعها؟ ما رأيك في ما يحدث؟

قلت في حذر:

- وأنت متوقع إني هدردش معاك كدا ببساطة؟ وفي أمور خطيرة زيّ دي بدون ما أعرف اللي وراك؟ مش جايز تكون ملعون من الملاعنة اللي بيتجسّسوا على البيوت، ويخشّوها في أنصاص الليالي ويجيبوا عاليها واطيها، ويلفّقوا التهم للجدعان؟

صمت، وخيّم هدوء مقيت، فقطّب جبينه في يأس، وهو يحار كيف يعيد مجرى الكلام بيننا ويصل ما انقطع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اسمي جون، موظف بالأمم المتحدة. جئت في مهمة خاصة: تحقيق في ظاهرة عقم رجال البلد، رؤسائي يخشون تمدّدها، ويظنّون أن قصّة حبّ ستعيد الأمور إلى ما كانت عليه.

حاولت أن ألاحق ما يقول، يتحدّث بسرعة، بلكنةٍ هشّة، لكن ألفاظه دقيقة وواضحة، مما ضاعف الحذر تجاهه داخلي، لكنه كان محقّاً بشأن موضوع العقم، ففي ساعة متأخرة من إحدى الليالي، كنت أغادر الضريح، فوجئت بشابة ترتدي قناعاً على وجهها، تمسك في كفها بعزم وقوة زجاجة «سبراي»، وتكتب على حائط الجامع عبارة تقول: «البلد التي تبتذل الحب، هي بلد مخصيّة».

تسبّبت هذه العبارات وغيرها في إزعاج السلطة، تداول آخرون صورة لرئيس الحيّ بكرشه الضخم، وهو يهدّد كلّ من سيلوّث جدران المدينة بكتابات مسيئة، توعّد بفرض غرامة ثلاثة آلاف دولار. صار الدولار هو العملة الرسمية للبلاد بعدما اختفت عملتنا وأغلقت البنوك أبوابها إثر إفلاسها، وعلّل رئيسنا ذلك بأن مشروعه الأخير، الذي استهدف ردم جزء من المحيط من أجل إنشاء مدينة جديدة في قلبه لجذب السائحين، قد استهلك احتياطيّ البلاد في بنكها المركزي، تحمّل البلد مشروعاته الفاشلة التي ملأت رحمه ديوناً كثيرة، وإن لم يُعجَب الدائنون الدوليون بفكرة احتلالنا، بل فضّلوا التوقف عن إقراض الرجل، فكفَّ عن التسوّل من البنك الدولي، وظلّت الصحف مع ذلك تنشر صورته البهية، التي يطلّ فيها بنظرته البراقة، وضحكته الساخرة المتشفّية.

التلويح بالغرامات، لم يردع أصحاب الكتابات، إذ تداولوا صورةً لرئيس بلد المحيط، وبين أصابعه الممتلئة سيجارٌ فخم، طبعوا صورته بطريقة «الاستنسل» ثم نسخوها على جدران المدينة ليلاً.

استيقظ الناس، ووجدوا صورته تلطّخ جدرانهم، فتذكّروه وهو يهدّد بقوله: أحدهم كتب على الحيطة «العالم يزداد قذارةً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وللست والدتك؟

انتشلني من أفكاري، حين قال بثقة: «ربما لا تعرفين شيئاً مما يجري!».

ما من دابّة تدبّ بقدمها على الأرض إلا ولديّ خبرها، لكنّه لا يدري. تفرّست فيه، وقلت في نفسي إنه جريء ووقح، ثم قلت:

- أنا أبعد واحدة عن الحكاية دي ومعرفش عنها حاجة. روح اسأل في وزارة الصحة.

قلتها كأنني أنفي تهمة. بشكل ما أنا متهمة فعلاً، لكن من أدراه؟ أخرج علبة سجائر جلبها لا ريب معه من بلده، واستلّ منها سيجارة رفيعة طويلة مدببة، ثم كأنه تذكّر شيئاً نسيه، عاود التحديق في وجهي، وقال متخوّفاً من رفضي:

- ممكن أدخّن؟

- افتكرت تستأذن دلوقتي؟ ميهمّنيش تدخّن ولا متدخّنش، أنت أبله! يهمّني أن أعرف، عرفت عنواني إزّاي؟ من دلك عليّ؟

أشعل سيجارته، ونفث دخانها وهو يحدّق في «التابلت» الراقد على حجره، ثم قال:

- دلّني عليك أولاد الحلال. بلدكم صغيرة وأنت أشهر من نار على علم. في البداية كنت أبحث عن قصة الحب المزعومة تلك، فإذا بي ألحظ اختفاء العيال، وقلت لنفسي لم لا أنفّذ تعليمات رؤسائي بالبحث عن المعمّرة الفاتنة، وبدأت أسأل، والتقى ما سمعته من الناس مع البحث الذي أجريته عنك، فتأكدت أنك هي: شاهيناز، فتاة ميدان الخضراء، التي تحطمت حياتها بعد واقعة الاغتصاب الشهيرة.

يثرثر كثيراً، والمحلّ ينتظرني، ضقت به ذرعاً.

- أنت مضيّع وقتي.. حاسس بكدا؟

رمقني بنظرات حائرة، ثم ظهرت على ملامحه خيبة الأمل، وقال:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- كيف استطعت أن تعيشي بعد الحادث، بينما كلّ الناس ضدّك؟ هل من السهل أن تسيري في الشوارع؟ هل يعرفك الناس على الرغم من أنهم وضعوا شريطة سوداء على عينيك في الخبر الذي نشرته الصحيفة؟

آلمتني كلماته، خاصة حينما ذكر الشريطة السوداء. أنا الضحية، وعاملوني مثل المجرمين، اتهمني مدير الخفراء بأنني أغريت مغتصبي، ليرتكب فعلته. كيف أغري أحدهم في ميدان عام ليهتك عرضي؟! طمسوا موضع الحادث، بدلاً من أن يصنعوا تمثالاً لفتاة مغتصبة في ميدان عام، أو يتراجعوا عن هجومهم عليّ، حفروا نفقاً لمترو، ورفعوا علامة M بغيضة على عمود قبيح، تقف العلامة عالية، شامخة في موضع الحادث الذي أحنى رأسي. أنا شاهيناز التي انتصر لها الزمن بأن تظل جميلة، تعويضاً لها عن الفضيحة التي لاحقتها. ماذا أقول لجون، الذي طرق بابي فجأة، هنا في عطفة عطا الله، إحدى العطفات الضيقة، المتفرّعة من علوة المنتصر، في باب الشمس؟ جاء خلف قصة حب، في بلادٍ لا تحوي إلا مدينة واحدة، هل أقول له إنني أمّ الشرور؟ وإنني حينما أقبّل الرجال، أذيب رجولتهم؟

هل أروي له كيف اكتشفت ذلك بمحض المصادفة، حينما فعلتها مع أحدهم؟ كان موفور الخصوبة، فإذا به يبكي على بابي بعد ذلك بأشهر، ويلعنني لأنه ضاجعني، إذ صدمه الطبيب بإبلاغه أنه أصيب بحالة عجيبة من العنّة.

أنا مثل الميدوزا، لكن اللعنة لا تخرج من عيني، اكتشفت أن الشرور التي تجمّعت داخلي من ظلمهم لي، وافترائهم عليّ، صنعت مجمرة بشعة من الجراثيم الغامضة. في البداية ظننت أن لعنتي تتجسّد فقط في إصابة الرجال بالعجز. لكنهم كانوا يمارسون الجنس، ولا يصلون أبداً، ارتبطت أربع مرات، هذا ما رغبت في إخفائه عن جون، وفي كل مرة كانت الزيجة تفشل، كانوا يكتشفون أنني فتاة الميدان، التي اغتُصبت ليلاً على عتبة الحافلة، فيفضّون الزيجة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرة جديدة انتشلني من أفكاري، حين قال مترددا:

- هل يزعجك إن أقمت عندك قليلاً؟ في الفندق الذي أقيم فيه أشعر بأجواء عدوانية، على الرغم من أن نسبة الإشغالات في الفنادق منخفضة، لذا أفضّل البقاء معك، بالتأكيد لن تمانعي، قالوا لي إنك كريمة، وترحّبين بضيوفك.

- إزّاي تطلب مني إني أستضيف غريب في بيتي؟ الناس واقفة لبعضها بالسكاكين. اتفضّل حضرتك.. أيّ فندق محترم سيسعده استضافتك.

كنت أفضّل أن أزيحه من طريقي، كي أتفرّغ لعملي في محلّي الذي أبيع فيه مستلزمات الدفن بباب القمر، طبعاً سيعيقني وجوده، خاصة أنني في المساء أفعل ما أفعله منذ سنوات: أذهب إلى ضريح الولي، لخدمة اليائسين، والقانطين، تحيط بي الأنظار، وترصدني العيون الشبقة، يرونني شابة، على الرغم من شيخوختي، تسحرهم فتنتي، التي حُرمت من رؤيتها مهما وقفت أمام المرآة، يطالعني الوجه العجوز القبيح، بينما هم يرون وجهاً فاتناً صبوحاً، فكيف أستضيفه، وكيف أواجه الناس وفي بيتي هذا الرجل الغريب؟

سيحدّ من حريتي، وبالتأكيد أرسله رجال السلطة ومهاويسها للتجسّس عليّ، لم أصدّق قصة الأمم المتحدة تلك، أيّ أممٍ متحدة تعبأ ببلد رجاله يتزوّجون رغماً عنهم كي يمنحوا حيواناتهم المنوية لمعامل الإنتاج ومزارع الصحراء، ونسوته يُسَقْنَ في سوق نخاسة لتحقيق هذه الرغبات الشاذة! لا بدّ أن مهاويس السلطة وعسسها أرسلوه ليقيم عندي كي يعرف أسراري، ومنها حكايات المغرمين الذين يسقطون في خديعة فتنتي المزيّفة. في إحدى المرات، حينما عدت من الضريح، قرّر شابّ نضر البشرة، طويل وجميل المنظر، أن يصطادني، فعدت به إلى حجرتي في العطفة، وقد أعجبتني محاولته، وأغراني أنني لم أزل مطلوبة، وفتنتي كالمغناطيس لها القدرة على جذب الرجال ذوي الخبرة، والقدرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما إن خلعنا ملابسنا، حتى أطلّت العجوز داخلي، شعرت بحرارة في أطراف أصابعي، كما لو أن الشرور تنساب منها، فذبل شيءٌ داخله، امتصصت رحيقه، بالطبع قبّلته قبلها، قبّلته قبلةً طويلة شاهقة، كأنني أتجرّعه، ربما نفخت فيه من روحي الملعونة، فضاع سرّه الذكوري، وبذرة قوّته التي تجعل منه رجلاً: القدرة على الإنجاب.. السائل الأبيض.

أبحث فيمن يرغبون في اصطيادي عن كلّ المجرمين الذين فرّطوا في قضيتي. أبحث عن القاضي الذي حكم ببراءة المغتصبين، كي أقتصّ منه، بإذابة سائله، ومن زملائه الموظفين الذين يعملون معه في المحكمة، ومن المحامين الذين يترافعون أمامه، أبحث عن مدير الخفراء، الذي تهكّم عليّ في تصريحات أدلى بها للجرائد، اتهمني فيها أنني من أغريت المجرمين ليتحرشوا بي، وأنني سكتُّ. زعم أنني كنت سعيدة بملامسة أصابعهم لجسدي بينما يخلعون عني ردائي. لهذا أنتقم من أصحاب هذه البزّات الرسمية المماثلة، الذين تلمع أكتافهم بنجوم مبهرة، وسيوف، ونسور، أبحث عن رسام الكاريكاتير، الذي رسم كاريكاتيراً تهكّم فيه عليّ، صوّر فيه سيدة عجوزاً، واقفة في الميدان، تتصل بالقسم، وتقول: «أنا بقالي تلات ساعات واقفة في ميدان الخضراء، ومحدّش اغتصبني!».

أصطحب أولئك الذين على صلة بخصومي، إلى غرفتي، وهم تقريباً سكارى، بهيئتي الجميلة، وردائي الحابك، أكتم تأوّهاتي المتألمة، كي لا أكشف حقيقة المرأة العجوز الكامنة في ركن داخلي، يتحسّسون شعري، وجسدي اللدن، وأنا أتعجب، لماذا لا أستطيع تحسّسه أنا أيضاً، هذا الجسد الذي هو لي، يفتنهم، لكنني لا أرى سوى تجاعيده، وضمور جلده.

كان الرجل قد استراح تقريباً في جلسته، وظلّ محملقاً في شاشة «التابلت» الذي يحمله، لم يشعر بمرور الوقت، سألته فجأة: «أنت لسّه هنا؟».

نظر إليّ حائراً، فشعرت أنه سبق أن أجاب عن هذا السؤال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يجب أن أكون قريباً منك، كي أصل إلى نتائج وإجابات عن قصة الحب المزعومة، وفي الوقت نفسه أعرف لماذا لم تعد مدينتكم تستقبل الأطفال، بالتأكيد لن ينقرض أهل المدينة المطلّة على المحيط، لكن العالم شاسع، لا نعرف ماذا سيحدث إذا خرج الوباء من هذه المدينة، بعد سنوات القتل والتآمر اللاتي شهدتها العاصمة، ربما قرّرت روحها أن تتملّص من كلّ هذه الآثام، بألا تستقبل أجيالاً جديدة. وهل يفلح العلم في إنقاذ المدينة من مصيرها، إذا استوردنا قوارير سوائل منوية من السويد، أو من سويسرا، من بنوك المني في أوروبا؟ هل ستسترد المدينة الولادة، حتى لو من سوائل منوية ليست من صلب رجالها؟

كان يتحدّث بحماس شديد، وصدره يعلو ويهبط، وتتناثر من فيه قطرات رذاذ، ظللت أحدّق فيه، وأنا أفكر في كلماته، هل امتدّت لعنتي إلى سائر أنحاء المدينة؟ بالتأكيد لم أنقل العدوى إلى آفاق أبعد من محيطي، صحيح أنّ لعنتي مستمرّة منذ سنوات، لكنها تعجز عن أن تتطاير في الهواء كحبوب اللقاح. شعرت بالخوف، فكّرت أن أعاود طرده، ثم تراجعت، تخوّفت أن يرتاب فيّ، فيعود إلى مهاويس السلطة يخبرهم أنني طردته، فيحبسونني مع العانسات، أو يشنقونني ببساطة. ظلّ يرمقني بنظراتٍ ثابتة، ثم فجأةً سقط رأسه على صدره، وأطلق شخيراً. نام وهو جالس.

(2)

تركته نائماً، ودخلت إلى حجرتي، وأغلقت بابي بالمفتاح من الداخل، وحاولت تحريك بعض قطع الأثاث، لكنّني عجزت عن دفعها قيد بلاطتين، فاستسلمت، وجافاني النوم. لم يكن وجوده في بيتي مصدر قلقي وخشيتي فحسب، بل شخيره الذي علا، وأبقاني قلقة أن يسمعه الجيران عبر الحائط المجاور.

نام بملابسه على مقعده، وربما افترش الأرض خلال الليل أسفل المقعد، لكن لمّا طلع الصباح، وجدته هبَّ من رقدته، نشيطاً، وغاب في الشارع قبل أن يعود بالفول والبصل والليمون والطعمية، والبيض المسلوق والجبن القريش، والباذنجان المخلل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والعيش السخن، قال في جذلٍ وهو يرصّ الأكياس على مائدتي، ويفتحها في شهوة، ويجلس بسرعة ليأكل في شراهة:

- لا أصدّق الأسعار الرخيصة هنا في بلدكم! كلّ هذا الإفطار الشهيّ بدولارين! أنا هنا أمير وسط الجياع.. الناس كانوا يرمقونني وأنا أطلب كلّ هذا، بينما كلّ واحد منهم يطلب صنفاً واحداً لا أكثر.

أخذ يلتهم الطعام نشوان، ولم يدعُني إلى مشاركته الطعام، فذهبت لأجلب له كوباً من الماء.

حين انتهى، كان قد تبقّى الكثير من الفول، والبيض، في أكياس الأكل. ربّت على كرشه، فقمت إلى المطبخ، وأعددت له الشاي، من دون أن ألفظ بكلمة عتاب، وبعدئذٍ تأمّلت ضوء النهار في الخارج، والشمس التي أرسلت أشعتها بكثافة إلى الحيّ الذي يحمل اسمها، قلت في خفوت، وأنا أتحرّك بعزمٍ تجاه الباب: «فتّك بعافية!».

كان قد أشعل سيجارته، وأخذ يدخّنها في تراخٍ، وقد أثقله الطعام المهول، لكنّه هبَّ فجأة من جلسته كأنه تذكّرني بغتة، وقال:

-إلى أين؟ والإفطار؟

قلت من دون أن أمنحه نظرة:

-إلى محلّ الأموات.. متدراش كام ميت مستنيني.

امتعضت ملامحه من إجابتي، وربما قال في نفسه: «دعها تذهب في داهية». تركني أغادر دون أن يواصل إلحاحه بتناول الطعام. كانت الطرقات تخلو من الناس، والشمس مضيئة بكثافة، كأنها خبزت أشعة طازجة غير تلك التي أشرقت بها على الدنيا صباح أمس، وحينما بلغت المحلّ، شممت الرائحة التي أشمّها يومياً، فأطمأننت على البضاعة: رائحة النفتالين، المختلطة بالمسك، المعبّأ في قوارير متراصّة بحرص على الأرفف، فوق التوابيت الخشبية، وبجوار الأكفان، وأجولة القطن، التي يحصل كلّ ميتٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منها على قطعتين، قطعة تسدّ فاه، وأخرى تسدّ شرجه، وهكذا يمضي إلى بطن الأرض، وسط اطمئنان أهله أن الدود لن يمزقه، بينما تجد الديدان نوافذ عديدة تخترق عبرها الأبدان.

ظللت في المحلّ حتى الثامنة مساءً. حركة البيع اليوم كانت كثيفة كما ظننت، وحينما دقّت الساعة ثماني دقّات، لملمت فوضى البيع ورتّبت المحلّ، وأغلقت درج الفلوس، وشددت الباب، وانعطفت إلى ضريح سيدي العريان، في مسجد العروسي، الواقع في حيّ باب القمر، الموازي لحيّنا، والقريب من بيتي في علوة المنتصر، في عطفة عطا الله.

يقع الضريح في سكّة سوق الزلط، المتفرّع من ميدان باب القمر، حيث يجلس تمثال المغنّي الشهير، الذي حمل رتبة لواء تشريفاً وتكريماً له من الرئيس، كان التمثال قد سقط حينما علّق عليه الأهالي لافتات تأييد للرئيس والقائد الأعلى لبلد المحيط، كلّ مرّة أتطلّع إلى التمثال، وأتعجّب لماذا سقط؟ ألم يحمل صاحبه رتبةً عسكرية يوماً ما؟ يقولون إن أرواح الراحلين تحلّ في تماثيلهم، إذا صنع لهم ذووهم تماثيل، أو منحوتات، وحالة التمثال في الدنيا تدلّ على حالة صاحبه في الآخرة، فإن سقط التمثال، أو مال، أو تهشّم منه جزء، دلّ ذلك على سوء مصير صاحبه، وأن مسلكه في الدنيا أوصله إلى الهلاك. أرمق ألوان التمثال البرونزية والنحاسية والبنّية العجيبة، لا أشعر بفساد ذوق صاحبه، أقصد النحات، هذه الألوان الكابية القاتمة تليق بالأيام التي يعيشها التمثال وسط الميدان.

أنعطف في سكة سوق الزلط الواقع إلى اليسار، ساحة هائلة أمرّ بجوارها في مدخل سكة السوق، معلّقة عليها لافتة تقول كلماتها: «سوق الحدّادين النموذجي»، كلّ شيء في باب القمر كتبوا عليه كلمة «النموذجي» بعدما طوّروه، أو حاولوا تطويره، لا أعرف لماذا يطوّرون الشوارع والأسواق وواجهات المحالّ ويضعون عليها لافتة تنتهي بكلمة «النموذجي». بعد سوق الحدّادين تجاورت محالّ الكبدة والفشّة والكرشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في سكّة السوق، يختلط البشر ويتناسون أغلب همومهم ويدفنونها في حركة البيع والشراء، محالّ الألمنيوم تتجاور مع تجار الفاكهة والخضار، أحدهم كان يستأجر سيدات مسنّات، وزوّدهن بقفف يجلسن بها على يمين الشارع، تنحصر مهمّتهن في تقطيع الخضار، وتنظيفها، وبيعها في أكياس بلاستيك لربّات البيوت في السكّة، ربما كنت شاركتهنّ الجلسة نفسها، لو لم يكن لديّ المحلّ الذي أبيع فيه مستلزمات الجنازات.

أمرّ باتجاه مسجد العروسي، الواقع على يسار سكة سوق الزلط، أحاذي مسجد سيدي أحمد الصوفي، الواقع على يمين الشارع، قبالة مسجد العروسي، المصلّون يرمقونني بنظراتٍ مستريبة، لكنني لا ألتفت، بجوارهم يجلس الشيخ صاحب محل السمك والجمبري، والبوري، يرشّ الملح والخلّ على بضاعته كي تبدو طازجة ومتوهجة، تتصاعد رائحتها فلا تثير المارّة، ولا تزعج المصلّين.

ينبعث ضوء مصابيح المحلات من اللمبات المبهرة المعلّقة على واجهاتها، وينعكس على شرفات مسجد العروسي، المشغولة من خشب الأرابيسك، التي تزيّن واجهته، أعرف أن الليلة ليست لزيارة الضريح. حدّدت ثلاثة أيام كلّ أسبوع، أزوره فيها، وأستقبل الزائرات، اللاتي يجئن يعرضن حوائجهنّ المختلفة، رمقت بعيني البناية القصيرة التي تجاور المسجد، والمكوّنة من طابقين، أعدت قراءة الكلمة التي كتبها صاحب البناية على اللافتة: «الكرابيجي»، اسم عائلة تتاجر في أسياخ الحديد والألواح المعدنية وقطع الخردة والصاج. عدت لتأمُّل واجهة الجامع، وبوّابتيه الخشبيّتين، على البوابة الرئيسية قفلٌ لامعٌ، على الرغم من أن المسجد مغلق منذ سنوات، وثبتُّ على شفتي بسمة ساخرة، لا يمكن أن تكون هذه الأقفال مغلقة منذ خمس سنوات كما قال أحدهم، قالوا إن الوليّ لم يزل هناك مدفوناً في مقامه، وإن أحداً لم يزره ويحتفي بمولده منذ خمس سنوات، فمن يجعل هذا القفل جديداً لامعاً؟ من سواي؟ هل يغادر الوليّ مقامه؟ يرتحل ليلاً، يتفقّد مريديه، ليتأكّد أن مظالمهم قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استُجيب لها؟ وهل يحتاج وقتئذٍ إلى فتح القفل، أم أنه يطير بشكل ما؟ أو تتسرّب جزئياته من بين ثغرات الباب الخشبي؟

أمضي اتجاه الباب ذي القفل اللامع، يرمقني الشاب الذي يقف على عتبته ببضاعته من الأطباق البلاستيكية الرخيصة، والأكواب الزجاجية رديئة الصناعة، ومع ذلك تتحلّق حوله النسوة، وربّات البيوت القاطنات في الحيّ، يرمقني وهو يعرف أنني أدخل إلى المقام كلّ يومين، بخلاف الأيام الثلاثة التي أستقبل فيها الزائرات، وأضع مظلمة جديدة، لعلّ سيدي العريان يستجيب، أخاطب الوليّ المدفون في قلب المسجد، وألقّنه أسماء كلّ من أرغب في الانتقام منهم.

نزحت إلى باب الشمس بعد عامٍ واحد من واقعة اغتصابي في ميدان الخضراء، هربت من الفضيحة التي سرت في كلّ الأنحاء كالديدان، كأسراب نملٍ أفريقي، تنهش عالمي كأنه خشبٌ هشّ، أصدقائي انفضّوا من حولي، نظرات زملائي طاردتني وعيونهم تحمل مقتاً واشمئزازاً، كأنني سرقت إرثهم، كنت قبل ذلك موظفة في مشفى العيون. مخطوبة لطبيب مرموق. اختفى هو الآخر فجأة. على الرغم من أننا كنا نجهّز شقّتنا للعرس الميمون. الزواج كان وشيكاً، لكن كلّ هذا اختُطف فجأة، كأنّ نافذةً فُتحت في السماء ليتدلّى منها لسانُ عفريتٍ مارد يلتهم كلّ ما كان على مائدة حياتي، التهمه في قسوة، واندثر عالمي، رمقت مَن حولي، وسألت نفسي: لماذا تكون هذه الفضيحة من نصيبي أنا؟ لماذا أنا؟

فكّرت أحياناً أنه من الظلم، أن يعيش إنسان في هذه الدنيا ليعاني، ليعاني فحسب، وليس أيّ شيء آخر، لا يتمتّع بدنياه، ولا يتخطّى فترات المعاناة كأنه ملعون. ويستمرّ في هذه المعاناة مدفوعاً بالاستمرار غير المبرَّر لحياته، غير قادر على الفكاك، أو التوقف، أو العودة إلى الخلف.

قبل ذلك، طلبني مديري في المشفى، واجهني في مكتبه بقراره طردي، كما لو كان يواجه موظّفة اختلست من عهدتها، كان يبدو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنه يراني للمرة الأولى، لكنّه قالها هكذا: «الوضع دلوقتي يا شاهيناز بقى صعب جداً في المكان، الناس كلّها بتتكلّم، وقضيّتك لسّه شغّالة، وأنا يا بنتي هعاملك كأنك قريبتي.. خُدي إجازة.. أو قدّمي استقالة!».

انتقلت وأمي إلى بيتنا القديم في علوة المنتصر، بعطفة عطالله، في باب الشمس، البيت الذي لا أتذكّره، إذ كنت طفلة حينما هجرناه، وأعود إليه وأنا محطّمة في عز شبابي، تستقبلني عطفة عطالله بضيقها الذي يتّسق وضيق روحي. هجرَنا أبي، لم يستطع أن يرافقنا إلى قاعات المحاكمات، كنت وأمي وحيدتين، لم تلبث أن هجرتني هي الأخرى حينما ماتت، وتحرّرتُ. قرّرت ألا أعبأ بأي شيء، نسيت حياتي السابقة حيث كنا نعيش، طويت صفحة وظيفتي، التي ضاعت من دون استقالة، كانت الأعين ترمقني بشراسة في المكتب، حتى أنني شعرت بوقعها يُسلّخ جلدي، أعين غاضبة، ناقمة، كأنني اتّهمتهم في واقعة اغتصابي بالميدان، فقرّرت أن أهرب من تلك العيون، لعلّي أعود إليها وأدسّ في المُقَل التي سلختني دبابيس.

يخشون الجُناة، ويفتحون لهم ممرّاتٍ آمنة للإفلات من العقوبة، أتذكّر الآن، بمزيجٍ من الشفقة والغيظ من نفسي، كيف ارتجفت أمام رئيسي في العمل، وكيف بكيت، وأنا أرتعش، وأتوسّل إليه أن يتراجع عن طلبه، أشعر بالغضب من نفسي، لكنّني الآن على العكس من ذلك، رأيت أن إجباره لي على الرحيل كان مناسباً لاكتشاف قوة اللعنة داخلي.

عملت في محلّ الأموات، أكنس، وأمسح الزجاج، وفي المساء، يغلق صاحبه المحلّ علينا من الداخل، ويضاجعني عدّة مرات، هكذا صرت خرقته البالية، أو ما يحبّون أن يصفوها بالكلمة الدارجة: عاهرته. اعتدت أن أكون تلك الخرقة، اعتدت أن أكون المحظيّة، والمليحة التي تروّح عنه ليالي الحارة، وتمنحه المتعة الكاملة، فيما يمنحني هو لا شيء. في الصباح أعدّ له فطوره، والشاي، والقهوة، وبعد جدالٍ مع أهالي الأموات، ننزوي في ركنٍ قصيّ بالمحلّ لأدلّكه، ويعتصر هو نهدَيّ، ويضمّني في شهوة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي آخر الليل، يغلق علينا الباب من الداخل، بدعوى ترتيب البضائع، وإعادة رصّ الأكفان التي بقيّت من بين أيدي أهالي الأموات الذين يدقّقون فيها، ويفحصون نعومة كلّ كفنٍ على حدة، يغلق الباب، ويلتفت إليّ، وهو يخلع بنطلونه، ويجري ورائي في الدكان عريان هائجاً.

إلى أن قضى الله أمراً كان مفعولاً. مات. ولم يكن هو نفسه يصدّق أنه سيموت، فكيف ببائع أكفان الأموات، أن يقف في الدور ويسعى أحدهم إلى الدكان ليطلب له كفناً على مقاسه؟ كان كالبغل، ذا كرشٍ مترهّل سمين، حينما حمله أهالي حارته، شكوا من أوجاع بعظام العنق والظهر، ولم يكن هناك من يورثه المحلّ، فزوّرت مبايعة، ووقعت بتوقيعه الذي اعتدت أن أوقعه لعملائه وموزّدي الأكفان الذين يتعامل معهم. لم يظهر من يطعن في قصتي، أو في صحّة حجّة المحلّ، فاعتدت الوضع، وصرت ما أنا عليه الآن.

***

لماذا يهتمّ بي جون، ويرغب في ملاحقة حكاية الحب التي تردّد صداها في مدينتنا؟ أيراقبني من أجل الوصول إلى أصلها وفصلها؟ هل سأكون أنا من يدلّه إلى تلك الحكاية؟ أشعر باليأس كلّما خطر على بالي هذا الخاطر.

لم أعرف الحب أبداً. لا في مراهقتي، ولا في شبابي.

في الليلة الثالثة له، قال لي رجل الأمم المتحدة:

- أعرف أنك تعرّضت لانكسارٍ من نوعٍ عجيب، خاصة بعدما اضطررت للحياة في مجتمع أراد أن يدفنك، ويهرسك، لكنّك قاومت الهرس، لذلك نهتمّ بقصتك في الأمم المتحدة، هل يا ترى تستطيعين تعطيل اللعنة التي أصابت صغار المدينة، وعطّلت إنجابهم؟ هل بوسعك تحضير تعويذة لإعادة الولادة وصريخ العيال الصغيرة للمستشفيات؟

لم أُجبه، لكني تطلّعت إليه بحيرة، ويأس. تأكدت من ظنوني فيه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو مبعوث مهاويس السلطات الذين يستقصون عن أسباب الوباء المنتشر، ويدبّرون مكيدة للإيقاع بي، لم تنطلِ عليّ كذبتُه، منذ متى كانت الأمم المتحدة تلجأ للعرافات، أو تطلب منهن تحضير التعاويذ، أو تستدعي السحرة؟ الأمم المتحدة لا تعرف أن الوليّ هو الذي بيده كلّ شيء، وأنني مجرد خادمة في ضريحه، أمارس عدداً من الطقوس في سرّية تامة، منها ثقب الأذن لطرد الأرواح الشريرة، ولإبعاد حسد الحاسدين، كما أضرب بعضهن بأحزمة البرسيم، طلباً لشفاء الأسقام، والعلل. أطلب من المتردّدات على ضريح سيدي العريان، أن يذهبن إلى المحيط، ويغافلن حرّاس الشواطئ للاستحمام عارياتٍ في ملوحته، إذا كُنّ يتألمن من الأوجاع، والأورام المستعصية، ستحوطهن بركة وعناية سيدي العريان.

تتردّد على الضريح في سرّية أيضاً العانسات اللواتي تحدد موعد ترحيلهن إلى سجن العوانس، بعدما فوّت العُزّاب دورهن في الزواج في سجلات مؤسسة «المجتمع المستقيم». يحضرن لطلب عملٍ لفكّ الكرب، يطلبن العدالة، والحماية، يطلبن الزواج، للفرار من السجن المقيت وهنّ لا يعرفن، أنني أيضاً أطلبه مثلهن.

يمثّل لنا سيدي العريان الأمل والرجاء، بعض العائلات تتخاصم، ويلجأ كبارهم إليّ في المحلّ، يطلبون عقد جلسات الصلح في مقام سيدي العريان، يتشفّعون به، ويطلبون بركته، وليشهد الاتفاق، وليعاقب المخطئ والخائن للعهود، ولا يدرون، أنني أمتلك نساءهم، وأعرف أسرار بيوتهم وقصصها. هنا صرت سيدة القوم، هنا صرت ذات دلالٍ وهيمنة، بل وحكمة وهيبة، وعلى الرغم من ذلك، لا أغلق الباب في وجه المغامرات. ذات يوم جاء شاب يبدو طازجاً، لشراء كفن، رمقني من أعلى رأسي، إلى أسفل قدمي، وكان من الواضح أنه قرّر أن يغامر هو الآخر، لكنّني تعجّبت منه في الحقيقة، كيف يمضي لشراء كفن، وهو يضع عطر «دانهيل»؟ عطر نفّاذ، مثير، يحرّك الأفكار الوثابة، يسبّب الدوار، ويحرّض على التمرّد، شعرت أن الفتى سعيدٌ بشراء الكفن، وهو يشعر بالفرح لأن القدر أزاح الرجل الذي يشتري له الكفن من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقه. من يفكر في أن يضع هذا العطر بينما يتوجّه لشراء كفن؟

بعدما نقدني ثمن الكفن، والقطن والمسك، والزيوت العطرية، أشعل سيجارة، وأخذ ينفث دخانها ببطء، ويتفحّصني عبر دخانه كأنه يحاول أن يهتدي إلى مدخلٍ للكلام، ثم طلب أن يراني في المساء، قلت له إنني أُنهي العمل في الثامنة، فوعدني أن يعود. لم أنتظره، لكنني ضبطت نفسي أحدّق في الساعة بشوق، وخوف. شعرت بالرهبة، وشعرت بالغضب من نفسي. لماذا أنتظر؟ شعرت أنني أسمع صوت خطو العقارب، كأنها تدقّ بحذاءٍ ثقيل على الساعة، على أرقامها، على ثوانيها.

برز الفتى بينما كنت أغلق المحل، كأنه كان يجلس في الجوار، فتظاهرت باللامبالاة، وقلبي يخفق في عنف، أهذا هو الحب الذي جاء جون يبحث عنه؟ ليس قلباً عجوزاً كصاحبته، بل قلب فتاة لم تجرّب من قبل الولع، أو انتظار الحبيب.

تناولت قفل المحل، وأغلقته، ومضينا معاً، أسير بجواره، مُحاولةً السيطرة على أنفاسي المتلاحقة، فقرّرت أن أصمت، كدت أسأله لمن اشترى الكفن؟ وكيف عاد بسرعة من طقوس الجنازة؟ هل هو عمّه؟ هل هو شخص سيرث منه ثروة؟ لكنه بادرني: «فيه حاجة عاوز أصارحك بيها!».

انتظرته، لكنه كان يرمقني، كأنه ينتظر مني السماح له بالكلام، فقلت:

- إيه هي؟

- معايا واحد صاحبي.. يعني بعزّه، واحتمال أطلبه يجي لنا.

أدركت غرضه. حلوفان لا يفكران سوى في أعضائهما الذكورية، حينما يجد أحدهما فتاة تبيع الأكفان في متجر مستلزمات الدار الآخرة، فإنه يعتبرها ساقطة، ويقرّر أن يأخذ موافقتها على أن يجلب معه آخرين. هل هناك أيّ علاقة بين بيع الفتاة الفاتنة لمستلزمات الدفن والموت، وصلاحها أو سقوطها؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعرت بخيبة أمل، وعاتبت نفسي على سرعة حسن الظن. أنا حمقاء، أذهب مع الفتى لأضاجعه، وأظن أنه يبغي شيئاً آخر غير الفـراش، كـدت أقـول لـه: لكننـي عجـوزٌ أيـها الوغـد، عجـوزٌ، وستحطّمان صدري، وحوضي، ولن أتحمّلكما. كدت أرفض، ظهر الامتقاع على وجهي، امتقاع النفس المكسورة، والخيبة التي تظل تصحبني، مع طول العمر، ما فائدة الحياة مع الوجع؟ شعر هو بالأسف، حينما رآني شاحبة، على وشك البكاء، لكنّني نظرت إلى الجانب الحسن في الأمر، بدلاً من أن أجرِّد ذكراً واحداً من سوائله، سأجرِّد اثنين، سأنتقم، لعلّ انتقامي من الرجال هو ما يحجب الفرصة، فرصة لقاء الحبيب المنتظر.

هيّا أيّها الغبيّان، تفضّلا، ضاجِعا الكاهنة العجوز، خادمة الولي، التي لا تمانع أبداً وهي في هذا السن، في المضاجعات الحرام، لكنّكما ستندمان بعد ذلك، حينما لن تجدا داخلكما ما يساعدكما على إنجاب الأطفال.

انتـهز الشـاب فرصـة عطفـةٍ مظلمـة فـي الطـريق، وضـمّني فـي حماس، وشهوة، اجتاحتني سخونة أنفاسه، وحنينٌ لزمان ولى، تعجّبت من جرأته، يفعل ذلك بينما الطريق يحتوينا، وأعين المارّة تحيطنا، بدأت أصابعه تدعك ظهري، قال وهو يقترب بشفتيه من فمي: «قولي كلّ اللي نفسك فيه.. عندنا الليل كلّه للكلام».

لم أدرِ من قال ذلك، أهو رجل الأمم المتحدة، أم الشابّ الذي كان يقبّلني تحت جنح الليل. لكنّني شردت بينما أردّ: «أنا بنت ميدان الخضراء».

(3)

لا أصارح أحدهم أبداً بنصف حقيقتي، إلا إذا كنا على شفا ارتكاب الفعل، الحب الجنوني، المضاجعة بين فتىً وعجوز، اللعنة التي جلبتها التفاحة على البشر منذ آلاف السنين، ومهما ابتكروا من أدوات، أو دهانات، تظلّ أبدانهم قديمة، عتيقة، تتشوّق فجواتها للإيـلاج، أصـارحهم أحيـاناً كلّ سنوات، لأرى ما إن كان أحدهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعرفني، يعرف قصتي، أم أنني أمضغها وحدي، أصحو بها، وأنام معها. الشابّ لم يدرك نصف الحقيقة، فماذا سيفعل إن صارحته أنني عجوز؟ أما هو، فتقدّم مستهزئاً وهو يقول: «فتاة ميدان الخضراء؟»، قالها وهو يطلق ضحكة مستهزئة، مواصلاً التقدّم نحوي: «يعني ساكنة فين؟ عند موقف الأتوبيس؟».

لا يعرفونني، أنا الوحيدة التي أعيش مع كابوسي، وهو كابوس لا ينتهي، أتذكّره كلّ ليلة، أتذكّره كلّ فجر، أعيش معه، وأمضغه، ولا يفارقني، يرقد تحت جلدي، كانت الأفكار تتصارع داخل رأسي، حتى بعدما وصلنا إلى شقّة الفتى العابث، وأسلمته جسداً ظنّه عفيّاً يصلح أن يلهو به. لا أرى منه سوى جلدٍ يابس، وعروقٍ زرقاء بارزة.

بدا المشهد مريعاً، شاب غضّ، يشهق من الشهوة، بينما يقبّل جسد عجوز تآكلت سنوات عمرها، وبدا ذلك في جسدها المكرمش، يقبّله المسكين في شوق وولع، كأنه أعمى، يبدو له الجسد مشدوداً فتياً، بينما تبدو لي حقيقته. مسحت على مؤخرة رأسه في حنان زائف، بينما أحاول كتمان غضبي، ثم انحنيت على وجهه، وقبّلته، منحته اللعنة، محوت نُطفه.

هكذا تسير روحي وسط الناس، روح مسخٍ ميّت في جسدٍ حيّ، في الصباح أبيعهم الأكفان، وفي المساء أمنحهم اللعنة، فيستيقظون في الصباح التالي، ويكتشفون أنهم يتناقصون، ولا يذهبون أبداً إلى مستشفيات الولادة، لم أكن أبحث في صدق عن الرجال المتمتعين بالخصوبة. هم كثيرون، لكنهم الآن يفقدون أعزّ ما يملكونه، القدرة على الولادة، أصبّ لعنتي خاماً، غير ممزوجة بأيّ شوائب، ثم يتنفّس الملعونون، فتنتقل ذرات اللعنة في المدينة. الكابوس الآن سحابة رمادية تخيّم على سماء بلد المحيط، وعاصمتها اليتيمة، يتنفّسون ذراتها، فينفد ماؤهم. نظرية خيالية، عابثة، إلا أنها التصوّر الأقرب لانتشار الوباء.

يسمّيه جون وباء، ويخشى من استعمال كلمة طاعون، يلتقي بالناس، لمعرفة أسباب انتشاره، يحاول البحث وراء قلّة المواليد،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وانقطاع الولادات، يحتار، ويبحث باستماتة عن قصة الحب التي ستنقذ بلد المحيط، ومن ثم يتراجع الطاعون، ولا يتمدّد عبر الضفة الأخرى. يعمل في صمت، ودأب، يرمقني أحياناً بنظرات شكٍّ وريبة، لأنني لا أصارحه بأنشطتي اليومية، بل أتعمّد كتمان علاقاتي مع الشبّان. لكنّه يربكني، يلمّح إلى أنه يعرف سرّي، كان يتصرّف تصرّفات مريبة، خشيت أن يكون قد سار ورائي، وكشف أمري، لم يحاول قطّ مناقشتي في أمر خدمتي للوليّ، ولا ذهابي إلى الضريح كلّ فترة، لكنّه في إحدى المرّات تتبّعني بحرصٍ وحذر، كنت أشعر به، وأقوده إلى الحقيقة التي يمكنني أن أكشفها له، بينما أرتدي عباءتي الطويلة، تلك التي تنتهي بغطاء للرأس، كنت أرمقه يسير ورائي في الأزقّة، وألمحه يتعثّر في الطوب أو الحُفر، فأضحك في صمت، وأتابع رحلتي في سكّة سوق الزلط بصمت عرّافة، أرمق الحياة من حولي بازدراء، أصوات المنادين على بضائعهم تمرق من حولي، والهواء يعبث بأطراف غلالتي، أصل إلى باب المسجد، وأفتح القفل، ثم أدفع الباب، قبل أن أدلف وأغلقه خلفي. وجدته يدفع الباب في رفق، ويدلف، ثم ابتسم لي ابتسامةً شاحبة، تهيأت لتصنّع الغضب، ثم قرّرت أن أصمت. بعد قليل تأتي المتردّدات على الضريح، يأتين سرّاً، ويحلمن بمساعدة الوليّ لهن، ويطلبن منه أن ينعم عليهن بالحب، والنماء، وقضاء الحوائج. يجلبن معهن الخبز، والسكر، والأضحيات المذبوحة، كالفراخ، أو الأرانب، وكذلك الفول النابت، وورق المظالم، الذي أقوم بدفنه أمامهن في الضريح، ثم أستخرجه بعد رحيلهن، وأقرأ أسرارهن، وأمنياتهن.

طلب جون أن يحضر الطقوس، قال إنه لن يتجسّس، ولن يهتك ستر النسوة اللاتي يتردّدن بمظالمهنّ على المكان، لكنّه يريد فقط أن يشاهد. سمحت له أن يختبئ. كان أولُ الطقوس التي أبدأ بها مع الزائرات المبكرات، هو الطواف حول نخلة الولي وشجرته في صحن المسجد، رتّبت أوراق المظالم، ووضعت بجوارها المحبرة، والقلم الحبر للشاكيات. أعددت إناء الحنّاء، والماء، للراغبات في تحنية كفوفهنّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرّت تلك الليلة في سلام، وطلبت من جون ألا يعاود هذه المغامرة، لكنّه طلب أن يجلب إليّ بعض الناس، أصدقاءه، سيدات، ورجالاً، يعانون انقطاع السوائل أيضاً، شعرت بالخوف، وانقبض قلبي من أن يجلب رجالاً عاشرتهن من قبل، فقلت له إن سيدي العريان لن يكون بمقدوره أن يساعدهم في مصيبتهم. ألحّ، فوافقت بشرط أن يصطحب اثنين اثنين كلّ مرّة.

قبلها بليلة قال لي إنه بدأ يتواصل مع مجموعة انتبهت لخطورة العقم الغريب، ويرصدونه في إصرار، وفي ليلة أخرى قال لي: «هناك أحداثٌ قادمة، لا تسرّ.. أستطيع أن أشمّ رائحة البارود في الأجواء.. ليتني أكون مخطئاً!».

شعرت مع كلماته بقلقٍ أكبر، وكدت أطرده، أو أطلب منه المغادرة بلطف، لكنّني بدأت أشعر برغبة جارفة في أن أشاركه ما يفعل، خاصّة أنه كلّ ليلة كان يعود إلى منزلي منهكاً، فأقول له:

- أنت ليه مش قاعد في فندق؟ إيه اللي عجبك في بيتي دا؟ حتى سلّمه عالي، وفي حتّة شعبية!

فيجيبني وهو يرمقني في حماس كبير وصادق:

- ارتبطت مصائرنا يا شاهيناز.. سأظلّ بالقرب منك حتى تستعيد بلدكم قدرتها على الولادة. أنت كنز، لا أستطيع أن أقيم بعيداً عنه، ثم إن هناك قصصاً تنمو ببطء، منها مثلاً أن المجموعة التي تعرّفت عليها، تبحث عن رجل خصب، بوسعه إنقاذ بلدكم من عقمه، هو الرجل الخصب الأخير، وأنت معجزة لا تشيخ ولا تنضب.. ربما تكونين الرحم المقدّر له أن يمنح هذه المدينة طفلها المنتظر.. ستكونان معاً آدم وحواء.. إذا اجتمعتما ستنكسر اللعنة، سنتجنّب امتداد نار الوباء المنتشر هنا إلى غيرها من البلدان، الآن فهمت ما قصده رؤسائي الذين استهنت بهم حينما كلّفوني بهذه المهمة، قصة الحب التي أرسلوني للبحث عن خيوطها وأطرافها، أنت ضالعة فيها، ستخصبان مدينتكما، وبلدكما المطلّة على المحيط، كلّ ما أخشاه فقط هو الرائحة الخبيثة المنتشرة في الأجواء، وهذا العقد هو عقد الحروب، الأمر ليس سهلاً كما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترين، والعالم لا يحتمل حرباً كبرى جديدة، لهذا يجب لقصة الحب تلك أن تنجح.

***

- سأسلّ مك لهم .. ابعدي عنه !

- لن تستطيعي إزاحتي بعيداً.. أنا التي سأفضحك .. سأقول لهم إنك كائن مسخ .. نصف جميلة نصف شمطاء .

***

كنت أهدِّدها، رأيتها في طيف خيال، أو في حلم يقظة، قبل أن أراها في الحقيقة، قطعت الرؤية أمام عيني بينما أستمع لما يقوله جون، كنت أهدّدها، وتردّ عليّ تهديدي بتهديدٍ مماثل، شعرت برعدة تجتاحني، ثم قلت لرجل الأمم المتحدة:

- أنت بتحلم.. راجل خصب مين دا اللي عاوزني أتجوزه عشان تنقذ البلد؟ البلد المحيط هيبلعها.. عاوزني أتجوز عشان تستمر العيشة القذرة دي بكلّ مآسيها؟ بكلّ ذكرياتي السيئة معها؟ وليه يا حبة عيني صعبان عليك قلة المواليد؟ العيال اترحموا من الولادة في بلد على وشك الغرق!

قاطعني متجهّماً:

- سأفعل كلّ ما يلزم لاستمرار الحياة هنا، أنا أعرف أنك ظللت عمراً تبحثين عن الحب، عن الرجل الذي رغبت في الاستلقاء على صدره، ليس ذلك الطبيب الذي هجرك بعد الفضيحة.

نظرت إليه مليّاً، ثم قلت:

- عاوزني أخلّف عيال عشان يتشرّدوا، ولّا عشان يكبروا فيلاقوا اللي يعايرهم بماضي أمهم، ولّا عشان يبقوا نسخ مكرورة مني يداروا نفسهم طيلة عمرهم، ولا يعرفوا الناس، ويفضلوا عايشين تحت الأرض؟! سيبك سيبك.. دي قصة خايبة.

قال وهو يخفض من صوته محاذراً أن يؤذيني:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- لقد قرأت قصتك في أخبار الحوادث، الريبورتاج الصحفي الذي أجراه معك أحدهم، وقصصت فيه أحلامك، وقصة حياتك، كان ذلك منذ عقدين، وكانوا يتحدّثون وقتئذٍ عن علكة صدّرتها بلد عدو لبلدك كي تصيب الرجال بالعقم، تحوّل الرجل إلى عنّين، والمرأة إلى كائن يضربه العطش، لا ترتوي جنسياً، تتذكّرين هذه الحكاية؟ لا أعرف لماذا اختاروك لإجراء الريبورتاج الصحفي معك على هامش قصة العلكة، ربما لأنهم رأوا فيك غول الجنس الذين يخشونه.. مرّت عليك السنوات، ولم تتزوجي، والنتيجة هى ما نراه الآن: الأطفال انقطعوا عن المجيء إلى هذه المدينة، وسيصيب مصيرها مصير عدة مدن أخرى.. لا نريد لهذا الوباء أن ينتشر.

قاطعته:

- أي نتيجة؟ تقصد إيه؟ أنا سبب وكسة البلد؟ أنت عرّاف؟

سكت، وأطرق ببصره أرضاً، أما أنا فدُخت، وترنّحت، ومددت يدي لأستند على المائدة، وجلست على أقرب مقعد. يحدث ذلك كلّما عصفت بي ذكرى الحادث، لحظة صعودي الأتوبيس، الظلام يخيّم على ميدان الخضراء، يقف خلفي الرجل الذي كان يبتسم لي قبل لحظات، ربما أكون منحته ابتسامة، لكنني بعدها رمقته بنظرة مستهجنة ليبتعد، اقترب، وجذبني من ملابسي، أطلقت صرخة، ثم عدة صرخات، بينما قبضته تنزع ثوبي في قسوة، أمسكت طيّات ملابسي، لكن قبضته كانت أقوى. بينما الناس يتجمّعون حولي. أمي حاولت أن تسترني، كنت أجدّف في الهواء، كأنني أسقط من طائرة، أو كأنني أغرق في بحر، لكنني كنت أسقط من عتبة الأتوبيس، وتنهشني قبضاتٌ ترغب في اعتصار لحمي. في هذه اللحظة كنت قد سقطت على الأسفلت، وكان جون فوقي، يرشّ وجهي بقطرات من الماء، ويحاول أن يرفعني فوق الكنبة، لكنّني كنت ثقيلة، وأرتعش، بينما أقدامهم تدهسني.

في الصباح لم يكن هذا كلّه حولي، ضوء الشمس كان يفرش حجرة الصالة قادماً من النافذة المطلّة على شارع المنتصر، فيما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استلقى جون نائماً على مقعده أمامي، وأوراقه منطرحة على صدره، وفمه مفتوح، يتنفّس في عمق. حاولت أن ألملم نفسي، وتوصّلت إلى نتيجة، أنه من الضروري أن أطرده، أنا لا أرغب في أن يقابلني بآخر الرجال الذين يحتفظون بخصوبتهم في هذا البلد. أرغب في أن أموت فحسب. لاحظت أنني عصيّة على الموت، وأنني لا أكبر، على الرغم من أن عظامي تؤلمني. كلّ ما أتمنّاه هو أن أموت. أموت فحسب.

(4)

«نحن هنا مستعدّون لإطفاء هذا الزمن، برشّ الماء عليه. الماء يجسّد رغبتنا في القضاء على أيّ شرّ. إذا سار الماء إلى بلدةٍ عطشى مات الموت الذي يحاصرها، والماء أول سائلٍ ينفد في الأوقات الصعبة، نحن هنا من أجل الثأر من كلّ ما جرى في الماضي، ولا تقُل إنّ نطفةً خصبة ستمحو كلّ الآلام وتعيد التسامح إلى صدورنا التي أرضعناكم منها. إنها تنوء بالكثير من البغض تجاهكم، طبقةً فوق طبقة تراكم البغض منذ سنوات، وليس من السهل أبداً الحفر وإزالة هذه الطبقات من دون حساب. دفعنا الكثير، من أعصابنا، ومن عافيتنا، ومن أحلامٍ بدّدناها، حين محوناها من أجلكم، وكان من الممكن أن نحقّقها، ثم في النهاية حملتمونا إلى دور المسنّين، وهناك تركتمونا مع الغرباء، نحكي لهم حكايتكم، وحواديت الليالي الطويلة التي كنّا نساعدكم فيها على النوم، واللحظات التي حملناكم فيها ومسحنا مؤخّراتكم، ونظّفناكم، واصطحبناكم إلى المدرسة، ثم حملنا همومكم، حينما كنتم تهيمون بأخريات، تتحدّثون معهن طوال الليل، بينما نحمل نحن إلى فراشكم كوب اللبن في الصباح. كلّ هذا لم يشفع لنا. تضحّون بنا يا أنذال! جفافكم أبسط ردّ اعتبار لنا».

كنّ يردّدن الكلمات نفسها، يردِّدنها منذ سنوات، منذ نفيهن إلى هذه الدار، حتى صارت الكلمات أناشيد، أضفن إليها مؤخراً عبارة «جفاف الماء» بعدما تناهى إلى أسماعهن ما يحدث في المدينة من جفاف. حينما أزورهن كعادتي كلّ سنة، أجدهن لا يزلن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمضغنها. إنهن المسنّات السبعة، اللواتي يعشن في تلك الدار المخصصة لهنّ، على قمّة الجبل، كان عددهنّ في ما مضى أكثر من سبع. المسنّة الثامنة فتحت الباب ذات ليلة، وخرجت، بحثت عنها الممرضات، فوجدن جثمانها مسجّى أسفل الجبل، المسنّة التاسعة أصيبت بالذهول المستمر، الذي ظلّ منطبعاً على ملامحها أكثر من خمس ليالٍ، وفي اليوم السادس قرّرت إدارة الدار نقلها إلى مستشفى نفسيّ. ظلّت المسنّات في الدار، حتى استقرّ عددهن على سبع. صرن الأكثر قوّةً وقدرة على البقاء في مواجهة بعضهن لفترة طالت، حتى إنهن كففن عن الاتصال بي، لإمداد الدار باحتياجات الموتى من الأكفان، والقطن، ومسك الجثث، وهي الأشياء التي حملتها كثيراً إلى الدار زماناً، لكن منذ أن انصرف عنهن الموت، انتفت ضرورة زيارتي، أو حجّتها، فصرت أزورهن لأجلب لهن زيوت التدليك التي يستخدمنها لمفاصلهن. هنّ أيضاً صرن ينتظرن زيارتي السنوية، التي لم يتغيّر موعدها أبداً، لم تتقدّم، لم تتأخر، ولم أفعلها أكثر من مرة خلال العام. هذه السنة، ذهبت إليهن، ومعي شيءٌ آخرُ غير الزيوت: قصة جون وتقريره العجيب، وحكايته عن الرجل الخصب الأخير، الذي ينوي ترشيحي له لنتزوّج.

كنّ نظيفات كما هي عادتهن، بدَونَ في أفضل حال، كأنهن استحممن للتوّ قبل أن أطرق بابهن. ممرضات الدار كنّ يهيئن أنفسهن لزيارتي، فيختفين، كأنهن يتجنّبن رؤيتي، هل يعرفن حقيقتي؟ لم أعبأ بذلك، خصوصاً أن اختفاء الممرضات أمرٌ عاديٌ، إذ يهربن دائماً من خدمة المسنّات السبع. والمسنّات أيضاً لا يشتكين غياب الممرضات.

هذه المرة، كانت تفوح من الدار رائحة عطرٍ عجيب، عطر قديم، تختلط به رائحة خشب الأرضيات العتيقة، وتبرز في مقدمة الروائح رائحة صابون استحمام، مختلطة بضوء الشمس، الذي يفترش أرض الدار، عبر النوافذ التي تطوّق جدران البهو الرئيسي، وموسيقا عجيبة مجهولة المصدر تنساب برقّةٍ في البهو حيث تفضّل المسنّات الجلوس على مقاعدهن المتجاورة. هنا يبدون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنهن ملكات معزولات، خُلعن عن عروشهن.

من دون أن أطرق الباب، دخلت، فوجدتهن يبتسمن في حبور، كأن إحداهن قالت نكتة، وفرغن من الضحك عليها. ترحّب بي أكبرهن سناً: «أهلاً أهلاً بفتاة الميدان!».

أشعر كأنني انتقلت إلى زمني الذي أنتمي إليه، زمن مختلفٌ عن زمن جون، ورجله الخصب، الذي سيردّ للمدينة أطفالها. زمن المسنّات هو زمن حكايات الجدات، والأحجيات، والقمقم النحاسي، الذي سيخرج منه ماردٌ مارقٌ، غضب عليه أحد الأنبياء في زمن قديم، أو جنّيٌ مسحور، قضى أربعمئة سنة في زجاجة.

- إزّيّكم؟! لسّه عايشين في أحلامكم؟ شايفاكم حلوين ونضاف، ومعمّرين طاقتكم، راحت فين الممرضات؟

-أهلاً يا شاهيناز.. بننتظرك من السنة للسنة، من الطبيعي نستحمى، ونتهيأ لحضورك، زيارتك غالية علينا يا غالية.

قالت أكبرهن وهي تغمز، فابتسمت من دون أن أشعر بأيّ إهانة في غمزتها.

- يعني الحلاوة والنضافة دي كلّها عشان زيارتي؟ أنا حاسّة روحي محظوظة...

- ضروري تكون شاهيناز فتاة الميدان محظوظة، وأنت في إيديك كل طاقة السحر، إحنا حاسدينك أصلاً على جمالك، وأنت عجوز كُهنة زيّ حالتنا، لكن إزّاي بتقلبي أقوى الرجالة أقلام حبر ناشفة؟ وفي نفس الوقت تروحي تخدمي الولي؟

التقطت الحديث جارتها الثالثة:

- احكيلنا الفزّورة اللي عندك يا غالية.. وسيبك من ثرثرة العواجيز اللي بتخرّف!

قلت في ضحكة تخلو من مرح:

- عرفتي إزّاي إن عندي فزورة؟ بقيتي عرّافة؟ ولا بتقري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفنجال؟

تبادلت المسنّات نظراتٍ غامضة، وسرت في الجو رائحة بخور مشتعل، وجاءت من النوافذ ريحٌ تحمل في طيّاتها مسكاً وعنبراً، وياسميناً وقرنفلاً من البساتين المحيطة بالدار، ثم حدجتني المسنّة الكبرى بنظرةٍ امتزج فيها الفضول بتصنّع عدم الاكتراث، لكنّ زميلتها لم تستطع أن تقاوم، فأدلت بدلوها:

- بيشمّ الحرب.. أنت إزّاي مش خايفة منه؟ إحنا هنا بنشمّ روايح البساتين اللي حوالينا.. دا بيحصل على طول.. لكن حرب؟ هنا؟ في البلد دي.. القيامة لو قامت هتلاقي الناس رايحة تجيب لحمة وكسوة ويخزّنوا السكّر والرز.. لكن حرب؟! الستّات وحدهم اللي يقدروا يولّعوا حرب كلّ يوم.. لكن محدّش يلتفت لها.

- دا جزء من الفزّورة، الأغرب إنه عاوزني أتجوّز آخر فحل.. مَعرفش هيقابلني بيه إزّاي؟ بيقول إنه بيدوّر عليه.. المشكلة إني وقت ما هقابله، هتضربه لعنتي زيّ باقي التعساء.

تبادلن نظرات، ثم قالت أكبرهن:

- حتى الآن أنت معملتهاش.. لاتّقاء الشر بطّلي تعملي كدا.. فاهمين طبعاً غضبك من الخلق، والظلم الكبير اللي تعرّضتي له، في النهاية محدّش بيحارب الخلق كلّها، ولا حدّ بيفضل يشاغب في الكلّ.. لازم تتحالفي مع ناس ضدّ ناس، أو اشغلي روحك.. ازرعي الطماطم في سطح بيتك. الطماطم محتاجة الشمس.. وكمان روحك.

حمقاوات! مسنّات حمقاوات وغبيّات. ألجأ إليهن لعلّي أجد نصيحة، فيتفوّهن بالكلام الفارغ، ويدعونني لزراعة الطماطم. قلت وأنا أنهض:

- مبسوطة إني اطّمنت عليكم.. ياربّ تفضلوا على خير! إن شاء الله أشوفكم السنة الجاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العام الأول لحرب الولادة. كنّا في شهر هاتور أبو الدهب منتور.

كيف تنبّأ جون؟ تنبّأ وصدقت أنفه!

حينما تأتي الحرب يأتي معها الخرس والخوف. قبلها يدبّر مجرمو الحرب، وسائل قطع الألسنة التي ترغب في إبداء آرائها. الخوف جبان، يتسلّل إليك في الهواء متخفّياً بذرّاته، تتنفّسه، فيستعمر رئتيك، قد ينهال عليك مع مطر السماء، قد يصيبك الخوف من الرياح، للخوف أيضاً مصائدُ مجهولة، ينفرد كشباك العنكبوت في الشوارع المهجورة، وزوايا الأزقة، أما الشمس، فتشرق في خفوت، لا تجد من تمنحه دِفأها، تشعر بقلّة الحيلة فتمنح ضوءها عشوائياً للمقاتلين والسفاحين المتصارعين على الفراغ، والمتسابقين في سفك الدم. تظلّ الشوارع خاليةً من البشر. اكتظّت الآن بالوحوش، وسفّاكي الدماء، والقتلة من كلّ نوع، ينتشر المرتزقة بجوار الحواجز، يعتلي القنّاصون أسطح البنايات، من هؤلاء؟ ومن أين جاؤوا؟ كيف تحوّلت عاصمة بلد المحيط إلى مدينة ملعونة، متهدّمة، تخلو من زحامها المعهود، ومن محالّها الساهرة حتى ساعات متأخرة من الليل، ومن ضجيج المقاهي؟ أهذه هي النهاية؟ هل سيجيء الطوفان؟

يحكي لي جون عن البدايات التي كان شاهداً عليها، عن النسوة اللاتي اعتصمن في ميدان الخضراء، حيث اغتُصبت. آلمني حينما ربط بين الميدان وما حدث لي، لكنه لم ينتبه لامتعاض وجهي. حكى عن الرسالة التي وصلت إلى رئيس الوزراء وكانت مكتوبة بأحمر الشفاه، حينما فتحها مدير مكتبه وجد ثلاث كلمات في منتصف الصفحة: «كيف جفّفتم الحبّ؟».

لا أدري كيف عرف جون هذه الحكاية. كانت له مصادره، وربما جنّد جواسيس في الحكومة، رويداً رويداً بدأت أصدّق أنه رجل الأمم المتحدة فعلاً، إذ كان ينفق ببذخ للحصول على المعلومات، ويدفع رشا، ويوزّع نقوداً على فرّاشين ومسؤولي نظافة في المباني الحكومية، ينقلون له تفاصيل ما يجري. كان يلتقيهم في القهوة الواقعة أسفل العلوة، المهم أن أحدهم نقل له واقعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرسالة قبل اندلاع العنف بشهر. يقول جون إن السكرتير احتار فيما إن كان يجب أن يظهر الرسالة، أم يخفيها، ثم قرّر أن يصطحبها معه إلى المنزل، وهو يفكّر في فحواها. توالت الرسائل المكتوبة بأحمر الشفاه في الأيام التالية، في البداية تلقى السكرتير مئة رسالة، وفي اليوم الثاني تلقّى خمسمئة، في اليوم الثالث طلب من سعاة البريد أن يكفّوا عن حمل أجولة الرسائل إلى مكتبه، كان يفتح بريده الإلكتروني، فيجد عشرات الإيميلات تنسكب من شاشته، وتحمل الكلمات ذاتها: «كيف جفّفتم الحبّ؟».

لم يستطع السكرتير إخفاء الرسائل الكثيرة، لذلك وضعها على مكتب رئيس الوزراء، حملها الأخير إلى الرئيس متردداً. الأخير كان مشغولاً بافتتاح مشروعٍ كبير، من المشاريع التي لم تمنع الوباء من الانتشار، تلقّى الرئيس مغلّف الرسالة، وقرر ألّا يتحدّث عنه في خطبة مشروعه، وهو يذكّر الناس بأهمية أن يصطفّوا خلفه، ملوّحاً لهم بقبضته، كان يفتتح مشروعاً لاستخراج اللؤلؤ من المحيط، ويعد الناس بالرخاء القادم، والخير القادم، ثم يبرِّر لهم زيادة أسعار الوقود، والطاقة، والمياه، بقوله:

- الزيادة السكانية تسبّبت في ما نحن فيه الآن.. أنتم بتزيدوا.. بتزيدوا.. بتزيدوا.. وأحنا عايشين في مدينة واحدة.. اللؤلؤ المكتشف دا مش العصاية السحرية.. لازم كلّ واحد فيكم يتحمّل نتيجة الزيادة السكانية دي.. هنراعي الفئات غير القادرة على تحمّل زيادة البترول والطاقة والمياه.. لكن لازم تقفوا جنب بلدكم.. هتسيبوا بلدكم تغرق.. تسيبوها للمحيط يبلعها؟

كان جون يتعجّب مما يقوله الرئيس، ويخبط كفّاً بكف، قائلاً في استنكار: «هذا الرجل يسخر منكم، ألا يرى أن هناك عقماً عند رجال البلد؟ ألم يخبره أحد أن لا أطفال في المدينة، وأن الحدائق صامتة، والملاهي مغلقة؟».

لم يكن جون وحده الساخط. فوجئ أهل المدينة بمسيرات تنظّمها النسوة، ثم اعتصام في أكبر ميادينها، ميدان الخضراء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالاعتراف بالوباء، وإعلان عاصمة بلد المحيط مدينة غير صالحة للعيش، موبوءة، وتجميد أنشطة مؤسسة المجتمع المستقيم، ورفع وصايتها على رجال البلد ونسائه، وكفّ الزواج من دون رغبة الطرفين، وإطلاق سراح العوانس، وإيقاف إخصاء العُزّاب، وإعادة المنفيين لمزارع الصحاري الواقعة خارج العاصمة. كانت طلبات عقلانية وسهلة ومن الممكن بحثها ومناقشتها، لكن ذات فجر، هجم مسلحون غامضون على النسوة المعتصمات، وتحت جنح الظلام حدثت مجزرة.

طلع الصبح، على الشوارع القانية، وجثث كثيرة متناثرة.

الثلاثاء 25هاتور عام 6260

لم أكن وحدي. قبل ذلك نزل جون ليخزّن لنا الطعام، ابتاع أجولة أرز، وأكياس سكّر، وعلب السمن، وطلب منّي ألاّ أحتفظ بأيّ أموالٍ في الدكّان، قال إن الدكاكين هي أول ما يتعرض للنهب، شعرت أنه ملهوف ليعرف أين مدّخراتي، فخشيت أن أكشف له المخبأ.

سمعنا معاً صوت الطلقات، كانت تلك أول ليلة يبدأ فيها القتال. الهواء كان بارداً، يحمل في ذرّاته نسائم أشبه بالإبر، كلّ من سيخرج الآن في هذا الجو، سيخاطر بثقب وجهه. تذكّرت أنه قد مرّ على وصول جون عامان، تذكرت أنه قال لي بعد ليالٍ قليلة من وصوله إنه يشمّ رائحة البارود. ها هي ذي الرائحة في كلّ مكان.

في الصباح التالي دفعني الفضول للنزول، والتجوّل في منطقة باب الشمس، وجدت الناس مضطربين، المحالّ مغلقة، وعمّالها يجرون، ويهرعون لنقل البضائع، أو لصنع أبواب مصفّحة تدعم أبوابها الجرّارة البسيطة، فيما تناثرت أخبارٌ بين روّاد المقاهي أن هجوماً جديداً وقع على طرف العاصمة الشمالي حيث توجد ثكنات ميليشيا شركة الأدوية «الفارما»، في حيّ «مدينة سطح اللحم». البعض كان يوزع منشورات في الشوارع، مكتوب فيها تعريف بحركة النسوة، ومطالبتهن بالثأر بعد المقتلة التى جرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الميدان، وتحديدهن أن ميليشيا شركة الأدوية هي عدوّهن الأول، المنشورات كانت تحوي كلمات كثيرة وسطوراً متراصة في ورقتين، قرأتهما، وخشيت أن أجلبهما معي إلى المنزل، أما جون، فتكفّل بتكملة ما لم أعرفه، قال لي إن الميليشيا تحصل على إمـدادات السـلاح مـن مـهاويس السـلطات، أي مـن الـدولة، عبـر وسطاء فاسدين يؤمّنون لهم الذخيرة والمتاع والبنادق والمدافع وكـذلك الأسـلحة الثقيلة، لم تعد هناك وسائل اتصالات حديثة نستقي منها الأخبار. في بيتي تصلنا المعلومات مثل قطرات ماء حبيسـة فـي صـنبور، ولكـن كـيف تسـنّى للنسـاء تحقـيق هـذه الانتصارات؟

يقول لي جون إنهن تدرّبن، وجدن من يدرّبهن ويعدّهن للقتال، ويبدو أنهن نجحن في الاستحواذ على مناطق من المدينة. وأكّد لـي أنـه سـمع أنـهن يقتـربن مـن هنا، من منطقة المنتصر، وباب الشمس.

صـدق جـون فـي كـلّ مـا قالـه، عـدت أشكّ فيـه، وفـي أنه جلب الخراب معه، حينما جاء من الخارج، ربما يكون هو مدبّر التمرّد، وجاسوس لتخريب بلد المحيط، وهل تحتاج بلد خربانة إلى من يتـآمر عليـها؟ ألـم نفعـل ذلـك بأنفسـنا؟ سـنوات نصـدّق الأوغـاد، وننتخبهم، ونجلب لأنفسنا الفقر، نصدّق الحرامية، ونجلبهم على الكراسي، وهذه هي النتيجة.

بعد شهرٍ من اندلاع الأحداث، قال لي إن شركات تحويل الأموال أغلقت أبوابها للأبد، وانقطعت التحويلات التي كان يعيش منها، وسـألني مـا إن كـان يمكنه أن يستلف من مدخراتي ليجلب لنا الطعام، قلت له يمكنك أن تأكل معي وتشرب، لكن لا تطلب مني أكثر من ذلك، ألا يُعدّ ذلك كرماً بالغاً مني؟

لم يتذمّر، قبِل عرضي باستسلام، ثم استمرّ في إطلاعي على ما يحدث، قال لي ذات ليلة إن أحياء كاملة تسقط، ميادين «الجبال الزرق»، الكـهوف السـود، عـين الشـوق، والـورود الصـفر، وحـيّ سرياقوس، كلّها سقطت في أيدي النساء وانسحبت منها قوات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخفراء وميليشيا الفارما.

سألته عمّن يساند النسوة في حربهنّ، فقال: «لا أحد يعرف».

تحدّث عن لقائه مع إحدى قائدات الهجوم على ثكنات مدينة «سطح اللحم» الواقعة في طرف العاصمة الشمالي، وقد ألمحت المقاتلة، التي رفضت أن تكشف اسمها الحقيقي، إلى مساعدات مجهولة. قالت له لم نكن نعرف كيف تستسلم لنا القوات التي نهاجمها، كنا نشعر أحياناً أننا لا نقاتل وحدنا، وأن هناك قوى غامضة تساعدنا في الحرب، ما هي؟ لا نعرف، ربما هي الملائكة، لكنّنا لا نرغب في الاستسلام لقوى غيبية، إنما بالتأكيد هناك من يساعدنا.

يقول جون:

- المجنّدة كانت تبدو كأنها تحمل سلاحاً للمرة الأولى في حياتها، لكنّها كانت ثابتة، لا أعرف من أين جلبت كلّ هذه القوة، أمّا هي، فقد قصّت لي أنها شاهدت جنود الفارما ينهارون فجأةً، كأنّ أجسادهم تتفسّخ، بفضل ميكروبات مجهولة، أو جراثيم ما، كأنهم يستنشقون غازاً مميتاً.

- أنت رحت وشوفت بنفسك معسكرات الستّات دي؟

اعتدل في مقعده، وهو يطلق دخان سيجارته، كأنه يفكر ألا يجيبني، ثم قال:

- قرأت كتباً قليلة جداً عن الحرب، لكن أستطيع أن أقول إن ما يحدث هنا في بلدكم لن يكون له مثيل. هناك قصص غامضة يحكيها الجميع عن جثث مثقوبة الرؤوس عثرن عليها في معسكر من معسكرات ميليشيا الفارما، ربما تنتشر الهلاوس بين الناس في أوقات الحروب، وتشيع بينهم القصص الكاذبة، والملفقة، والكثير منها يكون بغرض تقوية الروح المعنوية، ولم أكن لأصدّق أياً من هذه القصص، لولا أن البعض صوّر، وأطلعني على الصور.

صمت وظلّ يتأملني، كأنه يرغب في معرفة أثر ما حكاه عليّ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انقبض قلبي، وإن لم أشعر بالخوف، قدر ما شعرت بأن ثمة كذبة كبيرة. لم أكن قادرة على تصديق أن هناك حرباً فعلاً، وأن جون يجلس أمامي، وأنه يحكي عن أشياء تحدث في محيط بلدي، لولا أن الكهرباء بدأت تنقطع بالساعات، ثم بالأيام. عاصمة بلد المحيط تعيش في الظلام للمرة الأولى منذ سنوات.

تزامن ذلك طبعاً مع فرض حظر التجوال، أما حالة الطوارئ فقد كانت معلنة منذ سنوات، فقد اعتاد الرئيس أن يجدّدها كلّ ثلاثة أشهر قبل الحرب بأعوام، هكذا يحكمنا مرعوباً وخائفاً، ويسلّط علينا حالة الطوارئ كي يستبيح سجن أيّ نفس في أيّ لحظة، غير الأنفس التي حبسها في سجون العوانس، والأنفس التي نفاها مع من نفى من العُزّاب. ها قد جاءته الطوارئ كاملة في صورة نساء البلد اللاتي يرغبن في خلعه من كرسيّه.

خشيت من النزول والتجوّل في باب الشمس، انتقلت حالة التوتر إلى الحي، وسرت عدوى المعارك إلى أحياء السوالمة والبنجر المفتون، والمتنبي، والأحياء المحيطة بترعة النهر الحافي. كانت هناك معارك مستمرّة على أطراف حي الكرماء الذي يقطنه الأثرياء والموسِرون، المباني التجارية الضخمة أغلقت أبوابها بالكامل، أصوات الرصاص تقضّ مضجعي، وتجعلني أتطلّع من النافذة كلّ ساعة، أخشى الاقتراب من الحيطان، ومن النافذة، ولا أخرج إلى الشرفة مطلقاً، بدأ الخوف يعرف طريقه إلى قلبي. الشوارع صارت قبوراً، انتشرت قوّاتٌ من العسس والخفراء لتبعث الطمأنينة، لكنّها كانت تتلقّى ضرباتٍ غادرة، خاصة أمام المنشآت الحيوية التي تعهّدت الدولة بحمايتها، معظمها كان تابعاً لرجال أعمال كبار، حيتان يعملون في صناعة الأدوية.

ربما ما أدى إلى انفجار الأوضاع بهذا الشكل، الممارسات المقيتة التي مورست قبل الحرب، ومنها التكتّم وحظر النشر. أنا لا يهمّني حظر النشر، لم أعد أقرأ أصلاً، إنما مع ذلك انتابني الفضول لأعرف ما إن كنت متورّطة في هذه المصيبة، الجائحة التي تعصف برجال البلد، وتجفّفهم. هل يذكرون اسمي؟ هل يقرنون بين جفاف الرجال وامرأةٍ معمّرة يضاجعونها قبل اكتشافهم الجفاف؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تطـايرت أنبـاء الوبـاء المتفشـي فـي عاصـمة بلـد المحـيط إلـى عواصـم العـالم، الولايـات المتحـدة عرضت المساعدة، واشـنطن بوسـت نشـرت تقـارير، كـذّبتها الـدولة بفظاظـة، احتـجّت عليـها الخارجية، وقدّم السفير هناك احتجاجاً موقّعاً من رأس الدولة. الرئيس العاجز عن قهر الوباء المتفشّي، ومع ذلك تنشر الصحف صوره، وأقواله، كأنه أديب كبير حائز على جائزة نوبل، أو كأنه عالم اكتشف الذرة، أو فيلسوف لم تشهد الأمم مثله.

قبـل انـدلاع أحـداث العنـف، اسـتضافت التلفزيونـات مـروّجي نظريات المؤامرة، وأنكروا ما جاء في الأنباء العالمية من أخبار عن نفاد سائل الحياة في بلد المحيط. جون كاد يجنّ بينما يسمع الخبراء الاستراتيجيين، وهم ينصحون الناس ألا يفتحوا مواقع إنترنت، وألا يقرؤوا البي بي سي، أطلق ضحكة ساخرة تحوّلت إلى بكاء من الانفعال، حينما سمع أحد هؤلاء الخبراء يقول: «لا أعـرف كـيف يسمع الناس أخبار من البـي بـي سـي، حتـى اسمها يعني «دورة المياه» أي إنها مصدرٌ للخراء والبول القذر».

الأوروبيون حذّروا رعاياهم، وطالبوهم بمغادرة العاصمة فوراً، السياحة الهندية توقفت مرة أخرى، وأبناء بلاد التبت كفّوا عن المجـيء إلـى صـحاري البـلاد الواسـعة حـيث يمارسـون فيـها طقوسهم التعبدية في الشتاء، البعض حاول أن يتحدّث عن آمال اسـتنساخ آخـر الكـائنات الشـفافة التـي تحتفـظ بها بعض بنوك النطف. لكن حظر نشر الأخبار والتقارير التي تتداول الموضوع حاصر كلّ هذه الآمال.

مـع بـدء الفوضـى، صـرت أخشـى الـنزول إلـى الشـوارع، علـوة المنتصر تحوّلت إلى منطقة أخرى، تقطّع أوصالَها المتاريسُ، التي يحرسها المدجّجون بالسلاح، يقفون أمام الحواجز، لإرهاب الهواء بـالخوف، يحرسـون أيضـاً الجـدران المثقوبـة بالرصاص، بعضها مصـبوغٌ بالـدماء، وبعضـها كتـب أحـدهم عليـها: «ليكم يـوم يـا خولات».

توقفت بطبيعة الحال عن الذهاب إلى المحل. لم يعد من الممكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مغادرة العلوة إلى شارع باب الشمس، فما بالك بالذهاب إلى ميدان المنتصر، الذي يبعد خمسمئة متر من العلوة. مسجد المنتصر قزمان الذي يتوسط الميدان تحوّل إلى ثكنة مدججة، يؤمها رجال أغراب، ونسوة عديدات، يحملن السلاح كأنهن في نزهة، وينظّمن المرور، ويمنعن المارة من السير بعد السادسة مساءً، شارع المطاريد الموازي لشارع باب الشمس تحوّل إلى أطلال خربة، المحال على الجانبين أغلقت أبوابها قسراً، وبعضها خُلعت أبوابه، ونُهبت، أما البيوت فالكثير منها تعرض لقذائف هاون، إثر اقتتال دام ليالٍ.

الثأر بكتيريا وعدوى مميتة، ينمو في الصدور، وينتشر بسرعة بين الخلق. وجد الكثير من الناس أن حمل السلاح أضمن حل لحماية أنفسهم، والذود عن ممتلكاتهم، بدأت الأحداث بحرب عصابات مصغرة، شنتها مجموعة من النسوة للأخذ بثأرهن ممن نكل بهم خلال اعتصامهن في ميدان الخضراء. النسوة اعتصمن للمطالبة بعلاج رجال البلد من الفيروس العجيب الذي أدى لجفافهم، وعقمهم، ارتكبت عصابات مجهولة وقائع قتل دامية في صفوف المعتصمات بالميدان ليلاً، تحوّلت المقتلة إلى معارك صغرى تجري هنا وهناك، تكبر يومياً، كجمرة تتغذى على ذرات الهواء، صنع الأهالي متاريس لغلق شوارع باب النور، والمطاريد، وباب الشمس، لحمايتها من العصابات المجرمة التي عرفنا في ما بعد أنها تتبع شركة أدوية، واشتهرت باسم مرتزقة «الفارما»، كانت قد انتشرت في شوارع عاصمتنا لقتل ومطاردة أقارب النسوة المقتولات في الاعتصام، قررت أخريات أن واجبهن القصاص للبريئات اللاتي قُتلن، تسلّحن، وتمركزن في جامع المنتصر قزمان، كأننا في فيلم تاريخي، حوّلوا أسواره إلى بؤر محصنة يجلس عليها قناصة ببنادق مشهرة على رقاب الخلق، يخشون من مباغتة عسس وخفراء البلد، أو تقدّم فرقة من فرق ميليشيا شركة الأدوية.

النسوة اللاتي رأيتهن يحملن السلاح، ويلبسن الكاكي، حذّروني ذات مرة من مغادرة شارع باب الشمس، كنت ألمحهنّ بينما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحملن أجولةً مليئة بالحجارة إلى مداخل محطات مترو شارع المطاريـد، وشـارع بـاب النـور، حينمـا دقّقت فـي السـؤال عـن محتويـات الأجولـة، عـرفت أنـهن ملأنـها بمتفجـرات وديـناميت موصول بفتائل مبللة بالبنزين.

الشائعة الأكثر قوة تقول إن هذه الأجولة مليئة بقنابل المسامير، فعلن الشيء نفسه في مداخل محطات مترو حي سرياقوس، وشارع الجنينة الدبلانة، باتت هناك رغبة لفصل شمال العاصمة مـدينة سـطح اللحـم وأحياء الكرماء، والترعة الصوفية وجبل الولي، عن شرق العاصمة حيث يوجد ميدان الخضراء، والجهنّمية الجـديدة، وبتنـا نحـن فـي المنتصـف، قلب المدينة الذي يحـوي مناطق باب الشمس، والسيدة وردة، والمدينة الغايصة، والمنتصر، وباب الشمس، وباب القمر.

لم ينقطع تحليق الطائرات فوقنا، الناس يقولون إنها تصوّر دروع المسلّحات، وتمركزاتـهن، اسـتعداداً لليـلة القصـف الكبـرى، تلهو الظنون بكلّ نفس حتى تظن الأشجار أن وقفتها المنتصبة هي سبب الحرب.

لُذت بشقتي في العلوة، أتابع الأخبار في يأسٍ، أختبئ من الناس، كي لا يتفوّه أحدهم بأنني من جفّفت مائه. بثّ التلفزيون انقسم إلى قسمين، قنوات رسمية، تعمل من استوديوهات مجهولة من سطح اللحم، لكنها تحوي الخطابات الرئاسية المتوترة، وبيانات الحكومة التي لا تقول شيئاً، وبث تلفزيوني آخر من استوديو فقير بخلفية واحدة مظلمة، يتحدّث باسم الثائرات الأحرار (كما أطلقن على أنفسهن)، أما القنوات الأجنبيـة فتتحدّث عن قتال مستمر في أحياء العاصمة الجنوبية.

على الرغم من هذه الظروف السيئة، كان جون يعمل بكدٍّ واجتهاد علـى أوراقـه العـديدة، يخشـى أن يفوتـه شـيء دون أن يسجّله. قلت له ذات ليلة:

- ورقك دا هيودينا في داهية.. لو فتشوا بيتي، هياخدوني معاك، وهنروح في الرِّجلين، هيعدمونا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كـانت أوراقـه ودفـاتره قـد تضـخّمت، بعـدما صـار عـاجزاً عـن اسـتخدام الكمبـيوتر الـذي جـاء بـه فـي حقيبتـه، صـارت أوراقه مجلداً خلال العامين اللذين قضاهما في منزلي، يرمقني بنظرة ساخرة، تشوبها المرارة، ويرد على مخاوفي قائلاً:

- لم يعد مهماً أن يقبضوا عليّ، المهم أن أكتب ما يحدث.. ما أكتبه سيكون الوثيقة الوحيدة على هذه الحرب.

كـان يغـادر بكـلّ جـرأة، يـذهب ويجـيء، يغيب ساعات النهار، لا يخشى على روحه، يخبرني أنه يحضر اجتماعات مع سيدة فاتنة تسمى ياسمين، وزوجها ذهني، استضافهما مرة في ضريح الولي، قبل اندلاع الحرب بعام. ما إن رأيت هذه المرأة حتى شعرت أنني قابلتها من قبل، ثم تذكّرتها، إنها الفاتنة التي لطمتني في الرؤيا المباغتـة، التـي كنـت أهدّدها بأن أسلّمها إلى مجهولين، وكانت تهدّدني بكشف حقيقتي، لذلك كنت أعاملها بتوجُّس، وهي لم تفهم لماذا أخشاها.

فوجئت أن جون يعرف النسوة اللاتي جيّشن الباقيات، اللاتي بِتـــن يُعـــرفن باسـم «المتمـرّدات» أو «الثـائرات الأحـرار» أو «الانفصاليات»، تجادلت معه حولهن، كان مصرّاً على أنهن بريئات، وأن الرئيس وحاشيته تعمّدوا قتل المعتصمات، أما أنا فكان رأيي أنهن سبب الخراب. ما معنى أن تقاتل ضد بلدك لمجرّد مقتل بضع نسوة هائجات؟ هكذا كنت أصرخ في وجه جون، فيجيبني بهدوء مستفزّ: «لم يطلقن أول رصاصة في المعركة، الحكومة هي من أطلقت الكلاب عليهن في اعتصامهن».

قال إنه توصل إليهن بمحض المصادفة، إنهن المجموعة نفسها التي جهرت بالشكوى من العقم العجيب لأول مرة.

أشعر أنه يحدّثني عن بلد آخر لا أعرفه، وبتّ أشكّ أن المصائب التـي يتحدّث عنها وهمٌ، ضلالاتٌ، كيف اقتنعت هؤلاء النسوة بفكرة القتال ضد البلد؟ كيف تندلع حربٌ بواسطة شركة أدوية أصلاً؟ كيف انفجر البلد هكذا مثل خبيئة دود عفنة؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلّ مخاوفي تضاعفت حينما قابلت ياسمين، وذهني، كانا نموذجين للوباء، تحرّكهما رغبة الإنجاب، نظرا إليّ بشك وريبة، كأنهما يشعران بعدم جدوى مجيئهما إلى ضريح الولي، كدت أن أقول لها هي وزوجها: «جيتوا ليه وأنتم مش واثقين في الولي؟». لكنني لم أقلها، انتابني خوف منهما في تلك اللحظة، وظلّ مصاحباً لي بعد ذلك، في كل مرة كنت ألتقيهما عندي، في بيتي الذي تحوّل إلى مكانٍ لتجمّعهم، صار بيتي هو المكان الذي لن تتوقعه قوات الخفراء، أو ضباط العسس، والذي انطلقت منه الاجتماعات المصغرة الأولى لياسمين وزوجها وجون وشركائهم الذين أشعلوا الحرب.

حينما نفدت آخر أكياس العدس الذي كنا نقتسمه أنا وجون، قرّرت الخروج من منزلي، والمشي في الشوارع التي ألِفتها لعقود، بحثاً عن أيّ شيء. خبَت أضواء الشوارع الساهرة، مشيت ساعات حتى قسم شرطة العسس، أمام برج المطافي، فوجدته مدجّجاً بالسلاح والحرس. أحدهم مرق بجواري، ورمقني بنظرة مستريبة، قبل أن أكتشف أنه مخبر، لكزني بذراعه وهو يرسل نظرات مستريبة إلى الطرقات، قال في خشونة: «بتعملي إيه هنا يا بتّ؟».

قلت وأنا أكاد أزمجر: «وأنت مال أهلك؟».

شخر، ثم انقض عليّ متوثباً، صائحاً في هياج: «مال أهلي؟ شكلك منهم.. واللي خلق الخلق لأنا ممرمطك.. انجرّي قدامي يا بنت الوسخة!».

أطلقت صرخة هلع، امتزجت باستغاثات لم أظنّني قادرة على التفوّه بها من قبل. صرخت: «ياسيدي العريان.. يا ضهر قايم لكلّ محنيّة.. يا سند كلّ وليّة!».

لم يكن بقربي أيّ شخص، شعرت بالخوف والهلع، بينما أصابع المخبر تكاد تقتلع ذراعي الأيسر، يجرجرني مثل ذبيحة. كان القسم مقفلاً، لكنه مع ذلك كان يجرجرني تجاهه، هل يختبئ عناصر من العسس أو الخفراء داخله مع ذلك؟ شعرت بالفضول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للحظة، ثم استرجعت في ألمٍ وخوف ما جرى منذ سنوات، في ميـدان الخضـراء، علـى عتبـة الأتوبيس، أطلقت صرخة هائجة فجأة أعلى من الأولى، كأنّ عشرات الديدان تلتفّ حولي، أعود مـرة أخـرى إلـى هـذا الكابوس، الذي كان واقعاً مرعباً، ثم صار يهاجمني في أحلامي لعقدين، أعود إليه مرة أخرى، أُساق إلى القسم، أنا المنتهَكة، المغتصبة، يذهبون بي مرة أخرى إلى القسم، علـى الـرغم مـن كونـي الضحية. كلا، هذا لن يكون! التفتّ إلى المخبـر بغتـةً، وقبّلتـه فـي فمه، انتزعت منه رحيقه، وعنفوانه، وماءه. ذُهل الرجل من القبلة، وداخ. لم يدرِ ماذا يفعل، تركني لدقيقة، وسط دوختـه، أفلتتني أصابعه، فانطلقت أعدو، أجري وقد أعيتني شيخوختي التي ترقد في أركان روحي، وتتمدّد إلى مفاصلي، وتقيّد حركتي، وتقبض على ساقي، أجري، وأنا أتوقع في كلّ لحظة، أن يظهر ذلك الرجل الأسطورة، الرجل الناجي، وأسأل نفسي، كيف توجد قوات الخفراء، بينما الحيّ كله محاصر بواسـطة النسـوة اللاتـي فرضـن سـيطرتهن علـى بـاب الشـمس والمطاريد والمزهرية؟

ظهر فجأة، كأنني أطلقت دعوة مستجابة إلى السماء، كان وجهه مظلماً، كما لو كان قد خُلق على عجل، ولم يتّسع الوقت لنحت وجهه. يتحرك وسط الظلام، كقطعة منه، يظهر منه معطفه، كنت أجرى ملتاعة، فتوقفت، لكن الرعب داخلي لم يتوقف، يدقّ قلبي كأنـه هـو الآخـر يجـري داخـل جسـدي، أخشـى أن يقـرّر المخبـر مطـاردتي. كـان الرجـل الغـامض هنـاك، لـم يعتـرض طريقي فـي الحقيقة، لكنه ظلّ واقفاً باستهانة، كأنه لا يخشى الظلام المخيّم علـى الميـدان، ولا يخشـى المخبرين، بدا كأنه برز من الأسفلت كنبتة يتيمة، شعرت بالخوف، ثم قرّرت أن أخطو بسرعة، كأنه لم يكن هناك، دار بيننا حوارٌ، لكنني لم أميّز منه سوى ما قلته له، كنت أقول: «ستّ أحلامك؟ أنا عجوز ملعونة».

خيّمت على نصف وجهه ظلمة، ولاحت في النصف الآخر ابتسامة خفيفة على زاوية شفتيه، ثم بدا لي أنه يتراجع والضباب يغلّفه، إلى أن اختفى، كنت أشعر برغبتي في الجلوس على الأسفلت،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فجلست. يلفّنا الظلام، لكن ينبعث دخان، دخان دافئ يحيط بنا، فيعزلنا عن الظلام، يعود مرة أخرى كأنه يحلق، يقترب مني في خفوت، وتتضح ملامحه، أشعر أنها مألوفة، وتختلط ملامحه بملامح جون، ثم تتلاشى ملامحه رويداً رويداً، فقلت في خفوت وأنا أرمق الموضع الذي اختفى منه: «أيوه لكن الآوان فات، أنا عجوزة، أتجوّز إزّاي؟».

ربما يكون قد عاد ليقول شيئاً، لكن ياسمين ظهرت فجأة، تحمل على كتفيها مدفعاً، كأنها شبحٌ هي الأخرى، ركلتني ركلة قاسية، وانقضّت عليه، أو على الموضع الذي كان يقف فيه، احتضنته في شوق، أو تظاهرت بأنها تحتضنه، كنت مشوشة تماماً، كأنها هي الأخرى مشتاقة لخصوبته، لكنه أفلت ذراعه عن جسدها الذي يطوّقه، ليمدّ لي يده بورقة، مكتوب فيها عنوان. نظرت في الورقة. كان العنوان يشير إلى شارع من شوارع عين الشوق، أدقّق في تفاصيل العنوان، لأحفظه.

استيقظت، كلّ ما رأيته كان كابوساً، لكن بعضه كان جميلاً، نظرت إلى كفّي التي كانت تمسك ورقة العنوان، كانت خالية، على الرغم من أن أصابع المخبر كانت منطبعة على ساعدي، شعرت بالضيق، هل كان ذلك ما يسمّونه بالرجل الخصب الأخير؟ الناجي من الوباء؟ هل أذهب لزيارة المسنّات لأعرف عنه أكثر؟

لماذا لا أذهب إلى العنوان الذي قرأته في حلمي؟ لكنني لا أتذكّر شيئاً من الحلم، سوى أن العنوان في عين الشوق.

سأكتب في تقريري عن ياسمين وذهني، وسأحكي عن تحوّلاتهما من زوجين عاديين إلى شخصين خطيرين، الكل يبحث عنهما، وتطبع بلد المحيط صورهما وتنشرها في الصحف، وتعلن مكافآت للقبض عليهما.

لولا أنني شهدت تحوّلهما بنفسي، لم أكن لأصدّق أن يصبحا عدوين خطيرين للبلد. كيف حملا السلاح؟ كيف قرّر زوجان هانئان أن يصبحا متمردين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنهما لم يكونا هانئين، المصادفة وحدها جعلتني ألتقي بهما، في ذلك البار العتيق، الواقع في روف المبنى القديم المواجه لقصر القضاة، في وسط المدينة، حتى رجال العدل هجروا العاصمة، حينما تأسست مدينة بلاستيكية في قلب المحيط أرادوها أن تكون منافسة للمدينة اليتيمة، فصارت إلى مدن الألعاب المائية أقرب.

كنا نجلس في البار، وهواءٌ بارد قادم من جهة المحيط يصفعنا، وفجأة قفز أحدهم من الروف، وطوّح جسده في الهواء، قبل أن ينفجر جسمه في أسفلت الشارع.

ربما كانت ياسمين تفكر آنذاك في معضلة انقطاع الولادة من المدينة، أما أنا فأعتبر نفسي محظوظاً لأنني رأيتها قبل أن ترتدي الملابس العسكرية الرثة، ثم رأيتها مرة أخرى بينما تتدرب على إطلاق النار في إحدى الساحات القصية في الصحاري البعيدة، ثم رأيتها للمرة الثالثة بينما تقود كتيبة هائلة، وتسيطر بها على حي عين الشوق، كان ذلك في العام الثالث من حرب الولادة، عام 6263.

المرة الأولى التي التقينا فيها في البار، كانت الأوضاع لحسن حظي لم تزل هادئة، ميدان الخضراء مفتوح أمام المارّة، والشوارع يذهب فيها الناس ويجيئون، في المرات التالية كانت المواجهات قد تأجّجت، وحالة الطوارئ قد أُعلنت، مرتزقة شركة الأدوية استخدموا رافعات عملاقة لجلب أحجار هائلة الحجم من آثار الوثنيين، وسدّوا بها فوهات الكباري، وصنعوا سياجاً عازلاً، قصموا به ظهر حاضرة بلد المحيط، صنعوا سوراً كسور برلين القديم.

لم تعد هناك حكومة، فوضى عارمة، هذا ما سيجعل قلبك يرتعش حينما ترى الكباري مسدودة، ومداخلها مقفلة، مدينة مقطّعة الأوصال. حينما تندلع الحروب تختبئ الأقمار فتعمّ الظلمات. حتى الشمس تشرق من دون حماس كأنها ذاهبة لتعمل من دون أجر. يختبئ النهار وراء سور طويل من مكعبات الأحجار، وضعه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرتزقة في نهايات الكباري الخمسة التي تعلو النهر المالح وتربط بين شرق المدينة وغربها.

نهاية كوبري كيهك المؤدية إلى شارع المتنبي.

ونهاية كوبري بابه المفضية إلى وكالة الحطابين.

ونهاية كوبري قصر القضاة الذي يصب في ميدان الخضراء.

ونهاية كوبري الخواجة المفضية إلى بلد الشيخ.

ونهاية كوبري الكرماء الذي يتنفس الحياة الأرستقراطية من حي الكرماء ومنطقة الترعة الصوفية، أو كان يتنفس.

خنقوا العاصمة. تحوّلت إلى مدينة ضئيلة تافهة وصغرى، مقيّدة من معصمها وأرجلها. لكن ما علاقة هذا كله بياسمين؟

هي تشبه المدينة، على الرغم من أن الكثيرين يعتبرون العاصمة مدينة قبيحة، لكنها تخفي نواتها الجميلة، تنتظر أملاً ما، حينما التقيت ياسمين مصادفة قبل الحرب بثلاث سنوات، كانت تشرب زجاجة ستيلا في البار الذي يقع في الروف.

كنت ساهماً، مؤرقاً لأنني عاجز عن كسب ثقة شاهيناز، ولمحت بطرف عيني ياسمين، وهي تجلس في البار، وتضع ساقاً على ساق في اطمئنان، ترنو بنظرات حانية لزوجها ذهني، الذي يجلس على مقربة منها. شعرت ياسمين أن الزجاجة التي أحضرها لها ميلاد الساقي «مفلّتة» معيوبة. قالت لنفسها: «البيرة مُرّة».

ياسمين طويلة، وعريضة الكتفين، ناهدة، بيضاء الملامح، وشقراء الشعر، تبدو أجنبية. وحينما تسير في الشوارع، يحدّق فيها الناس، ويتحرش بها المتحرشون في جرأة، ولا يبالون بالرؤساء الذين يزورون ضحايا التحرش مصطحبين باقة من الزهور.

بعدما تعرّفنا، بعد خروجنا من قسم العسس، قالت لي إن أمها لها أصول فرنسية، تمتد إلى أحد أجدادها الذي جاء مع قافلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرحالة، لكنه لم يرحل معها. بقي في البلد، وأشهر إسلامه، وعمل في العطارة، وبيع الجمال، وأسس أسرة، بناتها فاتنات، ومنهم تتحدر ياسمين.

كثيرون حينما يتعرّفون عليها للمرة الأولى يظنّونها وصلت للتو من بلدة «سنووايت». لم تكن تبدي فتنتها إلا في صورها على «إنستجرام»، أو «فيسبوك»، أما حينما تخرج مع زوجها، فهي تحب أن تتراجع لتظهر فتنته هو، ترتدي ملابس لا تبرز أبداً رشاقتها، أو روعة أجزائها، كأن تلبس عباءة فضفاضة واسعة تجر ذيلها على غبار الأرض، أو تلتحف بمعطف واسع بأكمام كبيرة في الشتاء، يخبئها ويداري فتنتها، ملابس تهرول فيها غير تلك التي ترتديها بينما تلتقط لنفسها صوراً تضعها على صفحتها في «إنستجرام».

لا تحب أن يلتفت إليها الرجال في الشوارع ويحملقون فيها، فتضع فوق رأسها طاقية غريبة الشكل، تجعل شكلها منفراً، تخبئ نصف وجهها، لا تلبس التنانير إلا حينما تلتقط الصور أمام مرآة الحمّام، لتضعها على «فيسبوك»، حينما كانت خدمة الإنترنت لم تزل تعمل بصورة طبيعية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ياسمين المليحة: الشقراء البيضاء كالرخام،

التي تسحب النعاس من عين القمر فيظل سهران متضرّعاً

(1)

يمكنني أن أحكي من النهاية، أي من اللحظة التي سلّمتني فيها شاهيناز إلى ميليشيا شركة الأدوية «الفارما» كي تتخلّص مني، ويخلو لها الطريق مع «الناجي»، ويمكنني أن أحكي من البداية، أي من اللحظة التي كنا نجلس فيها أنا وذهني وجون في البار نفسه، في الرووف توب rooftop لفندق البولوبون، حيث طوّح أحدهم بنفسه ليسقط صريعاً في قلب الشارع.

في المعتاد كنا نذهب لشرب البيرة كلّما اشتقنا إليها. في هذه الجلسة المظلمة في ركن بار البولوبون في وسط المدينة، قرّرنا أن ننشئ التنظيم.

منذ عام تقريباً فشلنا في أن ننال متعتنا في السرير بشكل كامل، هذا ظلمٌ كبير. نستمتع، لا شك أننا نستمتع، ولكن ما هو نوع الاستمتاع الذي نشعر به؟ إنه استمتاع غير مبلّل. استمتاع ظمئ. يظل ذهني نشيطاً أكثر من ساعتين، أزأر أسفله، وهو يقتحمني ويدكّني، مثل زلزال رطب، وحنون، لكن الأمر صار جنونياً بعد ذلك.

لا أعرف كيف سيكون بوسع جون أن يسجّل ذلك في التقرير الذي يكتبه، لذلك قررت أن أحكيه بنفسي، ولا أشعر بأي حرج في الكتابة ومنحه ما كتبت. حينما نكتب، نصارح أنفسنا بما نخجل أن نقوله، ونستريح، لهذا نحب الكتابة. إنها تساعدنا على البوح، تندلق أسرارنا من بؤبؤ أقلامنا، ولا ندري كيف تمتلك الأقلام هذه القدرة على أن تخط ما تعجز الألسنة أن تقوله.

سأحكي ما يخصني من القصة، كيف صرت امرأة تحمل السلاح دفاعاً عن النُّطف التي كانت موجودة، ثم فجأة تلاشت، امتنعت عنّا، فيما نجا «سين-عين» من هذا المصير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«سين عين» هي الأحرف الأولى من اسمه، أما «الناجي» فهو اللقب الذي التصق به لأنه نجا من الوباء، أتذكّر الآن، بينما أرتدي ملابس رثّة، وأحمل مدفعاً، وأقف في منطقة باردة، متهدمة، يغلّفها دخان القنابل، وتتصاعد فيها روائح مسمّمة، أتذكّر بداية هذا كلّه، أسمع صوت الهواء وهو يمرّ من ثقوب الرصاص في الحيطان، أقف خائفةً من رصاصة قادمة، أو قذيفة، بينما الراديو يعلن كذباً عودة الهدوء إلى شوارع العاصمة. قبل ذلك بسنوات كنت أجلس جلستي الحالية في البار، أرنو إلى ذهني، وهو يبدو زوجاً عادياً للغاية، لم أتخيّله أبداً ذلك الشخص الذي تحوّل إليه هو الآخر.

سنوات مضت في هدوء قبل أن نصل إلى عام الجفاف، فيه اعتدت بلوغ الذروة عدة مرات، بينما لا يصل ذهني أبداً، لا يقذف، لا يصرخ صرخاته المحببة، بينما روحه ترتج، فقدتُ إحساس سخونة سائله وهو يسري داخلي.

ستدفعكم هذه الكلمات إلى الجنون، إلى اختبار أنفسكم، وتجربة مصنعكم الداخلي على صنع الأبيض، لكنه نفد فعلاً، ولن تفشوا سرّكم، لن تنطقوا، بل ستنكرون، كنا نستطيع أن نحصي عدد المرات التي نقف فيها على أعتاب الوصول في الصباح أو في المساء، كانت تصل أحياناً إلى مرتين في كل ليلة. ننام معاً كثيراً، ولم ننجب، نستمتع بممارسة مستمرة، دون تخوّف من اقتحام طفل لغرفتنا.

كنا ننهض، ونسير عراةً في الشقة، إلى الثلاجة، إلى المطبخ، كان هذا يثيرنا أكثر. مرات كثيرة حاصرني ذهني في المطبخ، ولعقني بينما يجلس القرفصاء أسفل مائدة المطبخ الخشبية، هكذا كانت النشوات تنطبع في أرجاء شقتنا، كأنها بصمات أيدينا بينما تتحسّس الهواء.

في لحظة من اللحظات شككت في أن زفرات المتعة التي أطلقناها في السنوات الأولى من زواجنا كانت أكثرمن تلك التي حدثت منذ عام مضى. شعرت أننا ننحدر. ربما هذا عقابنا لأننا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجّلنا الإنجاب لسنوات.

فـي تخـيّلاتي، التـي كنـت أهزّ رأسـي لأنفضـها عنـي، انتـابتني تصـوّرات أن نشـواتي تتّحـد مع كـلّ التـأوهات المتصـاعدة مـن النســوة اللاتــي يحطــن بــي فــي مــربع ســكني، كلنــا نتنفــس «الأورجازم» كلّ صباح، فتتوحّد أنفاسنا في شكل فقاعة ما، تظلل منطقة جبل الولي مع مطلع النور، وتتطاير مع ضوء القمر في المساء، ثم تتجدّد بنشوات النسوة طوال الليل، فتنتفخ الفقاعة في الصباح وتتطاير. سبعة آلاف امرأة يتأوّهن الآن، وعشرة آلاف يتأوّهن في الساعات الأولى من الفجرية قبل أن يتوجّه أزواجهن أو عشّاقـهن إلــى العمــل، والجبــل يكـاد يتصـدّع مـن كـلّ هـذه التأوّهات.

لكن كلّ هذا سكت إلى الأبد، لم تعد هناك نشوات هنا، في جبل الولي، أو في عين الشوق، أو حتى في حيّ الكرماء، حيث الناس الأغنياء الذين يمتلكون القدرة على العلاج من الأوبئة، أو في أيّ حيّ من أحياء بلد المحيط.

فـي إحـدى المـرات، وعقـب انتهائنا، كان يجلس مرسلاً نظراتٍ متأمّلةً شيئه، بينما أنا سارحة أتأمل السقف، وأنتظر شيئاً جللاً قد يقع، فجأة قال:

- كأنها إشارة يا ياسمين.. إشارة إلى البشرية للدعوة إلى الكفّ عن التناسل.

- أنـت شـايف إن دي إشـارة للبشـرية ولّا لينا إحنا تحديداً؟ ولو للبشرية.. ضروري يعني نكون أول من يستقبلها، ويعمل بها؟

***

- هسلّـمك ليهم .. ابعدي عنه !

- مش هتقدري تبعديني عنه .. أنا اللي هفضحك .. هقول لهم هنا فيه كائنة ممسوخة .. نصف جميلة نصف شمطاء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأنه حلم يقظة. باغتتني الرؤيا. لا أعرف من التي كانت تهدّد بتسليمي؟ ولمن ستسلّمني؟ لكنني رددت عليها وقلت إنني سأفضحها، ولا أعرف كيف سأفضحها؟ وكيف باغتتني هذه الرؤيا الآن (بعدئذٍ فهمت كلّ شيء) بينما أنا مستيقظة، وذهني يقف أمامي، ويشعل سيجارة، وينفث دخانها بينما يتأمل في المرآة ذكره المرتخي الجاف، ثم التفت إليّ وقال في سرعةٍ وحسم:

- المفروض أننا تزوجنا غير الآخرين، لم نخضع لسلطة «المجتمع المستقيم»، وظلمه، ما اتجوزناش بالدفاتر بتاعتها. أنا وأنت اخترنا بعض، غير كلّ زوج وزوجة في البلد دي.. طب ليه بيحصل لنا اللي بيحصل دا.. مفيش غير سبب واحد.. إن دي رحمة.. ولادة أطفال هنا يعني زيادة الجوع، والفقر، أطفال جداد يعني عبء على الكوكب، على أوروبا تحديداً.

شردت، تأرجح أمام عيني شبح السيدة التي كنت أدعوها بأنها نصف جميلة ونصف شمطاء، ظللت صامتة، بينما ذهني يواصل الحديث.

حكى عن احتمالات لمصير الأطفال الذين يمكن أن يغرقوا في البحر، وعن والدهم الذي سيبكي لأنه كان يتمنى لأطفاله مستقبلاً أفضل من الجحيم الذي يعيشونه هنا، حكى عن أطفال يصلون إلى بلد غريب وقارة تنبذه وترفض وجوده، فيتقوقع على نفسه وينعزل، يربّي ذقنه، ويلبس جلابية، ثم يأتي من يدلّه على كتب الإمامة، والخلافة الراشدة، ويطلب منه مبايعة الأمير.

أضاف بعد ذلك: «عرفتي احنا محظوظين إزّاي بأننا مش قادرين نخلّف؟! قلت لك دي علامة».

كان مضحكاً، بينما يقف عارياً، متحدّثاً في انفعال عن خطورة جلب المزيد من الأطفال، بينما عضوه ينكمش ويتراجع، وينطلق لسانه. لسانه وعضوه كالمعتاد كانا يعملان معاً بينما يعتليني، لكن هذه المرة عضوه كان ينكص، بينما لسانه يتحرك ويردّد الهراء، حاولت أن أجاريه، فأضحك، لكن ملامحي انقبضت من أثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرؤيـة، نهضـت، فشـعرت بالـدوار. تـرنّحت، ثـم سـترت جسـدي بقميصي الحريري، جذبت سيجارته من شفتيه، وشددت نفساً منها، قبل أن أعيدها له، قائلة في إعياء:

- ما تحاولش.. اللي بيحصل لنا دا مش بيحصل لكلّ الناس. دا بيحصل هنا بس.

أشعلت التلفاز فظهرت قناة BBC، حملق فيها ذهني وهو يفكر في ما أعنيه، ثم نظر إليّ بحيرة، هززت رأسي أن يصبر، ثم حوّلت إلى قناة CNBC، وهكذا، عدة قنوات، وأدرك ذهني اللعبة، لكنه فهمني خطأ، إذ ابتسم في عصبية قائلاً:

-المصيبة دي متخصّنيش لوحدي أكيد.. كنا لحدّ وقت قريب نقدر نوصل للنهاية.. بالتأكيد ما اتقطعش عندي وحدي.

نظرت إليه بينما أختبئ ضحكة. بحثت عن شيء أبله تماماً لأغيّر الموضوع، فقلت:

- أنا عاوزة أشترى «كونصول» في الطرقة.

بدأنا رويداً رويداً في البحث عمّن يشبهنا، عثرنا على بعضهم، لكنهم لم يرغبوا أبداً في الاعتراف بمصيرهم الجميل (كما يراه ذهني)، كنت أفتح الحوار مع سيدات في الكوافير، وفي أماكن التسوّق، مثل محلات الملابس، كنت أفاتح حتى الزوجات اللاتي يعملن في المصالح الحكومية. أفاتحهن بكلمات فيها إيحاءات جنسية، فألمس فيهن شوقاً ورغبة، وفتوراً ناتجاً عن خيبة أمل كبيرة، كنت أسألهن أسئلة من قبيل: «أنا ملاحظة أن الحكومة قصّرت فترات إجازات الوضع، الكلام دا صحيح؟»، فترد إحداهن قائلة: «وهو بقى ليها عازة يا حسرة!».

كنا نظن أننا لن نحمل للخلفة همّاً، كنا نهرب منها. أيّ عبثٍ أن ننجب ونـربّي، ثـم نمنـح أطفالنا للبلـد الملعونـة حينمـا يكبـرون ويصـلون إلـى العاشرة، ليرسلوهم إلى معامل ومصانع ومزارع، ويعـلّموهم أن ينتمـوا إلـى السـلطات، ولـيس إلـى آبائـهم. عنـدما تزوّجنا اتفقنا فعلاً على ألا ننجب، وهكذا مرّت خمس سنوات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على زواجنا، لكن أن تزهد في شيء يختلف عن أن ترضخ له قسراً. بدأنا نفكر في الاستسلام لقدرنا، ثم أخذنا راحة من التفكير في الأطفال، وتوجّهنا إلى هواية شراء الروايات وقراءتها، بعدئذٍ مللنا من الكتب، وطولها المفرط، فاتجهنا لرسم اللوحات ثم مللنا أيضاً، على الرغم من أننا لهونا بالألوان على جسدينا، ومارسنا الجنس أكثر من مرة ونحن ملطّخان بالأصفر والأزرق والأحمر، ثم تحوّلنا إلى السينما، فاخترنا الذهاب إلى فيلم نهاية كل أسبوع، ثم نهاية كل شهر، بعدما شاهدنا معظم أفلام الموسم.

لكن الهاجس ظلّ يلحّ، ذهبنا إلى طبيب، واحد، واثنين، وثلاثة، حفظتنا سكرتيرات المعامل، والأطباء العاملون فيها، صرنا أشهر حالة، ونحن لا ندري أننا لسنا الوحيدين. في كل مرة نذهب فيها إلى معمل، نلقى الخيبة نفسها، ذهني يجلس وحيداً لساعات داخل حمّامات المعامل معتصراً جسده، عاجزاً عن استخلاص قطرة، يتفحّص مجلات فاضحة، ومقاطع فيديو «بورنو»، تنفد باقة تليفونه المحمول، ويكاد يصيبنا الجنون، يخبط رأسه في الحيط بينما لا يحصل كل مرة إلا على ورقة موقعة من طبيب بالمعمل، تقول: «عيّنة فاسدة. يوصى بالذهاب إلى طبيب أمراض ذكورة».

نفدت أموالنا، وتدلى قماش جيوبنا خارج بنطلوناتنا، ولم نحصل من أطباء الذكورة على أي شيء، فذهبنا إلى وليّ.

زرنا مقامه في باب القمر، الجانب الآخر من المدينة، لا يشبه مطلقاً هدوء شارع تسعة أو أيّ شارع من شوارع جبل الولي، وكتلة مساكنه المرتفعة بالقرب من السماء والمطلة على المحيط والنهر في آن واحد. تبدو المدينة القديمة كأنها امرأة عجوز، تقاوم لتبقى حيّة، لكنها محاصرة بين شوارع واسعة حاولوا تشذيبها وتمهيدها لتعطي أحاسيس زائفة بالتمدن، وشوارع أخرى منسية، مليئة بخرافات الأولياء، وروائح بخور مستوردة من الصين، فقدت المنطقة عبيرها الأصلي.

ركبنا مترو الأنفاق، وهبطنا في محطة باب القمر، لم نكن نعرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أي طريق نسلك، وإلى أي ولي نلجأ، حتى التقينا جون، كانت الفكرة في عقولنا تضطرم ولكننا كنا ننكرها، أهكذا يسلك المتعلّمون؟ ماذا يفعل الجُهّال إذا حذونا حذوهم؟ وكأن ما يميّزنا عنهم لم يعد له قيمة الآن.

كان الطريق متشعّباً، ومضلّلاً تماماً، الحارات متشابهة، المحلات كثيرة، ومقامات الأولياء متناثرة هنا وهناك، غبار في الأرض، وعكارة في وجوهنا، وغيوم في السماء، وهواء بارد يلفحنا، كأنه يدفعنا دفعاً إلى الوراء.

أن نلجأ في عام 6259 إلى وليّ لنحصل منه على كرامة، أو حجاب، كي نعود لممارسة حياتنا الطبيعية، فكرةٌ مخجلة. أخبرنا جون أن ثمة وليّاً، كراماته تشفع، وبركاته واسعة، ومريدوه يفلحون في فكّ الأعمال، والعثور عليها حتى إن كانت مخبّأة بواسطة صنايعي سيراميك في أرضيات مقبرة مدفونة، وكلّ أنواع السحر، لكنّ الطريق إليه كان متاهة، قالوا إنه في منطقة تُسمَّى درب اللبؤة، في باب القمر، وحينما وصلنا إليها، ضللنا الطريق مرة أخرى، كانت الشوارع متداخلة، والأسماء عجيبة، درب الخرّاطين، شارع المراتب، باب النهر، سكّة سوق الزلط، ثم أخيراً، وصلنا إلى المقام الذي كنا نقصده، في جامع العروسي، في الشارع الذي يحمل الاسم نفسه، كان المسجد مغلقاً، ومتهاوياً، وعلى بابه يجلس أحد الصبية، ينظف ماكينة سوداء كالحة، وبائع يعرض الأكواب والأطباق الصيني الرخيصة.

جاء أحدهم، ورمقنا في ريبة، ومضى، وجاء آخر، وهتف في ملامحنا بنظرات مخبر: «مستنّيين حدّ يا بهوات؟».

تلعثم ذهني، وقال بعد لحظة من الصمت: «جايين لمقام سيدي العريان، أو سيدي أحمد العريان».

أجاب الرجل بريبة: «سيدي العريان، تقصدوا الولي المدفون في ضريح الشيخ العروسي؟».

أومأ له ذهني في تردّد، فقال الرجل وهو يلتفت إلى اليسار،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشـيراً إلـى الجـامع الكبـير، ذي المئذنة المرتفعة، والشـرفات المصنوعة من الآرابيسك: «أهو الجامع، بس دا مقفول.. هو مين اللي دلّكم عليه؟».

(2)

المصادفات وحدها تجمع الناس، ومصادفة من هذه المصادفات جعلتنـا نلتقـي بجـون فـي البـار. فـي ذلـك الـيوم نـهض أحـد الموجودين فجأة عن مائدته، ورمقنا بنظرة كلّها ازدراء، وهتف: «اسفوخس عليكم يا ستات»، ثم طوّح بجسده من على سطح البار. وثب من دون تردّد، قفز كأنه يهوي في حمّام سباحة، لعلّه ظنّ روحه ستسقط في قعر زجاجة الفودكا الشفافة التي ظلت وحيدة على سطح مائدته، هوى مثل قنبلة وانفجر جسده في أسفلت الشارع وسط المارّة. هرع العسس والمخبرون إلى سطح الرووف ليحقّقوا معنا عن أسباب انتحاره المدوي. اقتادونا إلى نقطة شرطة قصر القضاة القريبة من بار فندق البلوبون، سألنا الضباط واحداً تلو الآخر عن اللحظات الأخيرة للمنتحر. رفضنا جميعاً من دون اتفاق أن نكشف العبارة التي قالها قبل سقوطه. كان جون معنا، أبرز جواز سفر، فقطع تأشيرة مغادرة القسم. ثم أشار نحونـا بغتـة، وقـال إننا أصدقاؤه. شعرنا نحوه بالامتنان، وغـادرنا القسـم معاً. كـان يبدو عليه الأسى، وقال لنا: «لماذا لا تسـألوا أنفسـكم عـن أسـباب انتحـار الرجـل؟ وكـيف تتحـمّل شوارعكم هذه المآسي؟ هذه الشوارع لو تستطيع، لفرَّت منكم».

لم نفهم عبارته، توجّهنا إلى بار ستلا، على ناصية شارع الزقزوقة، لأنه قريب من الأرض، وفرص أن يلقي أحدهم بنفسه من نافذته منعدمة. هناك حكى لنا حكاية تقريره. قال إنه يشمّ رائحة حرب مقبلة، قصَّ علينا ما توصّل إليه من معلومات، فاجأنا أنه تحرّى عن أعداد المنتحرين في البلد خلال الشهر الذي وضع قدمه فيه فـي المـدينة، والتعتـيم الشـديد الـذي يُفـرض علـى قصـص المنتحرين. أغلبهم شباب عُزّاب رفضوا الزواج حسب مؤسسة المجتمع المستقيم، بعدما تلقَّوا خطابات بالتوجّه إلى المأذونين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بصحبة فتيات اختارتهنّ لهم المؤسسة، ومعهم مبلغ خمسمئة دولار لإتمام الزيجة، زواج أكرهوا عليه، من فتيات لا يعرفونهنّ، قطار سريع للزواج أطلقته الدولة ويدهس شبابها من دون رحمة ومن دون مراعاة لأساليب وطرق الاقتران في أيّ بلد في العالم، إذ يلتقي الطرفان، ويتواعدان أولاً، يتعارفان، ويرتبطان لفترة خطبة قصيرة، يقرّران خلالها إما المواصلة أو الانفصال. أبدى جون دهشته وصدمته وهو يحكي اكتشافاته لعادات الزواج الإجبارية التي تفرضها المؤسسة على شباب بلد المحيط. في البداية قلنا إن الناس ينتحرون بسبب التضخم الاقتصادي، وصعوبة الحياة، وفقدان الوظائف، والبطالة التي تلتهم الناس، والأرواح الشريرة التي يرسلها المحيط على اليابسة، لكن جون رمانا بنظرة ساخرة، وهتف: «ألم تلحظوا أنه لم يعد هناك أطفال في البلد؟».

انتبه ذهني، والتفت إليّ مبتسماً في ظفر، ارتاح باله واطمأن. كأنه يريد أن يقول: «لست وحدي المصاب». لكن ما كان يحكيه جون كان مرعباً. البشر في هذه المدينة يسيرون في شارع ذو اتجاه واحد، هذا سيؤدي بالتدريج إلى أن تضجر الشوارع، لأن معظمها ذي اتجاهين.

(3)

قبل أن يجتاح المدينة ما اجتاحها، عاشت البلد فترة انهيار اقتصادي، مشابهة لفترة الثورة التي اندلعت منذ عشرين عاماً. فوجئ ذهني باستغناء شركة السياحة عنه، كان يعمل فيها سكرتيراً تنفيذياً لمدير قرية سياحية، قرّروا تسريحه من وظيفته بعد الركود الاقتصادي، وقلّة الأفواج السياحية القادمة.

عاد من القرية السياحية مكلوماً، مخزياً، ومضطرب الخاطر، كأنما مسّه عفريت، وظلّ منزوياً في البيت، وحينما قرّر البحث عن عمل آخر، وجد وظيفة في محلّ للجزارة بشارع المسلخ، في حيّ المدينة الغايصة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ساعده شخصٌ غريب الأطوار يسمى «المشرحجي»، على العمل في هذه الوظيفة، توقفنا من تلك الساعة عن تسكُّعنا في وسط البلد، أو انزوائنا في ركن بار ستلا، أو سهرنا حتى ساعة متأخرة لتجنّب، عند العودة، صاحب البيت، الذي كان ينتظرنا دائماً، لأننا نتأخر كالعادة في دفع الإيجار.

ظللنا نتسكّع بعدما أصبح عاطلاً عقّب توقف السياحة، قضينا آنذاك أفضل أيامنا في القرى الصحراوية المتاخمة للمدينة متسكّعين، ونحن نظنّها فترة وستمرّ، كنا في ذروة جموحنا. وجدنا أنفسنا نمارس الحب في حماس، بينما الناس من حولنا ينزلون للشارع في موجات ثائرين بسبب ضعف العملة، وانهيار دخولهم، وتسريحهم من وظائفهم. وقتذاك كان ذهني طبيعياً، أي لم يزل لديه سائله، مرّت أشهر، ووجدنا أنفسنا مشرّدين، حاول أن يبيع الأدوية لصالح أحد مخازن الأدوية غير المرخّصة، ثم تعثّر، لم تكن لديه قدرات «السيلزمان».

عمله سكرتيراً تنفيذياً في القرية السياحية، قبل فترة الانهيار الاقتصادي، جعله شخصاً ملولاً. تحوّلت حياتنا إلى إضاءة خافتة، بعدما كنت أظنّ أنّ حياتي ستكون برّاقة، حيويّة، ومتجدّدة، خاصة أنني كنت زميلته أيضاً، فقد اشتغلت «توورليدر» مع إحدى شركات السياحة الكبيرة، وهكذا تعرّفت به. كنت آتي قريته برفقة الأفواج، فقابلته، وأعجبتني شخصيّته الهادئة، الواثقة، ونظرته السارحة، وشروده بينما يدخّن سيجارته، واعتزازه بنفسه في مواجهة الإيطاليات اللاتي يتعمّدن أن يُجرين كلاماً مع العاملين بالقرية، خاصة حينما تحين طقوس دفن أنفسهن في الرمال، أو حينما يتعرّين على أطراف أحواض السباحة، وحينما يمرّ ذهني بهن، أو حينما تستوقفه إحداهن لسؤاله عن شيء، يبدو لا مبالياً بفتنتهنّ، أو بأجسادهنّ التي لوّحتها الشمس، حتى إنه لا يتوقف كثيراً أمام العاريات في حمّامات السباحة. راقبته من بعيد، وتحدّثنا لأول مرة عبر «فيسبوك»، قبل أن نتحدّث في لوبي الأوتيل.

كان يبدو نشيطاً، حيوياً، برّاقاً وآسراً، حدّثني كثيراً عن أمنياته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تبديل سيارته، أو شراء المقعد الهزّاز الذي يتمنّى وضعه في الصالة، أو تغيير سجّاد حجرة النوم. كانت لديه أحلام تافهة، علّقتني به، وربما عطفت عليه، لأنه من أجل تحقيق هذه الأحلام البسيطة، كان يضطرّ أن يقضي شهرين في منتجع القرية السياحية، ونصف شهر إجازة، يقيم في القرية مع أنماط متعددة من البشر، موظفي حسابات، وشيفات مطابخ، وعمّال، وفرّاشين، ومسؤولي تنظيف حجرات السائحين، وكذلك موظفي الاستقبال، ومديره، الذي كان يعجز عن الكتابة على الكيبورد بنفسه، فيستدعيه لكتابة «إيميل». يستطيع مديره فقط أن يكبس كلّ مرة على حرفين في الكيبورد، يتفحّص الإيميلات، لكن أصابعه الضخمة لا تضغط على زرّ بمفرده.

الملل والرتابة يجفّفان سوائل الرجال بالتأكيد، الرتابة تصيبهم أولاً في نطفهم، هي أضعف خلايا أجسادهم، ثم سرعان ما تتسلّل الرتابة إلى باقي أعضاء الجسد، قبل أن تُجْهِزَ عليهم تماماً. حكى لي أن الصحراء المحيطة بالقرية السياحية كانت تدفعه أحياناً لتوهّم حيوانات مفترسة تخرج من بطنها لتجهز عليهم ليلاً، أين الهرب ما بين فكّي القمر والصحراء؟

بُنيت تلك القرى السياحية في الأساس لتسويق رحلات السفاري، يحدث هذا في البلاد التي لا تملك مزارات سياحية عديدة، أو عجيبة من عجائب الدنيا السبع، خاصة أن آثار الوثنيين تم تفتيتها وبيعها بالقطعة للأجانب والمستعمرين، ثم توالى سماسرة الآثار والسلاح على بيع ما تبقى منها، حتى لم يبقَ في البلاد ما يصلح لأن يكون جاذباً سوى رمل الصحراء، ففكّر أحدهم في بناء قرى سياحية تحوي حمّامات سباحة داخلها، لمنح أوقات من الترفيه لسائحين يرومون غزو الصحراء، ويمكنهم أيضاً أن يدفنوا أجسادهم في الرمال، أو ينطلقوا لممارسة التيه في الصحراء، أو التعبّد في ظلامها المستتر.

تخيّل ذهني وحوشاً تتسلّى على روحه، وتأكلها، فمرض بالأرق، كان يخشى النوم في المساكن المخصّصة للعاملين، الواقعة بعيداً خارج القرية، لأنه كلما نام حلم بجنّية خرجت من قلب الصحراء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونهشت قلبه، وعادت إلى الرمل. كان يقضي الليالي في شرفة حجرته، متأمّلاً الصحراء، والقمر، والطرق البعيدة المؤدّية إلى عاصمة البلد.

كان وزملاؤه أحياناً يقضون الوقت في لعب «البنج بونج»، ثم سرعان ما شعر بالملل أيضاً، لكنّهم لم يشعروا مطلقاً بأي رتابة. وحده ذهني انتابته نوبات الأرق، فكان يغادرهم ليتمشّى في الصحراء، يستطلع انعكاس ضوء القمر على الرمال ليلاً، يحاول جاهداً أن يتأكّد من فضّية ذرّات الرمال. أخبرني عن هذه الليالي الطويلة التي قضاها انتظاراً لتحوّل لون الرمال من الأصفر إلى الفضة، بفضل غلبة ضيّ القمر، فتتحوّل لآلئ الرمال إلى ملايين العيون الدقيقة الملتمعة. حكى لي عن إحساسه بأنها تراقبه، وأنه يفضّل السير وسط تلك العيون المتلألئة في ظلام الصحراء الممتزج بالفضية.

تلك المرة التي غادر فيها حجرته، وغاص قليلاً في الصحراء، شعر كأنه يرتفع عن الدنيا، كأن الصحراء برزخ بين الأرض والسماء، لكنّه تعثر فجأة بشيء معدني، حينما التفت وحدّق في الشيء وجده مصباح كيروسين عتيق، لم يزل يحتفظ بزجاجه سليماً، وفتيله جافاً، وثمالة من الكيروسين في قاعدته النحاسية المتربة من الخارج، حينما حاول أن يختبره ليتأكد ما إذا كان صالحاً للاستعمال، انتفض المصباح في كفّه، وتصاعد في طبقته الزجاجية دخانٌ كسا وعاءه الزجاجي من الداخل طبقةً بيضاء تشبه الشمع، ثم لم يلبث أن أطلق المصباح من قاعدته صوت انفجارٍ مكتوم.

ألقاه ذهني خائفاً ملسوعاً، وكاد يهرب لولا أن تعثّر، لكنّ ذلك لم يمنع الدخان من أن يتصاعد، كأنه ألقى قنبلة غاز مسيلٍ للدموع. تصاعد الدخان في هدوء أولاً، ثم تصاعد بشكل عمودي باتجاه السماء فجأة، كأن أحدهم بخّ فيه ألعاباً نارية. انتشر الدخان أمام ذهني على رمال الصحراء، ورسم هيئة مارد مخيف، له شعرٌ أسود ينسدل على رأسه الكبير المهول، ملامحه غليظة شديدة السواد والقتامة، مُقبضة للقلوب، وزادها ظلام الليل رعباً. يحكي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لي ذهني الحكاية هكذا، المارد كان هائل الحجم، عاري الصدر، ويبدو أنه يقف على الهواء، أو معلّقاً بخيط جهنّمي غير مرئيّ، إذ لم يستطع أن يحدِّد أقدامه على وجه الدقة، ربما لأن ضوء القمر كان خافتاً، لكن المارد لحظة خروجه وتكوّنه برأسه الكبير المهول كـان مفزعـاً، خاصـة فـي اللحظة التي تصاعد من داخله صوتٌ مخيفٌ يغمغم بكلمات أشبه بالصدى:

اعلَمْ أني من الجنّ المارقين

وقد عصيت سليمان بن داوود

فأرسل لي وزيره آصف بن برخيا

فأتى بي مكرهاً، وقادني إليه

ذليلاً رغم أنفي، وأوقفني بين يديه

فلما رآني سليمان استعاذ مني

وعرض عليّ الدخول في طاعته

فأبيت، فحبسني في هذا القمقم

وختم عليّ بالرصاص

وأمر الجنّ فحملوني، فألقوني في اليمّ

فقذفني اليمُّ هنا،

على حافة الصحراء.

أكثر ما أحببته في ذهني، عجزه عن تأليف قصة يخدعني بها عن علاقاته النسائية قبل تعرّفنا، أو حين يمرِّر لي حكايةً مزيّفة عن واحدةٍ حاولت التقرّب إليه، وقتئذٍ أعرف أنه يكذب بسهولة، لهذا حينما أسمعه يتحدّث، وهو يعرف مقدرتي الفائقة على كشف أيّ كذبة، أكون واثقةً أنه يقول الحقيقة، أمّا هذه القصة، فهو يرويها بهلع، ورعب، يتصبّب عرق جبينه كلّما استعادها، لذلك صدّقتها، وأنا أدثّر جسده المرتعش، لم أكن معه وقتذاك، لكنّه بينما يرويها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استعاد خوفه بكلّ رعشة ارتعشها جسده، لا يمكن أبداً أن يتعرّض أحدهم لكلّ هذا الرعب، ويواجهه بشجاعة، ربما يكون قد فقد ماءه في اللحظة التي التقى فيها عفريت سليمان، ولكنّ العفريت لم يؤذِه ساعتئذٍ بل أرعبه، وأفقده وعيه، وربما أفقده أشياء أخرى، وحينما استيقظ، كان العفريت قد مضى لحال سبيله، بعدما حصل على حريته، وبقي المصباح قطعةً حقيقية تثبت صحّة قصّة ذهني، لهذا كان طريقنا إلى الوليّ ممهّداً.

أما جون فحينما استمع إلى القصة، ضحك قائلاً: «المارد والقمقم في خيالكم، وموجود في أساطيركم وحكايات الليالي الألف».

استقبلنا تهكّمه علينا بِصمت، وحينما نفّذنا رغبته في أن نذهب للوليّ، كنّا قد سلّمنا إرادتنا فعلاً بأن كراماته لها القدرة على أن تردّ لنا السائل المفقود.

(4)

قادنا جون إلى الضريح، قال إن خادمته لا تمارس طقوسها، إلا في أوقات معيّنة من الليل، نصحنا بأن ننام نهاراً لنكون يقظين ليلاً، فصاحب المقام يحوم بروحه حول الضريح والمسجد المدفون فيه طيلة الليل، ولا يتجلّى إلا لأهله، لأنه يهجع بالنهار، ينتظر بينما تنتهي المخلوقات من لغوها، ثم ينهض من رقاده، لذلك سنذهب إليه ليلاً، هكذا اشترطت السيدة التي تخدم سيّدها، المسمّى بـ«العريان».

طالبنا أن نتطهّر، ليس فقط أن نستحمّ استحماماً عادياً، إنما أن ندلك أجسادنا بزيوت وصفها لنا عملاً بتوصية خادمة الضريح، زيوت عطرية سدّت مسامي، وأصابتني بالحكّة. حذّرنا من أيّ عطور فرنسية. إذا شئنا أن نتعطّر، فليكن بمسك، أو عطر قديم، فأطعناه صاغرين. شعرت أن ذهني يرتجف، بينما يسير بجواري، فانتقلت عدوى ارتجافه إلى جسدي، واختلجت خلاياي، وشعرت بمسام جلدي تتفتح، على الرغم من الزيوت التي دعكنا بها جلدَينا، أحسست بشيء يحبو في شراييني، كأن نقطة من نقاط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دمـي تنفصـل عـن مسارها. حينما انعطفنا في الشارع، وجدناه يستسلم للسكون، كأنه يودّع حيوية النهار، ليستعدّ لنهارٍ جديد. محال مقفلة، وباعة الخضار يغطّون عرباتهم، محلّ كشري على الناصيـة المقابلـة للجـامع المـهيب، ظـلّ مفتوحاً على الرغم من الحركـة القليـلة للزبـائن، يقابلـه فـرنٌ أفـرنجي، يسـتخرج عمّالـه الفطـير المشـلتت السـاخن، ويرصّونـه علـى الصـاجات، فتلفحنـا الريــاح الشــهية، وقفنــا أمـام الجـامع، تـأملنا شـرفاته، ونوافـذه الخشبية المشغولة من الأرابيسك، كان على باب الجامع الخشبي قفلٌ لامع، وتطلّ مئذنته على رؤوسنا، أشار إليها الأجنبي قائلاً: «قد تسقط في أيّ لحظة».

ثم حانت منه نظرة مستريبة تجاه المارة، تناهى إلى سمعنا صوت خطوات قريبة، مع أضواء محلّ الكشري والفرن، لكن لم تلحظنا أعين، كنا وحدنا تقريباً في منتصف سكة السوق أمام الجامع. دقّ جون الباب دقّات مشفّرة، دقّة، ثم دقّتين، ثم دقّة، فإذا بالباب يُفتح للداخل، مصطحباً معه القفل، كأن القطعة المعدنية التي تغلقه إلى الحائط وهْم. دلفنا بسرعة قبل أن يلحظنا أحد.

كان صحن المسجد واسعاً ومهيباً، مبلّطاً بالرخام الأبيض، المعشق ببلاطات رخامية سوداء، مساحة مستطيلة في مواجهة الداخل، وإلى اليسار عدة درجات حجرية رخامية، تؤدي إلى بطن الجامع، حيث حائط القبلة بتجويفه نصف الدائري، الذي يشكّله المحراب الرخامي، ويستند على عمودين، ارتفاعهما حوالي مترين ونصف المتـر، وتنتـهي بتيجـان رخاميـة أنيقـة عتيقـة الطراز المعماري، مشبعة بالزخرف النباتي الإسلامي المعهود، ويواجه حائط القبلة ساحة المسجد المخصصة للصلاة، تحوي 16عموداً، تنتصب في مستطيل مقسّم بين ثلاث بوائك خشبية، تحوي كلٌّ منها خمسة أعمدة رخامية ما عدا البائكة الأخيرة التي تحوي ستّة.

سرنا خلف جون، بعدما خلعنا أحذيتنا، عبر ساحة الصلاة، إلى قبّة مهولة من الداخل، تقع في ركن خافت الإضاءة من الجامع، تعلو ضريح الوليّ، الشيخ العريان. يستقرّ جسده هنا بين أربعة أركان يغطيها الخيش والأتربة، تطلّ عليها نوافذ شبابيكها من الخشب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخرط، وبعضها مسدودٌ بالأسمنت المعشّق بالزجاج الملوّن، كما يظهر في الجانب الأيسر من هذا الضريح، ضريح آخر للشيخ أحمد العروسي، الذي رمّم المسجد، بعد رحيل الوليّ بزمان. قرأنا إلى اليمين منا لوحة معلّقة على الحائط، متربة، لكن ظهر مداد كلماتها واضح، تقول: «وزارة المساجد. أثر رقم 600. أُسس عام 6000. مسجد العروسي (أحمد العريان) صاحب الكرامات والأفضال على الورى».

تبادلنا النظرات، فقال جون واثقاً: «ستظهر الآن شاهيناز، خادمة الضريح. يقولون إنها تأتي حاملةً كرامات مولاها».

ما معنى هذا؟ هل يقصد أنها مبروكة مثلاً؟ كانت كلماته كافية لأعاود الارتجاف، قبضت على كفّ ذهني، فانتقلت إليه رعشاتي، لكنه لم يمنحني ابتسامته المعهودة، التي تبدو واثقة، على الرغم من رهبة الموقف، ربما الصمت المحيط بنا هو الذي أرعبنا، وساهم في تدفّق الإدرينالين في عروقنا. وقف ذهني يحدّق أمامه في انتباه، بصيص من ضوء المحالّ الساهرة يتسلّل من خصاص نوافذ الضريح، لكنها كافية، لتكشف قامة السيدة التي أطلّت قادمةً من حيث أتينا، كانت تتحرك في بطء، ترتدي رداءً صوفياً، أبيض، وقبعة قماشية مخملية مثلثة، تنتهي بما يشبه الوشاح، حول رقبتها. اقتربت منا، ورمقتنا بنظرات متفحّصة، تأملنا ملامحها الطازجة، كانت فاتنة عكس ما تصوّرناه عنها، إذ ظنّنا أنها دميمة، أو شائخة الملامح، عجوز فارقت زمن الشباب فتستعين بالسحر لتتخطّى عجزها.

شعرت أنني رأيتها من قبل، حدجتني هي الأخرى بنظرات متفحّصة، كأنها تشبّه عليّ، لم تستطع أن تحوّل نظراتها عني. لديها مشاعري نفسها، لقد التقينا، التقينا في حلم يقظة، ثم لم تلبث أن منحت جون نظرة طويلة لائمة، كأنها تعاتبه لأنه جلبنا إلى مملكتها. خطت بخطوات غير مسموعة نحو الضريح، ورفعت كفّيها، ورأسها، وتمتمت، ثم التفتت لنا فجأة قائلة في حدّة خافتة: «الفاتحة على روح سيدنا»، فانتفضنا، والتفتنا لنواجه الضريح، وقرأنا الفاتحة في خفوت ورهبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقولون إنك ما دمت قد ولجت إلى هذا المكان، فعليك أن تجلس، وتصلي، وتخضب كفّيك بالحنّاء، ثم تدعها تصب على رأسك ماءً طهوراً. كانت خادمة الضريح عذراء -كما أخبرنا جون- طبعاً لم يكن بوسعنا التأكد من ذلك. لكن أعيننا ظلّت معلّقة بفتنتها، وجمالها، الملحوظين، وقوامها الذي يبدو رشيقاً، على الرغم من ردائها الأبيض الواسع، وقبّعتها القماشية المخملية. تتحرك ببطء مثل ساحرة. وتؤدي الصلوات بخفوت، وتتمتم بأدعية، لكنها تبدو كما لو كانت تتمتم بتعاويذ سرّية مؤذية.

دعكتْ يدي أولاً بالحناء، دعكتها لي بخشونة مقصودة، تخوّفت منها، وارتعش قلبي، وتأوهت، لكنني كتمت آهاتي في نفسي، صبّت على رأسي قليلاً من الماء، تسلّل البلل إلى صدري، وأنحاء بلوزتي، كنت أشعر أنها تقصد أن تبلّلني، أسمع تمتمتها الخافتة، وتلفّظها بكلمات غامضة، ازداد قلقي، حملت في أصابعها شيئاً لم ألحظه، وحانت منها انحناءة على أذني، وفجأة تألّمتُ. أدركت ما فعلته، لقد ثقبت أذني ثقباً صغيراً، غير ملحوظ، بجوار الثقب الذي ثقبته لي أمي في صباي، كي أرتدي الحلق. حفر العبوس علاماته في وجه ذهني، قبل أن يقول محذّراً: «ما ينفعش تخرم لي وداني».

حدجته خادمة الضريح بنظرةٍ لائمة، قبل أن تلتفت إلى جون، الذي جلس مربّعاً ساقيه، يتأمل ما يحدث في اهتمام وتركيز. ثم قال مؤنّباً: «يجب ألّا تتحدّث في أثناء الجلسة! هي بالطبع لن تثقب لك أذنيك».

صبّت في كوب معدني من الماء الذي سبق أن صبّته على رأسي، وقدّمته لذهني، تأمّله حذراً، قبل أن ينقل نظراته بيني وبينها، بادلته نظرات خالية من أيّ معانٍ، فيما أومأت هي مشجّعة، فأمسك الكوب، وشربه. تناولت منه الكوب، ثم مضت تجاه ركنٍ من أركان الضريح، وعادت بأوراق مربعة، كابية، دعتنا أن نكتب فيها مظالمنا، وأمنياتنا التي نرغب أن يحقّقها لنا الولي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(5)

جئنا هنا لنجد طريقة لإنجاب طفل لدى خادمة ضريح عذراء. كيف لفاقد الشيء أن يعطيه؟ لكن المسألة ليست كذلك. ربما المسألة هي أنها وسيط بيننا وبين الولي، حسناً، لماذا لم تتوسط لنفسها عنده كي تجد الزوج.. الرجل.. الحبيب؟

لم تمنحنا ممارساتها أيُّ أمل. هي تنتظر شيئاً أو شخصاً، ونحن ننتظر سائلاً، وأحدهما، الشخص أو السائل، سيأتي في موضع ما من هذه الحكاية، سيكون لديه ما ننتظره جميعاً، الرجل الذي نجا مما حاق بالمدينة.

سبقتهم إلى معرفته، حينما التقيته قبلهم، لم أكن أظنّه مختلفاً عن رجال البلد الذين أصابهم الجفاف. يتنقل بتفرّده وسط الجموع. يكاد يكون على مقربة من النسوة المتعطّشات، الجائعات، النهمات لنقطة، من دون أن يدرك أن لديه ما يرغبن فيه.

بعدما غادرت الضريح تذكّرت أين رأيت وجه شاهيناز، انتابني الوجوم منذ تطابقت ملامحها عندي بملامح تلك التي كانت تهدّدني، بعد ذلك بتُّ أخاف من الذهاب إليها في الضريح. وحده جون هو الذي تولّى مهمة توحيد مصائرنا.

منذ ظهر في حياتنا وأحوال المدينة في شدّة، حوادث إطلاق نار متفرقة، طائرة سقطت في الصحراء بقنبلة دسّها أحدهم في «كانز»، زوجات يتآمرن مع عشّاقهن لنحر أزواجهن الذين أُجبروا على الاقتران بهم وفق دفاتر «المجتمع المستقيم»، وفتيات يتعرّضن للخطف في ساحل المحيط، قبل أن تظهر جثثهن ملقاة على رماله ويتبيّن أنهن مغتصبات ببشاعة وضراوة، رجال ينتحرون على بانرات شركات الكمبواندات المعلّقة على الطرق السريعة، وكذلك على الطريق الدائري الفاصل بين المدينة وبين الصحراء. أهو نقص النطف وحده من تسبّب في جنون أهل البلد، أم الإجراءات العقابية التي فرضتها السلطة علينا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

طلب مني جون أن أصف له الرجل الوحيد الذي اكتشفنا أمره بالمصادفة، فقلت له:

إنه لا يغادر كهفه، الذي يعيش فيه مع سلاحفه. التقينا أوّل ما التقينا في جمعية الرفق بالجاموس، ثم كانت المرّات العديدة التي شعرت خلالها أنه مختلف، إنه رجل غير الآخرين. سبق ذلك دخولي شقّته، ووقوع ما يقع بين الرجال والنساء عند تحقُّق الخلوة. لم نكن نقصد أن نفعل هذا، حدث رغماً عنا. حينما كان يبكي من الخوف فاحتضنته، ثم حدث ما حدث. ربما لم أكن لأعرف سرّه لولا ذلك، لم أكن لأعرف أنه لم يزل هناك من يحتفظ بسائله وفيراً في هذه المدينة. تناثر على جلدي، واحتضنت أحشائي بعضاً منه. لعلّ ذهني لن يعبأ بهذه الخيانة، فقد تأكدنا من وجود السائل.. لكن الحلو لا يكتمل!

***

«الوباء الغريب ينتشر والبلد ودن من طين وودن في المحيط».

لم نمتلك الجرأة الكافية لنصف الوباء وصفاً دقيقاً بكلمات مكشوفة، لكننا اخترنا الكلمات السابقة عنواناً رئيسياً لصحيفتنا السرية التي طبعناها ونشرناها بيننا. أسفل هذا المانشيت، نشرنا قصة الخطابات التي تلقاها مساعد رئيس الوزراء، وفي الصفحات الأخرى نشرنا أربع قصص رئيسية، الأولى بعنوان: «أحمد قتله العسس في منزله وقتلوا معه سرّه»، الثانية كانت بعنوان «جهاز العسس يوهم الشعب أن نطفهم آمنة ويجلب لهم تحليلات أصحّاء أجانب»، القصة الثالثة «انقطاع التناسل.. السرّ الذي تكتمه الحكومة عن المواطنين»، أما القصة الرابعة فكانت بعنوان «الشعب لا يعرف المكيدة الكبرى.. إنهم ينحرونا».

في موضعٍ ما من مواضع حكايتي، قلت إننا بصدد إنشاء التنظيم، وكنّا نظنّ أن الأمر صعب، لكنّنا فوجئنا بتدفّق المصابين بالانقطاع علينا، في شقّتنا الواقعة بجبل الوليّ بطرف المدينة، بعد كوبري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيهك، المفضي إلى حيّنا، الذي يُسمّى كفر الخواجة جورج. تحوي صفحات الإنترنت معلوماتٍ قليلة عن هذا الخواجة صاحب التسمية، وتكتفي بالإشارة إلى أن الحيّ يقع غرب عاصمة بلد المحيط، بجبل الولي، في شمال العاصمة. الجبل يطلّ على المحيط، وعلى الصحراء في آن واحد، فيصلح أن نقول: صحراء الوليّ، ويصلح أن نقول أيضاً إذا كنّا واقفين جهة البحر: محيط الولي.

وكلا المسمَّيين يشير إلى معانٍ كثيرة، فصحراء الولي، تشير إلى امتداد سيطرة الولي على سكانها، وحيواناتها، وحياتها، أما كفر الخواجة جورج، فالمتداول بين بعض أبناء الكفر، ومن حكايات أجدادهم، أنهم كانوا خدماً ومزارعين في ضيعة كبيرة يملكها خواجة مُرابٍ أرمني يسمّى «جورج»، أو بعضهم على الأقل كانوا عمّالاً أجراء، ثم شيء ما حدث، جورج نفسه ضيّع ضيعته، الرجل لم يقامر بها، بل وهبها لحبيبته. تفكّكت هذه الضيعة الكبيرة، لكنّها لم تتخلَّ عن اسمه، صارت «كفر الخواجة جورج» بجبل الولي، أما قصة تفكُّك الضيعة، فحكاها عديدون بالطريقة نفسها، بدّدها المرابي الأرمني أسفل أقدام فلاحة فاتنة أحبّها، لم يستطع أن يظفر بقلبها، لأنها ببساطة كانت عاهرة، راقصة في فرقة جوّالة، وتضاجع الرجال الأشدّاء الذين يعجبونها. حاول اصطيادها وإيقاعها في حبّه بالتخلّص من خصومه في حبّها، يستدعي كلّ ليلة واحداً من عشّاقها، ويقرضه مبلغاً من المال، هذه هي مهنة الرجل: مُرابٍ محترف، حصل على أرضه بالطريقة نفسها، يزيّن للفلاحين يسر الاقتراض، قبل أن يهوي عليهم بمطرقة الديون، ويحاصرهم بإنذارات السداد، وفي النهاية يسلّم صكوك الدَّين للمحاكم، التي تُصدر له أحكاماً سهلة وسريعة، فينقضّ على أراضيهم بالمحضرين، وينتزعها منهم.

أما قصة الجبل، فكان يقطنه شيخ، يؤمُّ عشّتَه الناسُ من كلّ حدبٍ وصوب، ويسألونه عن أمور الدين، جاءه ذات يوم رجل، سأله أن يعلّمه كيف يستغفر الله كي يعفو عنه ويصفح عن ذنوبه، طلب منه الشيخ أن يذهب فيغتسل، ثم يصلّي، ثم يعمل في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقل عمله، أو في التجارة تجارته، أو غيرها من الأعمال التي كان يمارسها، وليتأكّد بقلبه أن اللّه سيصفح عنه.

ذهب الرجل وانقطع عن زيارة الشيخ، ثم جاء ابنُه، وسأله أن يدعو لأبيه، الذي ذهب يغتسل ومات خلال صلاته من الحزن والخوف ألا يصفح عنه اللّه، اعتكف الشيخ حزناً على الرجل، ولم يغادر عشّته، وامتنع عن استقبال طالبي النصيحة، ظلّ يصلّي لياليَ طويلةً ليصل إلى منزلة الرجل الذي دعاه أن يدعوَ له، لكنّه فقدَ اليقين في الوصول إلى هذه المنزلة، حتى ليلة أنير فيها الجبل بضياءٍ رهيب، ضياء خطف أبصار الناس، وأجبرهم على السجود والاحتماء من شدّة إبهاره، وحينما انقشع الضوء المبهر، كان الشيخ قد ولّى، فجاء المريدون من كلّ حدبٍ وصوب، سكنوا جبله، وزرعوه بمساكنهم، حتى اختفت العشّة بين العشش التي أقيمت في كلّ موضع، ولم يعد أحد يدري أين موضعها بالضبط، والرواية السائدة، أن أحدهم اكتشف جثمانه، فلم يشأ أن يعلن عن كشفه هذا حتى لا تنتزع منه عشّته، ويحوّلها المريدون إلى مقام، فكتم سرّه، واكتفى بالتخلّص من رفات الولي، لكن التسمية التصقت بالجبل، مما دلّ على بركته، وبعد حولين، صار موطناً للعشاق ، يرومونه للبحث عن مناطق متطرّفة من العاصمة، تطلّ على المحيط، أو تطلّ على الصحراء، ليظفروا بساعاتٍ من المتعة، ويقال إن أكثر العشاق من الخبثاء، الزُّناة، تدفّقوا على كفر الخواجة، بعدما سهّل لهم هذا الأخير مواضع هادئة في الخلاء ليمارسوا فيه الفحشاء، كان يتطلّع إلى أن يجعل من ضيعته حديقة للمسرّات، وملعباً للحرية، وهو ما أصابه في النهاية بلعنة الراقصة، التي سقط في هواها.

سمعت الراقصة أنه يتصيّد عشاقها واحداً تلو الآخر في فخاخ الدَّين وصكوك الاقتراض، يخلي الأرض منهم، يحاول أن يحاصرها بالعزلة، يمنع عنها المتعة، التي يمنحها لها عشاقها في سخاء. قرّرت أن تنتقم منه، ارتدت أزهى ما تملك من ملابس، وذهبت إليه في سرايته، التي كانت واقعة في منتصف الضيعة. استقبلها خدمُه، وهرعوا ليخبروا سيّدهم أن الراقصة التي لطالما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحث عنها، هنا، جاءت تدقّ أبوابه، أسرع الرجل غير مصدِّق خدمه، هالته زينتها، وبهجتها، لم تحتمل أعصابه وشراييه، وهو الذي انتظرها كثيراً. طالبته فوراً بثمن أول ليلة: نصف أرضه، تراجع الخواجة وهو يتحفّز، كلّ من يمسس ثروته ويتطلّع لأرضه هو عدوّه الساطع، لكن محبوبته كانت لها سطوتها وإطلالتها، فدعاها للعشاء، محاولاً معها عساها تتخلّى عن هذا الثمن الباهظ.

الأرمنيّ بدينٌ قصيرٌ، وهي طويلة، ومكتنزة، كان شعره أصفر مجعداً، وكانت عيناها مرسومتين، وشفتاها دقيقتين، وشعرها حالكاً طويلاً، ينسدل على كتفيها أسفل طرحة سوداء رشّتها بعطر رخيص الثمن، وإن كان مناسباً ليخلب لبّ الخواجة الأرمنيّ.

حينما أمر بتجهيز العشاء، كان قد رضخ لها جزئياً، تنازل عن فدّانَين في زمام أرضه الواسعة، حدَّدهما في حجّة ورقية، ودعاها لتسكن في سرايته، ضغط عليها لتبيت الليلة الأولى في يوم زيارتها نفسه، لكنّها أبت إلا بعد توثيق الأوراق والعقود، ومنحها حجّة مختومة بملكها الجديد.

هيمن الحبُ على فؤاد الخواجة، شاهده خدمُه في الصباح التالي يمتطي بغلته، ويذهب لتنفيذ ما تطلبه في الساعة الأولى من شروق الشمس. سار خادمه أمامه مهوِّياً عليه، بينما يحمل مظلّته البيضاء، ذات العصا الأبنوسية، والمقبض العاجي الأسود مقاوم التعرّق. هكذا تنهار الإمبراطوريات الكبرى، وتتآكل الثروات، حينما تظهر في البدء فاتنةٌ مليحة، تغري أحدهم بخلع قطع من ملابسها، ثم في صباح كلِّ يوم تكرَّر ذهابُه لتسجيل فدّانَين آخرين باسمها، كلّ صباح تقضم الغواية قطعةً من أرضه، فوجئ جيران الأرمني بتنازله المتتالي عن فدادين ضيعته، كان هذا فألاً سيئاً، حاول بعض أصدقاء الخواجة التدخّل وإقناعه بخطأ فعلته، بعدما امتلك جورج ما قيمته 400 فدّان في ناحية جبل الولي، بإجمالي مبلغ 90 ألف بنس، بسعر زمنه، تناقصت هذه المساحة وصارت 38 فدّاناً فقط.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظلّت الراقصة تقصّ الحكايات على الخواجة كلّ ليلة، وتغنّي له الأغاني الراقصة، المستوحاة من قصص العشّاق الغائبين، وترقص له على إيقاعها، قبل أن تحكي له حكاية جديدة، فيستيقظ في الصباح، ويذهب ليمنحها قطعة من طينه. كلّ ليلة حكاية جديدة، تقضم مقابلها كلّ صباح فدادين جديدة من أرضه.

تبيت الراقصة مع الأرمني في سرايته، لكنها لا تضاجعه، القصص مقابل الأرض. وهو لا يشبع، لكنه يسقط متهاوياً من الشوق، يتهاوى رأسه على صدره، وهو يظن أنه سيغلبها، ويقضي منها وطراً قبل أن ينام، لكنّها كانت تقهره بقوة حكاياتها.

حكت له قصة الفلاح، الذي استخرج من أرضه قدراً مملوءاً بالعملات الذهبية، ومضى ليبيعه، مرَّ على جاره الذي يعمل في التعدين وسبك المعادن، وحكى له كيف عثر على القدر في الأرض، وأراه محتوياته، دخل الجار وأعدّ له شراباً دسَّ فيه مصلاً يساعد على النوم، ما إن شربه صاحبنا مالك القدر، حتى ارتمى على الأرض مغشيّاً عليه، جلب الجار قدراً آخر، ومضى يملؤه بعملاتٍ من الحديد الصدئ، طلاها على عجالة بالنحاس المُذاب، ثم تركها تجفّ، حتى أخذت شكل العملات الذهبية. منح القدر المزيّف لجاره، الذي استردّ وعيه، ومضى بكنزه الزائف.

في ليلة أخرى، حكت الراقصة قصة أحد عشاقها، الذي عثر في أرضه على إناء طهي عتيق، مزخرف ومنقوش عليه رسومات وثنية تشي بقِدمها، ظنّها أثراً، فخبأها في منزله، لكن زوجته أشاعت الخبر بين جيرانها، تآمر الجيران، فكروا في السطو عليهما وقتلهما للاستيلاء على الإناء، وحذا حذوهم الذين يسكنون أسفلهما، اختاروا ألا يرتكبوا الجريمة بأنفسهم، واستأجروا آخرين، مقابل أن يقتسموا معهم نصف ثمن الإناء، فقط وضعوا لهم علامة بالطباشير على باب الجيران. أصحاب الإناء، استقبلوا أقاربهم في تلك الليلة، الذين عرفوا القصة من الزوجة الثرثارة، وجاؤوا ليقضوا الليل في منزلهما، كي يظفروا وهم نيام بالإناء. أفسح لهم أصحاب الإناء، وغادروا المنزل واصطحبوا معهم إناءهم، نجوا من المذبحة التى أشرقت الشمس

206 دقيقة متبقية من النسخة الإلكترونية 35%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على آثارها. في الصباح، كانت الدماء تُغرق العتبات، والجثث في كلّ مكان، الكلّ تقابلوا في البيت الذي حمل بابه العلامة، والكلّ تصارعوا، ولم ينجُ سوى من عثرا على الإناء، واضطرّت البلد أن تلقي القبض على معتوه، قالت إنه دبّر الحادث على غير وعيه، مـدفوعاً بممارسـات طقسـية بـدائية. كـالعادة يـدفع المجـانين الحساب.

هذه أرض المذابح، وقصصها كثيرة، والمتآمرون أغلبهم يسفكون الـدماء، ثم يرقصـون في الصباح التـالي علـى الأغـاني الوطنيـة. تواصل الراقصة الحكي، وتطعِّم قصصها بالعبارات الحكيمة، كي تزيـد مـن حسـابها مـن فـدادين الأرمنـي الخواجـة جـورج الـذي صرعته القصص، وخلبت لبّه، وجعلته أسير الحكايات، لعلّه لم يجد من يحكي له مثل هذه الحكايات في صباه. كلٌّ منّا يخبّئ طفلاً توّاقاً للحكايات، لهذا انتزعت الراقصة قطعاً من أرضه بعد خمسمئة ليلة وليلة.

حتى اليوم تعيش هذه القصة ويردّدها بعض المعمّرين في كفر الخواجـة جـورج، يتنـاقلون القصـة مـن جيـل إلى جيـل. أنقذت الراقصة الفلاحين الذين استعبدهم الخواجة، ردّت لهم أرضهم، عاشـت المـرأة تتنـعّم بسـرايا الخواجـة، بعـدما كـانت شـريدة، واستدعت عشّاقها ليعملوا ويحرثوا أرضها نهاراً، ثم يحرثوها هي ليلاً.

تتشـابه قصـتنا مـع قصـة الراقصة الأسطورية التـي سكنت كفر الخواجة جورج، تبدو شاهيناز كائنةً خفيّة مثل عشيقة صاحب الضيعة، لا نجدها إلا في ورق الحكايات المهترئ، الأصفر، الذي تنبعث منه رائحة الغبار.

تدريجياً عرفت حكايتها، وواقعة اغتصابها في ميدان الخضراء، إنها نصف جميلة، روحها لم تعد هناك، تلاشت، وحلّت محلها روحٌ غاضبةٌ، ناقمةٌ. كان هذا سرّ الرؤيا التي رأيتها.

من خلال ضريح سيدي العريان عرفنا كثيرين مثلنا، يتخبّطون من الشك والحيرة، لكنهم يكتمون حيرتهم، ويكتفون بالكلام مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنفسهم في الشوارع والطرقات، والأزقة، كأنهم مجانينُ فعلاً، لكنّهم مطلَقو السراح، ثم عرفوا طريقهم إلى الضريح الذي تحوّل إلى تجمّع سرّيّ لكلّ الذين يعانون، ونادٍ غير رسمي للمصابين بالانقطاع، ممن حاولوا أن يجدوا علاجاً لمصابهم، وصارت حكاياتهم المدفونة في أوراق المظالم التي تطمرها شاهيناز في تراب الضريح، دليلاً حيّاً على خسارتهم.

أمّا شاهيناز، ودفنها لحكاياتنا في الرمال، فبدا لي أنها تفعل مثلما يفعل قادة هذا البلد، يدفنون أوجاعنا في الرمال، ويصبّون على جراحنا الملح والقصدير، كي تظلّ ملتهبة، ولا نستطيع التفكير في المقاومة، بل ننشغل أكثر في مداواة جراحنا. لكننا على الأقل صرنا نعرف المحرومين مثلنا من السائل، ثم قرّرنا أن نخطو خطوة إلى الأمام، بدعوتهم إلى منزلنا، الواقع في جبل الولي، حيث مات الخواجة بعدما عجز عن أن يحصل على المزيد من قصص الراقصة، وحيث عاشت سيرة الولي.

(6)

الرجل الوحيد في هذه المدينة الذي نجا بسائله من الوباء، وقعت في حبّه امرأتان، أنا وشاهيناز، لكنّه، للأسف، لم يكن منجذباً إلى النساء.

كان مسالماً إلى حدٍّ كبير، ولم يتدخّل لحسم الصراع بيني وبين شاهيناز، لم يختبر قدراته الجنسية، هو نفسه قال هذا. ربما اختبرها ذات مرّة، في مراهقته، لن أزعم أنني أعرف أكثر منه، أعرف فقط ما حدث بيننا. حدث من دون أن يعرف ذهني، لم أستطع أن أصارحه، لقد حدث بطريقة غير متوقعة، لكنّه حدث، وفطنت إلينا شاهيناز. ألم أصِفها في الرؤيا بأنها نصف شمطاء؟!

كلّ صباح يستيقظ «سين. عين الناجي» على أصوات شجار جيرانه، فيتثاءب في كسل مستسلماً، يتفحّص في ارتياب ضوء الشمس المتسلّل من شباكه، ثم يسترق السمع للجيران. يحاول أن يتكاسل، فيضطجع مرّة أخرى وينام، ثم يتذكّر أن لديه مديراً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مزعجاً، رجلاً قبطياً، كسولاً، وذلك عكس معظم الأقباط الذين عرفهم، يظل يراقبهم بينما يعملون وهو لا يعمل أبداً، بل يتسلّى بمراقبتهم فحسب.

الرجل الوحيد في المدينة، الذي لم يزل لديه سائلٌ ما، كان مقموعاً في وظيفة قاتلة ومدمّرة للأعصاب، يعمل في أرشيف صحفي بإحدى الصحف المستقلة، لم يخبره أحد، أنه الرجل الوحيد الذي ظلّ جسده قادراً على إنتاج النُّطَف، الرجل الأخير الخصب في المدينة من دون أقرانه الرجال، الملك المتوّج على الأعناق كافّةً، لم يكن يدري شيئاً عن التاج الألماسي الذي يعلو رأسه، كان يسير في الشوارع، يجلس على القهاوي، يشرب القهوة، يأكل الفول من عرباته المتناثرة، يقرأ الأخبار التي يُحظَر نشرها، إذ كانت تصله بيانات من رئيس تحريره، تصدرها منظمات المجتمع المدني عن أعداد المنتحرين المتزايدين بسبب قرارات الزواج الإجبارية، وأعداد المنفيين إلى مزارع الصحراء، وأحكام الإخصاء التي تُطبّق على المعارضين بزعم أنهم يرفضون الزواج، ويواعدون الزوجات، ويُفسدون الأسر، ويهدمون الزيجات المنعقدة فعلاً. كانت تصله، ويقرؤها في فولدر «الحذف»، ثم يحلّ السودوكو والكلمات المتقاطعة غير مبالٍ.

دوامه في العمل البائس الذي يستعبده كان يبدأ في الثامنة صباحاً، ويستمرّ حتى التاسعة ليلاً، من دون أدنى رحمة أو شفقة من رئيس التحرير، أو مديره القبطي الكسول. لن أستطيع أن أذكر ديانة الرجل الوحيد الذي يحتفظ جسده بخيره، هذه قضية علمانية تماماً وجسدية مئة في المئة، لا فضل لأيّ ديانة في احتفاظه بهذه النعمة، وعليه لن نذكر اسمه بالكامل، لهذا نشير إليه بالأحرف الأولى من اسمه: «سين. عين».

في الصباح الذي فجّر فيه الإرهابيون مسرح باتاكلان الفرنسي، وحصدوا أرواح مئة وخمسين فرنسياً بالرشّاشات والأعيرة النارية العمياء، وهم يردّدون «الله أكبر»، كان «سين. عين» يأكل من عربة فول مثيرة لشهيّة الكثيرين ممن يقطنون حي الكرماء، قبل أن يتوجّه إلى البنك لسداد مبلغ بالتقسيط فى كارت الفيزا، لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يدري أن مديرة كروت الائتمان بوسعها أن تسدِّد كلّ ديونه مقابل مائه، نطفة من نطفه، في زمن عزّت فيه النطف. في هذه الأوقات نفسها، لم تكن الأحداث قد دفعت بسين عين في طريقنا أنا وذهني، في ما بعد سنتعرف عليه جيداً، وسنلتقيه عن طريق المشرحجي.

سوف نعود لاحقاً إلى باقي الجدول اليومي لـ«سين. عين»، أعرف أن طريقة حكايتي في التقرير مربكة، لكنني لست خبيرة بحكي الحكايات، سوف يرتّب جون كلّ شيء في النهاية، سأعرج هنا إلى كيفية استقبالنا لهؤلاء المرضى بانقطاع سائل الحياة.

***

- مراتك خانتك معاه .

- .....

- أي راجل عنده نخوة .. لو أنا في مكانه .. أم وّ تها .. دا لو عنده نخوة ..

- أنا عارف إنك بتغيري من ياسمين .. لكن ياسمين لا يمكن تعمل كدا .

***

رؤيــة أخــرى تنتـابني، وتحـاول أن تخـرجني عـن تـركيزي فـي الحكاية، هي الشمطاء نفسها، الفاتنة العجوز، لكنها هذه المرة في مشاجرة مع ذهني، حدث هذا بعد عامين من بدء الحرب. قبل ذلك ولعام كامل، بدأنا ننظّم أعداد المنضمين إلى مجموعتنا، كنا نتعرّف عليهم في توجُّس وحذر، ليس من السهل أن تستقبل في بيتـك مرضـى مصـابين بـهذا الوباء، خصوصاً أنك تعرّفت على بعضـهم فـي ضـريح ولـيٍّ بباب الشمس، وبعضهم جلب البعض الآخر. الخوف كان يجتاحنا، ويعصف بنا، ومع ذلك لم نستطع أن نقول لا، ولا أن نتأكد من هويات الذين يدخلون بيتنا، خصوصاً أن بعضهم قـد يكـون مخبـراً عند العسس، أو خفيراً من الخفراء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المخاوف من أن يكون ما يحدث وباء كان هاجسنا الرئيسي. لكن ذهني بالفعل مصاب، فلماذا الخوف؟ يماثلوننا ونماثلهم، كنا نشبه كل المارة في الشوارع، أو هؤلاء الذين يركبون عرباتهم الفاخرة. كيف تميّز مريضاً بانقطاع الشيء؟ لن تنجح أبداً في ذلك. «سين. عين» كان يشبهنا أيضاً، على الرغم من كونه الناجي الوحيد من الجائحة.

لم نستطع استقبال أكثر من خمسة كل مرة، إذا استقبلنا أكثر من هذا العدد سنثير ريبة جيراننا، خاصة هؤلاء الراغبين في تقديم شرفهم إلى مُخبري العسس، يقدّمونه طوعاً وليس بالإكراه، حينما يتطوّعون للإبلاغ عن جيرانهم المختلفين معهم سياسياً. هكذا تتقلّب الجمرة الخبيثة في أعماقهم، بينما يرون الطامحين إلى شيء يكافحون من أجله، وتهدأ جذوة تلك الجمرة حينما يرون العسس يقتادون خصومهم المختلفين معهم في الرأي.

في البداية أطلقنا على التنظيم اسم «المجموعة البيضاء»، ثم سمّيناه «النطف المنقرضة»، كان هذا على وزن «الذئاب المنفردة»، فقرّرنا تغييره خشية أيّ ملاحقة، جعلناه «كوكبٌ دِرِّيٌّ». خشينا أيضاً أن يتّهمنا البعض بأننا «متبادلي الزوجات» خاصة أنها تهمة جاهزة للتخلّص من الخصوم السياسيين، قرّرنا الاكتفاء بحضور أفراد قليلين، مصابين حقيقيين، يعانون ما نعانيه، وسمّينا التنظيم أخيراً: «الشيء المفقود».

ذهني تحدّث مع كل واحد ممّن نصطحبهم على انفراد، كان يلتقيهم بعد انتهاء طقوس الولي، يفتح مع واحدهم الموضوع، ثم يخبره بأمر تشكيل الرابطة، ويدعوه للانضمام.

وهكذا بدأت تتشكّل الرابطة، أو التنظيم. في أوّل هذه الاجتماعات، كان علينا تحديد شكل قضيتنا. أحد الحاضرين ظنّ أننا مجموعة من الأطباء نبحث عن حلول علمية لنفاد الشيء. حينما بدأت المناقشة، كان ذهني يتحدّث عن الحقوق التي لا تعترف بها الدولة، ومنها الحقّ في المتعة، الحق في الحب، الحق في الصحة، وقبلها طبعاً الحق في السائل الأبيض. كتب ذهني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقوق الأربعة في ورقة، ووزّعها على الحاضرين ليضيفوا إليها ما يرونه من حقوق أخرى قد نكون نسيناها، أضاف أحدهم كلمة «الحق في الإنجاب»، فخرج آخر عن شعوره قائلاً:

- إن الزيادة السكانية خطر، يجرّ البلاد إلى ما لا يحمد عقباه. ليس من حقنا أن نجلب للدنيا أطفالاً بائسين ونطرحهم في الشوارع ليصبحوا متشرّدين.

تأمل ذهني الرجل في ريبة، تصدر هذه الآراء في الغالب عن المواطنين الشرفاء، الذين يردّدون كلّ الحماقات التي تتبرّزها الأنظمة في عقول مشاهدي قنوات التلفزيون.

تابع الرجل فورة غضبه بالقول إنه غير مستعدّ لسماع كلامنا الفارغ، وإنه لن يحضر مرة أخرى، ثم هبَّ من مقعده مغادراً.

اقترح أحد الحاضرين بعد ما حدث أن نحتاط ونضع قواعد للانضمام إلى المجموعة، فالشوارع مليئة بالمجانين والمخبرين، والاتهامات الجاهزة متوفرة، سيتهموننا بأننا مرضى نفسيون، إرهابيون، محرّضون على قلب نظام الحكم، أو ربما أننا نتدرّب على صنع القنابل، أو نخبئ رواية 1984. بينما اقترح آخر أنه يجب علينا إيصال صوتنا إلى من يمكن أن يشعر بنا، ويهتمّ بقضيتنا. أن نطالب بعلانية إجراء التحاليل، أن نحاول إيجاد ضابط متعاطف معنا، ورئيس تحرير مجلة أو جريدة يقبل بالحكي عن مشكلتنا في الصفحة الأولى، ومذيعة غير مرتاحة في حياتها الزوجية ستتحمّس لفتح الملفّ في برنامجها المسائي.

(7)

عرفت «سين. عين» قبل أن تعرفه شاهيناز، وقبل ذهني. سبقتهم إلى نطفه، لهذا أعتبر حقّي فيه مضاعفاً عن حقّهم فيه، كان زميلي في جمعية الرفق بالجاموس، التي وجدتها نشاطاً عبثياً يتوافق مع طبيعة ما نعيشه عقب حالة الإفلاس الكبيرة التي تعرّضت لها البلد، زميل الصادفة، الذي اكتشفت نجاته من الوباء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحبس الناجيات منهن، وانتهاكهنّ كلّ ليلة. في تلك الليلة التي فُضّ فيها اعتصام النساء هذا، وقع ما وقع بيننا، قبل اندلاع الحرب بأشهر.

أعرفه أكثر منهم، والدليل ما سأقوله عنه في السطور التالية، لا يتذكّر أيّ شخص رأياً سياسياً لـ«سين. عين»، لا يشعر به جيرانه أثناء عودته من الجريدة التي يعمل فيها، يعمل في قسم الأرشيف، ينأى بنفسه عن أي معركة، يرتدي بنطلون جينز واحداً تغسله له خادمة تزوره كلّ جمعة في إجازته الأسبوعية، يهوى اقتناء السلاحف، وتربيتها، أحياناً يذهب إلى محلات الحيوانات في عزبة البط القديمة، ويدخل في مساومات عديدة مع تجار السلاحف المنتشرين في أطراف الميدان، من أجل الظفر بسلحفاة أخرى يضمّها إلى مجموعته. في إحدى حجرات بيته الذي ورثه عن والدته، تقبع سلاحف «سين. عين»، في الحجرة التي تعجّ برائحة الخسّ، والبروكلي، والخيار، والبقدونس، والفلفل الرومي. يبتاع يومياً كميات هائلة من هذه الخضراوات المختلفة، يوزعها على أرض الحجرة بين سلاحفه بالعدل، يحرص على أن تكون مغسولة جيداً، يأكل منها هو أيضاً كميات عديدة تشبعه في النهاية، ولا تجعله يشعر بالحاجة إلى طهي أطعمة أخرى لنفسه. تحوّل تدريجياً للنباتية، من دون أن يشعر، ربما فسّر ذلك تمتُّعَه بالخصوبة. معروف أن السائل المنوي يدخل في مكوناته سكر الفركتوز، والفوسفور، والصوديوم، والبوتاسيوم، وحمض اليوريك، وحمض اللبنيك، والنتروجين، وفيتامين سي. حينما عثرت خادمة على نطفة في قطعة من ثيابه، وتذوّقتها، وجدتها حلوة كقطعة القشطة المجمدة، واكتشفت أن الشيء لم ينقطع عنه، خرجت في اليوم التالي وقالت للمقرّبات منها إن سائله طيب المذاق، لاذع.

لم يكن «سين. عين» شرهاً في تناول أيّ طعام، أو شرب أيّ شيء، لم يدخّن السجائر، ولا يتردّد على البارات، ولم يدمن الكحوليات، كما لم يشرب الشاي والقهوة. ربما كان ذلك سبب نجاته. كان معتدلاً إلى أقصى درجة، ينفق راتبه تقريباً على المواصلات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإطعام سلاحفه. يحيا وحيداً، لم يسأله أي أحد بعد ذلك بسنوات كيف عاش من دون امرأة، لم يشتهِ واحدة أبداً. حينما اشتهرت قصته أثناء اشتعال الحرب في عاصمة بلد المحيط، حكت الصحف عنه قصصاً كاذبة، منها أنه قادر على أن يجعل النساء يقطعن أيديهن من فرط سحره، وروعة بهائه. هذا ليس زمن الأنبياء، لو عادوا إلى الحياة، لسُجنوا جميعاً، أو حكم عليهم القضاة بالإعدام.

شوّهت الصحف صورته، وجعلته منعزلاً، كارهاً للبشر، محبّاً أكثر من قبل للزواحف فقط، قصدت الصحف أن تجعل منه مسخاً، كائناً مكروهاً يشمئزّ منه الخلق، «سين. عين» كان نبيّ هذا الزمن، رسولاً إلى النساء لإنقاذهن من محنتهن، وككلّ رسول نال التنكيل اللازم من قومه. لذلك حينما حكيت عنه لذهني، للمرة الأولى، ظنّ أنني أتحدّث عن «بوذا» وقد بُعث من جديد. لم يواجهني أبداً بما قالته شاهيناز عني، لم يسألني ما إن كنت ضاجعته كما رمتني الشمطاء.

حتى ذلك الوقت كنت أعطف عليها، وتذكّرت حكايتها التي كانت تردّدها عليّ أمي باعتبارها قصة صالحة لإرهاب الشابات، كأنها خيال مآتة. لكن أمي لم تدرِ أنها صارت مسخاً، هذه هي إذاً فتاة الخضراء، التي حكوا لنا عنها ونحن صغار!

في اعتصام النساء بميدان الخضراء، كنا نستشعر الغدر، الذي يشبه الغيم، قلوبنا منقبضة من القلق واليأس. الكثيرات شعرن لأيام بالخوف والرعب، وبعضهن قرّرن النكوص، بعض النسوة اللاتي انخرطن في الاعتصام، بكلّ حماس، تسلّل إليهن الفزع في الليالي المظلمة التي أعقبت بقاءهن في الشارع وحيدات، والناس ينهشون سيرتهن على الشاشات، نسوة أخريات، مذيعات، مدرسات، طبيبات، ومهندسات، خرجن على البرامج الليلية وكذبن نفاد الشيء، وأشدن بروعة نظام مؤسسة «المجتمع المستقيم» وعقوبات سجن العوانس وإخصاء العُزّاب، لم يذكر أحد أن الإخصاء طال كلّ رجال البلد، معارضين تخطّوا الخمسين، صاروا يقادون إلى المستشفيات لقطع أعضائهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذكرية، وإعادتهم إلى منازلهم، من دون يوم سجن واحد، لكن بكسر روحهم وسجنها داخل أجسادهم. معارضون تعرّضوا للإخصاء ألقوا بأنفسهم من شرفات منازلهم بعدما هانت عليهم أنفسهم، لهذا اعتصمنا في الميدان، من أجلهم ومن أجل العوانس المحبوسات.

الكلّ ضدّنا، الصحافة والقنوات التلفزيونية، والرجال العاجزون عن قذف نطفة، صاروا الآن خبراء استراتيجيين يتحدّثون بكل أريحية في الاستوديوهات عن ضرورة فضّ اعتصام النسوة الهائجات، لأنهن يشوّهن الدولة، ويعكّرن ماء المحيط ويشوّهن سمعة العاصمة. اللعنة على العاصمة، وعلى سمعة بلد المحيط، التي جعلتنا مسوخاً، عاجزات عن الولادة، هكذا كنت أفكر، بينما أقف عند مدخل شارع قصر القضاة المظلم، بين زميلاتي من فرقة تأمين الاعتصام، قوات العسس تطوّق الميدان، ودبابات الخفراء يطوّقون الجميع وأفرادهم يصوّبون مدافعهم تجاهنا، آنذاك كان «سين. عين» يحيا بنظرية واحدة، لا تعبأ ولا تبالي، كان يقول لنفسه، إن الأشياء التي لا تستطيع أن تواجهها، أو تتغلب عليها، يجب أن تضمّها إلى نسيج جلدك، تضطرّ إلى التعايش معها في النهاية كفطر، ثم تصبح من خلاياك. لم يكن له أصدقاء يطلبون منه النزول بصحبتهم للميدان، أو التضامن مع المعتصمات، لم يشعر بحماس كبير لأيّ شيء، ولم يشعر بهلع من أي شيء، لم يعانِ من آراء أصدقائه السياسية المخالفة مثلما نعاني، فقط كان يُجبَر على حضور اجتماعات يكرهها في جمعية الرفق بالجاموس، لكنه أبداً لم يكشف عن كراهيته للاجتماعات، كان يعود مشتاقاً إلى سلاحفه، ويحتضنها، ويداعبها، فتتلاشى مشاعر الاجتماعات السلبية.

***

- لن نتركه هنا طبعاً". هذه الساحرة المأفونة ، تربية أضرحة الأولياء والمقابر ، صاحبة الفضيحة المعروفة .. قد تأكله أكلاً"!

- عجيب خوفك عليه منها يا حبيبتي !

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

تزعجني الرؤى وتشتتني عن واقعي، صرت لا أعرف ما إن كنت في الواقع، أم في الأحلام، أحلم في يقظتي بأشياء مستقبلية، فأشعر أنني لم أبرح فراشي، وأغلق عيني من الدوار والدوخة التي تكاد تجعلني أتهاوى.

كنا قد بدأنا طبع صحيفة أشبه بالمنشورات، أو بمذكرات طلاب المدارس الثانوي، التي يتبادلها الطلبة في مراكز الدروس الخصوصية السرية، صدرت الصحيفة تحت اسم «كوكبٌ دِرِّيٌّ»، كان له وقع ديني، وربما يجذب المتديّنين، أكثر الذين يركنون في مصابهم إلى الغيبيات، ولا يحاولون تغيير ما يُبتلون به، هذا بجانب أن هناك طبقة واسعة من المتعلّمين، صاروا بعيدين عن الدين، ولا تجذبهم تلك العناوين المحمّلة بمعانٍ دينية، لكن ذهني أقنعني بميزة «كوكب دريّ» أن أياً من أمناء العسس ومخبريهم في الشارع سيفهمون معنى المكتوب، ربما إذا وقعت في يد أحدهم بالمصادفة، سيظنّها صحيفة من صحف الجماعات المتطرفة، قلت له: «هذا بالضبط ما سيضعف قضيتنا، لأننا هنبقى محسوبين عليهم، والبلد هتقول علينا إرهابيين».

لكنها صدرت في النهاية بهذا العنوان.

في الصفحة الثانية من الصحيفة الصغيرة، التي كانت عبارة عن أربع صفحات، نشرنا قصة سميح الذي تقدّم لقسم العسس ببلاغ، يكشف تعرّضه لوباء، تسبب في اختفاء سائله، يضاجع زوجته أكثر من ساعتين، بلا فائدة، ضابط العسس استمع إليه في بلاهة، ثم سخر منه، وصفعه، وقرّر إلقاءه في حجز القسم أربعة أيام على ذمة التحقيق، قبل أن يحوّله إلى القومسيون الطبي للكشف عن قواه العقلية، عاد سميح رثّ الثياب بعد علقة ساخنة تلقّاها في القسم، ثم قرّر أن ينشر تحليله الطبي على صفحته بموقع «فيسبوك». ذهني عارض من جانبه كل الخطوات التي اتخذها، حاول أن يقنعه أنه يسير إلى الهاوية، لأن مجموعاتهم لم يشتدَّ عودها بعد، وفي الوقت نفسه هو يخاطر بنفسه، إلا أن ردّ سميح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان إن على أحدنا أن يتخذ المبادرة الأولى.

في الليل، فوجئ سميح بطرقٍ عنيف على باب شقّته، كان تحليله الطبي الذي يشير إلى جفاف سائله قد حظي بعشرة آلاف «شير» على «فيسبوك»، وتفاعل كبير من بعض الصحفيين، أحدهم كتب تقريراً في صحيفته، مصحوباً برد من وزارة الصحة يكذّب الواقعة بأكملها، أما هؤلاء الذين طرقوا منزله في عنف، فقد أطلقوا عليه النار مباشرة، في رأسه، وبين عينيه. في الصباح التالي كان هناك خبر توزّعه وزارة الداخلية على كل مندوبيها في الصحف المستقلة والحكومية، كان يقول نصه:

«مداهمة منزل أحد التكفيريين في منطقة ترعة النهر الحافي وتصفيته بعد مقاومته للقوات».

أما متن الخبر فاكتفى بتكرار ما سبق في عنوان بيان الداخلية مع إضافة تقول: وكان التكفيري يزعم أنه يعجز عن ممارسة حياته الجنسية بشكل طبيعي، ونشرت إحدى الصحف تقارير مغلوطة تروّج لهذا الزعم، لكن الثابت من التحريات الأمنية، ومما ضُبط في منزله من أحراز أن المتهم كان بحوزته مدافع جرينوف، ومسدسات، وعبوات ناسفة، وأخرى في طورها للتركيب، وكتاب بعنوان «1984».

لم نعرف أن سميح يقرأ لجورج أورويل إلا من بيان وزارة الداخلية، قررنا نشر قصته الحقيقية في صحيفتنا السرية، وفي الصفحة الثالثة نشرنا قصة أخرى عن التحليلات الكاذبة التي نشرتها وزارة الصحة لمواطنين زعمت أنهم أصحاء، قالوا إنهم لا يعانون أبداً من أي انقطاعات، وإنهم يقذفون بصورة طبيعية، ويمارسون حياتهم بشكل حيوي وفانتازي.

قادتنا كذبة وزارة الصحة إلى «زهرة الجبال». صحفية التحقيقات البدينة، التي انضمّت إلى كوكب دِرِّي. حينما دخلت «زهرة» شقتنا للمرة الأولى، شككت في قدرتها ومهارتها الصحفية، لم أعرف صحفيين من قبل، أظنهم مثلما يظنهم الكل: أناساً مرموقين، يركبون سيارات فخمة، ويرتدون ملابس أنيقة. حطّمت زهرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الأفكار المسبقة. كانت محجّبة، وبدينة، وتنسدل خصلة من خصلات شعرها الأسود من مقدمة حجابها المحبوك على رأسها. ملابسها على الرغم من بدانتها كانت متناسقة مع جسدها، ألوانها كانت متفتحة، زاهية، تشي بأن لصاحبتها ذوقاً في ارتداء الملابس التي تبرز جمال بدانتها، وليس العكس، كانت ترتدي بلوزة برتقالية اللون، وارت كثيراً ثنيات جسدها الممتلئ، وبنطلوناً أسود اللون، لم يكن مجسّماً لردفيها، بالعكس، كانت تخرج بلوزتها خارج البنطلون، فبدا طولها أكثر من بدانتها.

حينما رأيتها للمرة الأولى أطمأننت، لن تلفت أنظار ذهني، ثم شعرت تجاهها بالإعجاب حينما سمعتها تتحدّث عن عملها في التحقيقات، ثم فوجئنا بقدرتها على اختيار الألفاظ المثيرة الجاذبة للقراءة، كتبت تقريراً تحت اسمها المستعار «زهرة الجبال»، ونشرته في أحد المواقع الإلكترونية، مما تسبب في انقلاب كامل. تداول الكثيرون موضوعها في صفحاتهم في «فيسبوك» و«تويتر»، كان حديثهم صباحاً ومساءً. سرّ انتشار التقرير المفاجأة أن زهرة تعرّفت على موظفي معامل وزارة الصحة، رشتهم جميعاً، للحصول على التقارير الحقيقية لأصحاب العيّنات التي استخدمتها الوزارة في مؤتمرها الصحفي المسرحي. نشرتْ بيانات التحاليل المزيّفة، في صحيفتنا الخفيّة، محدودة التوزيع والتأثير، ثم نشرتها في موقع صحفي إلكتروني واسع الانتشار.

(8)

ها هي ذي النهاية تجيء على يد العجوز الفاتنة . يقتادونني الآن أنا وذهني والجنازير تكبّ لنا من أيدينا . فعلتها فتاة ميدان الخضراء وسلّ متنا جميعاً: أنا وذهني وقبلنا المشرحجي . قادتنا إلى المشانق .. الملعونة .. كل هذا من أجل نطفة من نطف

»

سين . عين ».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اجتماع من الاجتماعات قد انفضّ للتو، غادر شقتنا عشرة أشخاص، جاؤوا جميعاً يحملون حقائب هدايا عيد ميلاد، طلب ذهني منهم أن يحملوها بزعم أنهم مدعوون لحضور حفل عيد ميلادي، بعدما كثرت الشبهات حول ضيوفنا. ضبط ذهني البوّاب يتلصّص على باب شقتنا بعدما أغلقناه، فتحه فجأة وصفعه على وجهه، ثم عاد وأبلغنا بضرورة أن نبحث عن موضع آخر نجتمع فيه.

لكننا لم نجد مكاناً نستطيع أن نجلس فيه ونتحدّث بأمان من دون أن نخشى تنصُّت المخبرين والعسس، فواصلنا عقد الاجتماعات في البيت. ثلاثة من العشرة، أطباء يديرون مستشفيات للولادة، وثلاثة آخرون مسؤولو شركات تأمين، والأربعة الباقون كانوا يعملون في مجالات مختلفة، أحدهم في المركز القومي للإحصاء، بطبيعة الحال رفض أن يخبرني باسمه الحقيقي، جلبته زهرة التي صارت حاضرة كل اجتماعاتنا. من بين الأربعة أيضاً مندوب رجل أعمال كبير، كان يساهم في أحد مصانع الترامادول التي كانت تعقد شراكة حكومية مع وزارة الصحة، فتحت الحكومة الباب له على آخره ليدخل مساهماً بحكم خبرته في الصناعات الدوائية، ثم فجأة، أغلقت الباب في وجهه تماماً. انقلبت البلد على الترامادول، حدث ذلك بعد الثورة، أي منذ عشرين عاماً، ولكنه ظلّ طيلة عقدين صامتاً، حتى بدأت الجائحة. جاء الرجل وهو على استعداد أن يموّل مشروعاتنا الجريئة لفضح الوباء المنتشر وللانتقام لخسارته. توصّل إلينا بعدما نشرنا حكاية سميح وتحليله الطبي.

أما الثالث والرابع، فكان أحدهما عضواً بمجلس المرأة للشؤون الاجتماعية، والأخير كان موظفاً في مجلس الوزراء، جميعهم على اتصال جيد بزهرة، ما عدا مديري المستشفيات، هؤلاء والآخرون الذين يعملون بشركات التأمين، كانوا غاضبين للغاية من تراجع معدلات المواليد في بلد المحيط.

بدأ الأمر بخبر صدر في إحدى الصحف الخاصة لم ينتبه له الكثيرون، مطلع إبريل 6259. قال الخبر إنه لأول مرة تنخفض 41%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معدلات المواليد في بلد المحيط بمقدار 2.5 %، مديرو شركات التأمين كشفوا أن طوائف واسعة من المواطنين الأثرياء، ممن فقدوا الخصوبة توقفوا بالفعل عن شراء بواليص التأمين التي كانوا يشترونها في الماضي للتأمين على حياة أطفالهم الجدد.

مديرو المستشفيات قالوا إن أقسام المواليد صارت عنابر أشباح، تفر منها القطط، ووزارة الصحة بدأت تحوّلها لتخصصات أخرى، صارت عيادات استقبال طوارئ، أو أقسام للحوادث، وغيرها من الأقسام التي تزايد الضغط عليها، خاصة وقائع الانتحار. بدا الهزال على مديري المستشفيات الثلاثة. ملامحهم كانت مكفهرة، ربطات أعناقهم كانت رثة، وحول أعينهم هالات سوداء، وبؤبؤ عيونهم كان منتفخاً. كان واضحاً أنهم يعانون ضغوطاً غير عادية. يتحدّثون بتوجس وبحذر، ينتقون ألفاظهم قبل الحديث، ثم يتراجعون عنها بقولهم: لا نقصد ذلك المعنى بالضبط.

بدا الاجتماع معهم مشوّشاً قلقاً، ضبطت زهرة تشطب أكثر من مرة، ثم في النهاية توقفت حينما لاحظت أن بعضهم يرنو إليها بنظرات قلقة. مندوب رجل الأعمال كان يشجعهم على الحديث، ويدعوهم للمضي في الكشف، أما الموظف بمركز الإحصاء، فقال في صوت خافت وهو يتفحص وجوهنا:

- لدي خبر.. لا أعرف تحديداً ما إن كان سيئاً لهذه الدرجة أم لا.. لقد تركنا الساعة الديجيتال التي تحسب أرقام المواليد تعمل، على الرغم من أن أجهزتها لم تعد تتلقى أي أرقام أو بيانات من المستشفيات، هذا ربما يكون غريباً، لكننا جعلنا واحداً من أكثر موظفينا وطنية، يقوم بزيادتها بمعدل مولود كل يوم، بعدما كانت تتزايد تلقائياً بمعدل مئتي مولود كل ساعة، لكن هذا منذ عشرين عاماً بعد الثورة بفترة، أعرف أن هذا غش وتدليس، لكننا مرغمون عليه، لمقاومة ما يصفه قادة البلد بالمحاولات الخبيثة لأعداء الوطن لإضعاف معنويات الشعب.

نظر إلينا في توتر بمجرد انتهائه من جملته، شعرنا أننا لم نفهم، بعضنا ارتسمت على ملامحه علامات الغباء، نظرات زائغة، بعضنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآخر قطّب جبينه، انتابتنا رجفة. شعرنا بها كلنا. كلنا نعرف الكارثة، ومع ذلك حينما نسمعها كل دقيقة، لا نستطيع أن نصمت خفق الخوف.

قالت زهرة:

- هل تعني أن عدّاد الديجتال، الذي أحصى مؤخراً ارتفاع عدد سكان البلد إلى 120 مليون نسمة، كاذب؟

تلعثم الرجل، رفع نظارته الطبية التي انزلقت مرتين إلى نهاية عظمة أنفه، ثم قال وهو ينظر إلى أعلى رؤوسنا مرسلاً نظرة شاردة إلى الفراغ:

- ربما يكون الفعل صحيحاً، لأن أعداد السكان تضاعفت فعلاً، حصلت فئات مختلفة من المهاجرين والوافدين إلى بلدنا على جنسيات، كان هذا منذ بضعة أعوام، قبل توقف المواليد. لكن الرقم خاطئ بالطبع.

بتر حديثه فجأة وهو يستردّ نظرته ليواجهنا بها قائلاً:

- لم نتلقَّ أيّ أرقام جديدة من مستشفيات الولادة، هل تعرفون ما يحدث حينما ينقطع الاتصال؟ تسمعون صافرة طويلة، أبدية، هذا ما حدث الآن، الأمر أشبه بانقطاع الاتصال، لن أقول إنه خلل ما أصاب خصوبة رجال البلد، فالعدوى تنتشر مثل السيول، مستشفيات الولادة المركزية ومراكز التوليد الخاصة عطبت كلّها، حينما يتوقف عالمنا عن استقبال الأطفال، الذين هم المدد، وحينما تتوقف أرقام تعدادنا عن الارتفاع، تشعر أن شيئاً ما ينسحب من أسفل قدميك، أو أن الأرض تدور بك. لم نستطع أن نواجه ما يحدث. ولا نعرف كيف نسمّيه. حاربنا الزيادة السكانية لسنين، لكننا الآن في عرض طفل واحد تنجدنا به السماء. وزارة الصحة رفعت تقريراً بذلك لجهاز سيادي، فأوصى الجهاز بالتكتّم على الأمر لحين مراجعة القيادة السياسية، والقيادة السياسية تراجع الأمر، أو لعلها لا تراجعه، المهم أننا لا نفصح عما يحدث في مستشفيات الولادة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحدّق فيه في رهبة، كأنه أعلن للتو موعد القيامة، قال عضو مجلس المرأة:

- الحقيقة إن القلق يسري في أجهزة الدولة فعلاً، الدولة لم تنم على أذنيها لحسن الحظ، مسؤولون عقدوا عدة اجتماعات وشكّلوا لجاناً، في مجلسنا أرسلنا مذكرة سرية لمجلس الوزراء، دعوناهم فيها لبحث الأمر، النساء اشتكين، كتبن في مذكرة المجلس، إن المدينة صارت مرتعاً للوباء، وإن هذا الأمر لن تحتمله النسوة اللاتي يمثّلن نصف المجتمع، بلد لا خصوبة فيها أهون على نسائها أن يجفّ النهر المالح، أو تصيبه الملوحة كاسمه، ولا تجفّ أنهار الرجال. الرجال فقدوا الخصوبة، لهذا صاروا وحوشاً في الشوارع، يتحرّشون بالعابرات والمارات، وهم يظنون أن العيب ليس في بناطيلهم. وعليه، طالبت مذكرة مجلس المرأة بتنفيذ إجراءات علاجية عاجلة لبحث الأمر، وإلا ستنفّذ السيدات تهديدهن.

صمت الرجل، فسألته زهرة في اهتمام:

- وما هو تهديد الستات؟ لم تخبرني إحداهن بأيّ شيء!

التفت إليها الرجل:

- لن أستطيع أن أمدّك بالمذكرة، هي سرّية، وإذا سرّبتها سيعرفون من سرّبها، في كل الأحوال كتبنا إن استطلاعات الرأي التي جسّت نبض نساء مناطق عديدة في العاصمة، نقلت أن السيدات في هذه المناطق يهدّدن بالهجرة، ترك البلد الذي يبدو أنه يموت من الجفاف، وعبور المحيط إلى بلاد أخرى غير معطوبة.

سكتنا مرة أخرى، فتنحنح أحد الرجال العشرة، الموظف بمجلس الوزراء، رفع كفّ يده على استحياء، أومأ إليه ذهني فقال الرجل:

- في مجلس الوزراء كما تعلمون، نرصد الظواهر السياسية والحراك الاجتماعي، التأييد للسلطة، المعارضة، التحرك في الشارع مع أو ضد، كما تعلمون، هذه مهامنا، نطلق في بعض الأحيان شائعات عن قرارات ندرسها، ونقيس مدى استجابة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشارع، قبولها من رفضها، ننشر أخباراً في الصحف التي تعمل معنا، ثم نعيد نفيها، ونؤكد أنها أخبار عارية عن الصحة، هي مهام كما تعلمون بعضها سرّي، والبعض الآخر ليس كذلك. منذ فترة، إحدى الإدارات بدأت تتلقى تقارير عن تحركات غريبة من نوعها، ليست تحركات سياسية، لكنها تحركات مضادة، لاستخدام السلطة المفرط لكلمات من عينة «الحب» و«الحضن» و«شحمة آذاننا» وغيرها من الكلمات التي انزلقت الكيانات السياسية في استخدامها في طفولية ومراهقة سياسية، ينبغي ألا أصفها هكذا، لكن هذه هي الحقيقة، لعلكم تتذكّرون حينما ظهرت قائمة سياسية تسمى «في حب المحيط»، رداً على هذه التحركات، تلقينا تقارير أن البعض يكتب عبارات على الحوائط، يهاجم أصحابها استخدامنا لكلمات الحب، منها مثلاً عبارة كتبها أحدهم على أحد الحيطان يقول فيها: «الحب سينتصر على الحكومة»، أو عبارة أخرى «لا تحبّوا خولاً»، وجدنا عبارة طريفة ثالثة أكثر مباشرة من العبارتين السابقتين، تقول: «البلد التي تبتذل الحب بلد مخصية»، كما وجدنا عبارة رابعة تقول: «الشعب الذي لا يجد الحب في بلده، سيبحث عنه في بلد آخر»، كانت هذه العبارة خطيرة في مدلولها. إذا اختفى الشعب سنفقد جميعاً وظائفنا، الوزراء ورئيس مجلس الوزراء، ومن هو أعلى منهم.

سكت الرجل برهة ليلتقط أنفاسه، كانت زهرة تكتب وراءه في سرعة، فيما كان ذهني يحكّ ذقنه النامية كعادته دائماً، ثم ضحك قائلاً:

- دا أكتر حاجة مخوّفاكم؟ أن تفقدوا وظايفكم إذا هجركم الناس؟

نظر إليه الموظف في استنكار:

- دا أشبه بأن تهجرك زوجتك، أو تترك حجرتك وتنام في سرير واحد تاني، متخيّل المصيبة؟ شعبنا هو مصدر وجودنا، وإذا لم نجد الشعب ذات صباح، فمن سنحكم؟ وفي من سنقرّر ونتحكّم؟ ثم إننا رفعنا تقريراً بما حدث لرئيس مختبر المعلومات، رفعه هو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى رئيس الوزراء، فاستدعاه إلى مكتبه، وبعد مناقشة، عاد رئيسنا -أقصد رئيس مختبر المعلومات- وطلب منا إعدام هذه التقارير. كاد في الحقيقة يعدمها بنفسه، نجح أحد زملائنا في تسريب هذه التقارير إلى الصحافة. نشرت ما جاء فيه نصاً، فاضطررنا أن نفعل ما نفعله دائماً، أولاً عوقب زميلي ونُقل للعمل بوظيفة إدارية في وزارة المناخ. أشعنا عنه أنه ينتمي لتنظيم متطرف، عقاب قاسٍ للغاية، ثم تدخّل جهاز سيادي ما، وفرم الطبعة الأولى من الصحيفة التي صدرت بالتقرير، وأزلناه تماماً في الطبعة الثانية. المهم، كان على ما يبدو المطلوب أن تدفن القصة تماماً، غُيّر رئيسنا، رئيس مختبر المعلومات، وبعد ذلك بشهر، غُيّر رئيس الوزراء كذلك. حينما جاء الرجل الجديد وبدأ تشكيل الحكومة، فوجئ أن أغلب من يشاورهم يرفض تحمّل المسؤولية، يومذاك أصدر تصريحه الشهير.. هل تتذكّرونه؟ قال: «فوجئت أن البلد يخلو من الحب!».

دقَّ ذهني على المائدة بقبضته قائلاً:

- مين ينساه؟

لمعت عينا الرجل، وواصل:

- خرج رؤساء الأحياء بتوجيهات حكومية سرية، يتحدّثون عن هؤلاء الذين يشوّهون الجدران، ويتهمونهم بنشر الكراهية، أحد المحافظين وصفهم بعصابة السباخ الأسود، كارهي الوطن، ومضى في خيالاته وحاول التجويد أكثر، قال المحافظ: الذين يكتبون على الحيطة «العالم يزداد قذارة والهواء يقلّ»، أقول لهم: أنتم حثالة هذا العالم، والهواء يقلّ لأنكم تزاحموننا في تنفّسه.

ضحك باقي العشرة، بتر مندوب رجل الأعمال ضحكاتنا، مبتسماً ابتسامة صفراء وهو يقول:

- الموضوع بائس يا جماعة، واللي بعتني مستعدّ يقف معكم لآخر مدى، في سبيل فضح هذه المصيبة، رئيسي، ممدوح بيك، كانت عنده معامل دوائية تصنع الترامادول، الترامادول مسكّن هائل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما تعرفون، عادي يعني، لا خطورة منه إلا بإدمانه، والحكومة كانت تصنعه في مصانعها الدوائية، ساءت سمعة الترامادول بعد الثورة، سنقول إن بعض رجال الأعمال المنافسين لممدوح بيك، ضغطوا على الحكومة لتشويه الترامادول، رجال الأعمال الذين يكرهون ممدوح بيك، هم الذين يساندون الحكومة الآن في الكذب على الناس، يهمّهم التعتيم على مصيبة انقطاع الشيء، ليواصلوا بيع الكيمياء والحبوب الزرقاء التي عبثت بالمعادلات في أجسام الناس. إذا عرف متعاطو المنشّطات الجنسية، أنه لا فائدة منها، سوف يصاب سوق العقاقير بالركود. هذا ما يخشونه.

اعتدل ذهني في مقعده، متحفّزاً، فيما قالت زهرة:

- الناس بتستخدم الحبوب الزرقاء لأن بعضهم يعاني من ضعف الانتصاب.

قاطعها الرجل في إصرار:

- الترامادول والحبوب الزرقاء لا تُحيي الميت، لكن تساعده على تطويل احتضاره، المتعة نسبية، اللي بيبسط الراجل، غير اللي بيبسط الست، سرعة القذف أكيد من الحاجات اللي بتعكنن على الراجل، عشان كدا بياخد لها الحبّاية الزرقاء، أو الترامادول، لكن مش بيساعدوا على تحسين الممارسة الجنسية في العموم.

قلت في خفوت، بينما صوتي يبدو متردّداً هامساً:

- لم أفهم الجزء المتعلّق بالمنافسة بين الترامادول والحبوب الزرقاء؟ لماذا ينحاز أصحاب صناعة العقاقير المنشّطة إلى صفّ الحكومة؟

قال أحد مديري المستشفيات:

- طبيعي. لأن أسباب قصر الانتصاب، وسرعة القذف انتهت، الآن الرجال يمارسون الجنس إلى ما لا نهاية. يمارسونه حتى الارتخاء. المعضلة فقط حينما يعاني أحدهم من سرعة القذف، هنا سيحتاج الحبّاية الزرقاء، لهذا من الطبيعي أن يحمي منتجو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المنشّطات الجنسية هذا البزنس الهائل.

تابع مندوب رجل الأعمال:

- لا أعرف ما خلفياتكم عن الصراع بين الترامادول والحباية الزرقاء، لكن كما قلت، الترامادول كان منتجاً حكومياً، وكان يباع في الصيدليات. إنه الترامادول يا أصدقاء، صديقنا، وصديقكم، وصديق كل الغلابة، في حلهم وترحالهم، هو الذي يجعلهم يتحمّلون كل هذه القذارة حولهم، وتلوّث الهواء، والمجاري الطافحة في الشوارع، والألواح الزجاجية التي تقتل أطفالهم في فصول المدرسة، أو البوابات الحديدية الصدئة التي تنهار على رؤوسهم بينما يغادرون بعد يوم دراسي طويل. الترامادول يمنح الناس القدرة على تحمّل حكوماتهم، والطغاة، والضرائب، والأسعار. جعلنا الترامادول أكثر قدرة على الجماع. وممارسة جنس سعيد، مع شركاء حياة لا نحبهم اختارتهم لنا مؤسسة كريهة، والحكومة لا تريدنا أن نكون سعداء. هل أعلنت الدولة الحرب على الترامادول من أجل صحتنا؟ هل تصدّقون حقاً أن الدولة تخاف علينا؟ أم تخاف منا؟

صمت الرجل وامتدت أصابعه نحو كوب الماء، شرب جرعة، ثم أكمل:

- فجأة.. انقلبت الدنيا، لا نعرف كيف حصل هذا، لكن المباني الكبيرة التي فيها شركات الأدوية، تخبئ أوساخاً وراء مكاتب أنيقة، الحرب التي خاضتها البلد على حبوب الترامادول لم تكن من أجل الحفاظ على صحة أهلها، بل من أجل رجال الأعمال الحيتان، الكبار، الذين يعملون في شركات الأدوية. هؤلاء هم من يحددون التشكيل الوزاري الجديد، هم من يختارون اسم وزير الصحة الذي سيجلس على المقعد، رجال الأعمال الذين نافسوا ممدوح بيه، يضعون أسماء كثيرة على جداول الرواتب شهرياً، ليضمنوا حرباً شعواء مستمرة على الترامادول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هي عارفة بتعمل إيه؟ بتسلّ منا ! إمبارح حسين المشرحجي .. وبكرة أنا وأنت ...

***

باتت القضية في القلوب. الكثير والكثير من الناس تقريباً باتوا يعرفوننا، ويعرفون منزلنا الصغير، في ضيعة الخواجة الأرمني، أبرزهم، هؤلاء الذين ظلّ ذهني يلتقيهم في لقاءات الشيخة شاهيناز السرية، بضريح سيدي العريان في باب الشمس. توقفت بطبيعة الحال عن الذهاب معه إلى هناك.

منذ أن عثرنا على «سين. عين» وهي لا تخبئ كرهها لي. كانت فكرة المشرحجي أن نخبّئه في بيتها، كلما ذهبت إلى رؤيته استقبلتني ببرودها المعهود، وتظل جاثمة على أنفاسنا خلال زيارتي له، بتنا نتوق إلى العودة لمنزله، هو اشتاق إلى سلاحفه، وأنا اشتقت إليه، كنا محاصرين تماماً بعيني شاهيناز ووجودها، طلبت منها ذات مرة أن تعدّ لي كوب شاي، فتعللت أن الشاي نفد، والماء مقطوع، وظلت تسلّط نظراتها الحادة علينا، وقبل مغادرتي المنزل، حدجتني بازدراء، ثم قالت:

- يا ريت ما تورّنيش وشك هنا تاني.. بيتي مش تكية.. ولا كازينو للغراميات يا حبيبتي!

تجاهلتها وأنا أكتم ضيقي، وأفكر في نقل «سين. عين»من منزلها إلى منزلنا. لكن هل سيرضى ذهني بهذه الفكرة؟ رماني «سين. عين» بإشفاق، وأطرق بنظراته. شعر بقلة الحيلة لا ريب، يعجز عن تصريف أمور حياته في محبسه الإجباري الذي وضعناه فيه مع هذه المرأة التي تنتمي إلى زمن آخر.

قبل الاعتصام بشهرين، طُرق باب شقتنا بعنف. أصابنا الهلع، واقشعرت أبداننا، كانت قوة غاشمة من العسس تريد اقتيادنا.

لم تكن هناك قوة قادرة على إطلاق سراحنا، ظللنا في الحبس شهرين، شهرين لم أُحصِ فيهما ساعات نومي، ولا أعرف ماذا جرى لذهني، كان يُحقِّق معي ليلاً نهاراً، حرماني من النوم كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هدف المحقّقين، وكانت الأسئلة التي أتلقاها دائماً نفسها: من الدولة التي تموّلكم لعمل هذه الاضطرابات في بلدنا؟ ما أرقام حساباتكم في البنوك؟ متى تلقّيتم آخر التحويلات عليها؟ لماذا ذهبت إلى ضريح في باب القمر؟ كم عدداً أصدرتم من المنشورات التي توزعونها؟ أين قائمة أسماء الإرهابيين الذين يعاونونكم في توزيع هذه المنشورات التحريضية على النظام؟ من هو جون الذي تعرّف عليكم؟ ومن أين جاء؟ وإلى أي بلد ينتمي؟

كنت أتلقّى الصفعات يومياً على وجهي، وأُعذّب. تمنّيت الموت، وأنا لا أجد الكلمات الصالحة للإجابة عن هذه الأسئلة، كنت أصرخ، وأجيبه إنني لا أعرف أي شيء، وإننا مجرّد زوجين، نبحث عن الإنجاب، أو عن السائل الذي انقطع.

لا أعرف كيف انقضت هذه الأيام. لكنها فجأة انتهت، جاء رجل ضخم، وجذبني من زنزانتي التي كنت أجوع فيها، وأبوّل وأتبرّز، لمدة شهرين. تركني في قاعة الاستجواب الخالية هذه المرة من الخمسة محققين الذين كانوا يحققون معي، ثم ذهب، وعاد بذهني، وزهرة. كنا جميعنا ممزّقي الملابس، متورّمي الوجوه، ونعرج من كثرة الضرب والتعذيب، بقينا وحدنا في القاعة، واختفى الرجل، بقينا وحدنا تنتابنا كلّ الهواجس، هل سيهدمون المبنى علينا؟ أم ستأتي فرقة إعدام بعد قليل؟ ماذا سيحدث؟

«دي البلد اللي عاوزانا نخلّف فيها ولاد!» قالها ذهني بانكسار. بكت زهرة. بكت ببطء أولاً، ثم بغضب شديد، ثم بدأت تشدّ شعرها، وتحاول أن تمزقه بكفوفها، أدركنا أنها عانت من شيء بغيض، وربما تعرضت لما هو أكثر من التعذيب، كنت أراقبها وأنا أخشى التدخّل، مشيت نحوها وحاولت أن أمنعها من شد شعرها، وأخذت أغمغم: «اهدي يا زهرة! اهدي! متعمليش في نفسك كدا!».

لكن هذا لم يمرّ بسلام.

تركونا نذهب، ففوجئنا بأسباب إطلاقهم سراحنا، كانت البلد قد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأضربت الكثيرات عن العمل، وتعطّلت مصالح حكومية، بل إنني سمعت أن النسوة أضربن عن مضاجعة أزواجهن، حتى ينضمّوا لهن في الميدان.

كانت الأخبار تدلس وتكذب على الاعتصام، وكاميرات التلفزيون مسلّطة على النهر المالح، والواضح أن ملوحة الكذب باتت غير مستساغة، وأن الناس كفّوا عن ابتلاعه، لهذا أطلقوا سراحنا، لكن هذه كانت آخر مرة تعاملوا فيها معنا برحمة، آنذاك تأكدوا أننا لسنا التنظيم الوحيد في البلد، ولسنا المتحكّمين في كل الخيوط، لسنا اللاعبين الأساسيين، وأن الأمر أكبر منا، أطلقوا سراحنا بعدما خرجت الأمور عن السيطرة تماماً، فلم نعد نشغلهم، بقدر ما صارت كارثة الاعتصام أكبر منا وتستحوذ على اهتماماتهم أكثر منا.

عرفنا أنه خلال فترة حبسنا، وقعت أشياء أدّت إلى اشتعال ثورة أخرى، تشبه الثورة التي كانت منذ عقدين، وإن لم تنتهِ بوأدها مثلها، فإذا نجا ديكتاتور من ثورة، وتمكّن من قتلها، ستأتي تلك التي تقضي عليه، لأن الغرور يمتطيه ويصوّر له شيطانه أنه قد ملك الأرض، وأطفأ الناس الذين يعيشون تحتها، فيمضي في طغيانه وبطشه، هكذا سمعنا عن خطف أطباء قسرياً بعدما أقسموا على الشهادة في أي قضية ترفعها النسوة أمام المحاكم لتصعيد قضية المرض، وسمعنا عن صحف وبرامج تلفزيونية طردت صحفيات حاولن نشر قصص عن توقف الولادة في البلد، وسمعنا عن حصول أجهزة سيادية على حصص في قنوات وصحف، مكّنتهم من تكميم الأفواه، ومنع نشر أي أخبار وتقارير تتحدّث عن الوباء، وحجبها وحظرها، وكذلك التي تتحدّث عن مطالب المعتصمات، التي باتت واضحة الآن: تجميد عمل مؤسسة المجتمع المستقيم، وقف إحصاء العُزّاب والمعارضين، إطلاق سراح العانسات الحبيسات في سجن العوانس وإعادة المنفيين من مزارع الصحراء.

تشكّلت جبهة الاعتصام، التي كنت أنا وذهني وحسين المشرحجي وزهرة الجبال ضمن أعضائها، وآخر المنضمّين إليها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد خروجنا، وانضمت إلينا ست نساء أخريات، عاملات في الملفّات الحقوقية، وشؤون المرأة، ومجالس الطفل المهجورة، وضعنا قائمة بعشرة قرارات، أولها الاعتراف الكامل بالوباء، ثانياً اتخاذ التدابير لعلاج الرجال من الوباء.

حدث ذلك قبل اندلاع الحرب بأشهر، نهايات عام 6259.

استمر الاعتصام شهراً، وسط مطالبات من جمعيات حقوقية ومدنية بتخفيف المطالب، وعدم الزجّ برئيس الجمهورية في المشهد. تطاولت الصحف علينا، ووصفتنا بالهائجات. خبراء البرامج الاستراتيجيين قالوا إننا مأجورات، ونتلقّى دعماً من مؤسسات ودول معادية تستهدف هدم بلد المحيط. قال آخرون إن النسوة المعتصمات عقيمات، ويئسن من عقمهن، وطالبوا ببناء مصحات نفسية لاحتجازنا. تواصلت فعاليات الاعتصام، وسط البرودة وندى الصباحات المرعبة.

خارج السواتر التي تحاصرنا، كانت شراسة التحفز للمعتصمات تتزايد في المقابل، كل من يُضبط وبحوزته كرتونة طعام، أو كرتونة مياه، يتلقى الصفعات والركلات الرهيبة، قبل أن يُرحّل إلى السجن، وتحاصر قوات العسس منزله، ويُحجز سائر أفراد عائلته، ويُشمّع باب منزله، كأنه منزل للساقطات.

حتى جاءت تلك الليلة، من شهر بابة الحزين، يقولون «إن جاء بابه ادخل وأغلق البوابة». أي بوابة كان بوسعنا غلقها تلك الليلة؟ كانت ليلة شديدة الحمرة من كثرة الدماء المسفوكة، غربت الشمس مبكراً، كما لو كانت متواطئة مع القتلة، وجاءت عربات ضخمة مزوّدة برافعات عملاقة، فتحت ممراً من السواتر الحجرية، وأزاحته لتفتح معبراً إلى الميدان، لأول مرة منذ شهر نرى الشارع من خلف الستار الحجري، إلا أن خفقات قلوبنا تسارعت، واستيقظنا وظللنا نتربّص الشر القادم، في تلك الليلة غاب ذهني والمشرحجي عن الاعتصام، ربما كانت المرة الأولى التي يغيبان فيها عنا، كنت أنا وزهرة الجبال واقفات عند مدخل الشارع الذي شهد إزالة جزء من الساتر الحجري، وقفنا متردّدات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومتحـفّزات، وخلفنا توافدت بعض النسوة، والحيرة تكتنفنا جميعاً، وبدأت همهمات، من أثر وجل القلوب.

قطـع الصـمت صوت رصاصة مدوية، أعقبتها صرخة بشعة، وتوالت صرخات، وانسكب الرصاص سكباً، أمطرت الدنيا جحيماً، وصرختُ، وصرخت زهرة، وسقطنا أرضاً بفعل الغريزة كأننا سنفرّ من الرصاص المنهمر الذي بدأ يقتلع الأسفلت كأنه وحش خفي، يحفر الأرض بأظافر من النحاس والقصدير، فسارعنا بالزحف السريع، وكشطت الأرض وجوهنا وصدورنا، وبدا واضحاً أنها ليلة حمراء، ليلة مقتلة سيشرب منها الأسفلت ويسكر، تراجعنا زحفاً، وأنا أتحسّس جيبي بحثاً عن التليفون، بينما زهرة تودّ لو تدفن جسدها البدين في حفرة، لتفادي الرصاص الذي استمر في كسح كل من يعترض طريقه.

وصـلنا بصعوبة إلى جدار، ووجوهنا ملطخة بدماء رفيقات تمزّقت أجسادهن. مرَّ القتلة من فتحة صنعوها في ساتر الجدار الذي أقامته مدرعات الخفراء حول الميدان. جاؤوا من جهة كوبري قصر القضاة، تراصّت النسوة في صفوف واحتمين بدروع من الصاج، لم تصمد أمام الرصاص الذي اشتدت شراسته. انقضت علينا من مدخل الكوبري الفسيح عربات تقلّ مقاتلين ملثّمين، يحملون مدافع دوّارة بشعة، لا تطلق رصاصاً، بل تصب وابلاً من النار على الأجساد. تناثرت الجثث المثقوبة، والدماء تتدفق منها بغزارة، وتتالت موجات وراء موجات من بحور الدم، أخفق الأسفلت في امتصاصها.

نجوت وزهرة بأعجوبة من المذبحة. كانت أيدينا عزلاء من أي سلاح يمكن أن نواجه به القتلة. صفوف النسوة المطالبات بالثأر تشكّلت بأقصى سرعة لتلبية الرغبات الغاضبة المشتعلة في الصدور. طُوردت مواكب الجنازات، وتعقّبت السلطة المشاركين فيها من ذوي المقتولات. تعاطف كبير نالته أسر الضحايا. حاربت الحكومة المتعاطفين، قبضوا على الآلاف، منعوا مواكب الجنازات، كانت أشهراً سيئة، وشديدة القتامة والعنف، امتدت في الفترة من بابة 6259، حتى مسرى العام نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت أعمال أخرى تجري في الخفاء، خنادق كانت تُحفر أسفل أحياء متطرفة وفقيرة. في البداية وقع اختيارنا على مسجد المنتصر قزمان لاتساع مساحته، وكبر حجمه، وموقعه المتميّز في قلب المدينة. سيطرنا عليه في هدوء، ومنعنا إقامة الصلاة من دون أي لفت للانتباه، وبدعاوى عديدة منها انهيار أحد أسواره، وتعرض حياة المصلين للخطر. فرق هائلة الأعداد من الأهالي والنساء والسيدات كانوا يحوّلون أركانه يومياً إلى مخازن للسلاح، وخنادق جاهزة للاختباء، وأنفاق وسراديب شديدة التعقيد تصلح للهرب، أو النفاذ منها إلى مواضع أخرى في منطقتي شارع المطاريد والمزهرية، معدات تنتقل إليه ليلاً، حافلات محمّلة بأسلحة مسروقة من أقسام الجنينة الدبلانة، ومنشية المطاريد، والصنايعية، تُشحن إلى المسجد، قنابل مسروقة عبر طرق ودروب مهجورة من وحدات وكتائب ميليشيات صحراوية كانت قد شاركت في تمرّد مسلّح منذ عقد من الزمان، وبعدما كفّت عن القتال تحوّلت إلى الاتجار في سلاحها.

تعرّفت في هذه الشهور على أمور لم أظن بوسعي التعرّف عليها. السهر ليالي طويلة لتأمين المنضمات والمنضمين إلى فريقنا، ترتيبهن، والحديث معهن عن الأمور والمخاطر التي تنتظرنا. ثم التأكد من ولائهن بجلسات استجواب طويلة، نستعرض خلالها معهن علاقتهن بالضحايا، ونتأكد من أنهن يرغبن فعلاً في الانتقام، ثم جاءت الخطوة التالية، خطوة السفر إلى الصحراء في رحلات مستترة من أجل التدريب على حمل السلاح، وإطلاق النار.

بدأنا الحرب بمطاردة بعض قادة الميليشيا، مرتزقة الفارما، نجحنا في اصطياد بعضهم. اغتيالات ناجحة، لكن هذا لم يكفِنا، كنا نرمي إلى ما هو أبعد، ما يشفي قلوبنا: الانتقام الكامل. نصف ثورة مقبرة، نصف ثأر جبانة كاملة. تكوّنت فرقة الاغتيالات من مجموعة من النسوة اللاتي درّبهن المشرحجي على التمويه والرماية، والقنص، والانسحاب تحت تغطية جيدة من زميلاتهن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللاتي يتدخّلن في الوقت المناسب لحمايتهن من أي تتبّع أو تجمهر قد يحدث من الأهالي أو جيران المطلوب.

تشوّهت عاصمة بلد المحيط، وهذا هو الخبر السيئ، أصابتها ضرباتنا في وجهها بجروح غائرة. من زمن طويل لم يأتِها طفلٌ، يمسح عنها كراهيتها لروحها. مقارّ الصحف انتقلت كلها إلى المنطقة الخضراء، الواقعة في مدينة سطح اللحم، خلف السياج الحجريّ الذي يرتفع كل يوم متراً جديداً، بدأت الحكومة في تشييده حينما انتشرت أعمال القتال في أرجاء العاصمة.

كان التلويح بتحالفنا مع بعض الدول العدوة يجري ليلاً ونهاراً في التلفزيون. لا أعبأ بما سيكتبه التاريخ عنا، ربما سيحمّلنا التاريخ مسؤولية إشعال هذه الحرب، هكذا يطمسنا كل من يكتبه وفق هواه، لكنهم سيحذفوننا من المناهج الدراسية، ويقولون إنه لم يكن هناك شخص يدعى «سين. عين»، وإنه لم يكن محل الصراع بين فاتنة شابة، وأخرى نصف عجوز ونصف شابة، وسينكرون أنني أنا الفاتنة. كنت صاحبة المضاجعة الأولى والأخيرة في حياته، لهذا جاء أهمية تقرير جون، سيكون الحكاية الموثقة الوحيدة الباقية على ما جرى، سأضطر الآن للكفّ عن الحكاية، بعدما سمعنا طلقات نار قادمة من ناحية قصر القضاة، سأذهب لأرى ما يحدث.

لم يكن من السهل أبداً لقاؤه، إنه قائد هذه الفصيلة السرية التي تقاتل إلى جوار النسوة، هو الكائن الهلامي الأبيض، الذي يشبه الشمعة، يكاد يكون شفّافاً، غير مرئي، ولكن لماذا امتنع عن الدخول إلى أرحام النساء، بدلاً من جرّ أهل المدينة إلى الصراع؟ العالم الآن يقف على أطراف أصابعه، ينتظر انتهاء الحرب في عاصمة بلد المحيط، ويأمل ألا تنتهي. أما هو، فاختار الخروج إلى الشوارع القاسية، بدلاً من تخصيب أرحام النساء. المدينة تبحث عن نطفة تجدّد شبابها، وتمنحها البعث، بينما النطف تترجّل وتسير في شوارعها. من سيصدّق هذا؟

ظهرت الكائنات الشفافة مسلّحة جنباً إلى جانب النسوة اللاتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قـرّرن خـوض الحـرب. فـي كـل أنحـاء الشـوارع التـي تشـهد قتـالاً أهلياً شرساً، تطوف هذه الكائنات وتقاتل خفية بجانب صفوف النسوة. تسير في الشوارع، وتشرب الشاي على مقاهي البلد، ولا تراها العيون العادية.

المصـادفة وحـدها، قـادتني إلـى لقائـه، عـرّف نفسـه باسـم مشـفّر: «شاكر»، قال إنه يفضّل هذا الاسم، لأنه وجده متوائماً مع أهل البلد. الشعبيون منهم يتسمّون به.

يتدخّل كما يحلو له في خط سير هذا التقرير، يحكي ما يشاء وقتما يشاء. هو في النهاية كائن شفاف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«شاكر»، الكائن الشفّاف الرقراق سرّ هذه الحرب، وسبب تعاسة البشر

(1)

أنا لا أعرف كيف حدث ذلك، لكن ليس من الطبيعي لمن هم مثلي، أن يجلسوا على مقعد خشبي، في مقهى بلدي، أو يأكلوا الفول بالزيت الحارّ على عربية فول في السيدة وردة. أعني كيف خرجت إلى الشوارع، وصرت شريداً؟ كل ما أعرفه أنني كنت أسبح في مسالك دافئة، مليئة بالسوائل، ومظلمة، ثم فجأة قذفني أحدهم، كان يرتعش أمام شاشة «لاب توب». السبب في ذلك غالباً شيء كان يشاهده.

في النهاية وجدت نفسي مع رفاقي نرقد على سجادة رديئة، سبقنا إليها رفاقنا، وقد رقدوا صرعى في مشهد يشبه حديقة المباهج الأرضية لأحد الفنانين الأوروبيين القدماء، الذي كان مولعاً برسم مشاهد النعيم والجحيم، بألوان غامقة، ورسومات مبتورة، وعجيبة. وجدت رفاقنا الذين سبقونا إلى السجادة القذرة، تحوّلوا الآن إلى جثث لزجة، تشبه فتات الصلصال المبعثر، من الإعجاز أن يراها أشباه هذا الشخص الذي قذفنا خارج جسده، لكننا نستطيع أن نرى جيداً جثث أشقائنا، هكذا دائماً لا يتعرّف القتلة على ضحاياهم. لكننا أقارب هؤلاء الضحايا، أحبابهم، أشقاؤهم، نستطيع أن نراهم ونشعر بأوجاعهم، نعيش معاً في الدروب الدافئة، السائلة، وننعم معاً بلذّة اللهو، حينما نتسابق نحو بويضة، ونعرف أن السباق ليس سهلاً، وأن بعضنا يموت دهساً بالأقدام، أسفل الأقوياء منا، هذه ضريبة عالم النطف، ونحن نعرف أن القوي يدهس الضعيف، في عالمنا، أو في عالم البشر.

كففنا منذ زمن عن المجيء كلّما استدعانا البشر، هالني مشهد أشقائنا المتناثرين على السجادة، إنها مذبحة لا تُغتفر، قرّرنا أن نأثر، ولا توجد وسيلة للثأر سوى أن نذيق هؤلاء الناس عذابنا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحرمهم منا أولاً. نحن أسباب وجودهم في الحياة، ومع ذلك يهدروننا بهذا الشكل في الهواء، يقتلوننا بالتخلص من الكميات الزائدة عن حاجتهم للتزاوج، أو ينثروننا فوق أجساد بعضهم بعضاً، أو يضعوننا في قوارير زجاجية، ويحبسوننا في ثلاجات باردة، ليجمّدونا، كي يعيدوا حَقْننا في أجساد أخرى. يُجرون علينا آلاف التجارب. حقنوا بعضنا في أجساد قردة، حاولوا إجبارنا على تلقيح بويضة جاموسة. لا يكفّون عن العبث بنا. جاء وقت الانتقام، وأول من سننتقم منه هذا الشخص المنفعل بشكل يومي، قرّرنا تجميع المتبقي منا على قيد الحياة، أسفل الشاشة التي يشاهد منها الأشياء التي تجعله يطرحنا خارج جسده، اتفقنا على تجميع أنفسنا في صفوف.

حينما غادرنا جسد البشري المنفعل، الذي تصبّب عرقاً، وخلد إلى النوم العميق، شعرنا بالتيه، وبالحرارة الشديدة. لكن رغبتنا في الحياة جعلتنا نقاوم الموت من اللهب المنتشر في الأجواء، والجراثيم المتطايرة حولنا. قاومنا أن ينتهي مصيرنا إلى مآل زملائنا الذين سبقونا. قررنا أن نحيا، تسللت أولاً إلى دولاب الكائن البشري الذي قذفنا. رفاقي يقفون على سجادته ينتظرون مني الإشارة، مثلما يحدث في الأرحام، كان على الأذكى والأقوى أن يسبق الملايين من رفاقه، كان عددنا ثلاثة ملايين، ربما كنا أكثر من تعداد سكان بلد المحيط، لكننا نشعر بالحرارة اللاهبة، لا تتحمّل أجسادنا الملساء رطوبة الجو، أو حرارته، ظللنا عراة، حتى عثرت في دواليب الكائن البشري العجيب على ما يستر ملامحنا التي لا تحوي عيوناً، وتغطي أجسادنا التي لا تحوي أطرافاً، وتتدلى على سواعدنا التي لا تحوي أصابع، وتغطي ساقينا التي لا تحوي أقداماً، فقط أجساد شفافة تشبه الإبرة، ورؤوس مستديرة تشبه نقطة الجيلي المتبقية في قعر الكأس، أو الملتصقة على الملعقة. كان الشخص الغريب غنياً، يحوي دولابه العديد من الملابس التي يغطي بها جلده، طبيعة الكائنات البشرية تجعلها تلجأ إلى كساء جلدها بأقمشة، فالإنسان كئيب وقميء، ولم يعد طاهراً، بعدما دنّس هيئته الإلهية الأبية، في تعبّده لأشياء قذرة، أما نحن، الكائنات التي تحمل في شوكتها سرّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحياة، فطمسنا الخالق، ودفننا داخل جسد هذا الإنسان القبيح، وجاءت فرصتنا الآن للتحرر والخروج، لكن يجب أن نرتدي ملابس، حتى نشبه البشر، ونتحمّل أجواءهم الخانقة، وكي يتسنّى لنا الانتقام.

حينما جئنا إلى هذه المدينة، وجدناهم يبتنون سياجاً قبيحاً. ليس لدينا أي خلفيات تاريخية عما يحدث، لكن الأمر كان واضحاً، نساء كثيرات يعملن في بناء السياج رغم أنوفهن، كان واضحاً أنهن أسيرات، مسخّرات لأداء هذا العمل الشاق، يحملن قوالب الطوب ويواصلن العمل فيه ليل ونهار، من دون راحة، أو وجبة طعام. من تسقط منهن، تُدهس بأقدام الحرس، أو تُقتل فوراً بطلقة من مدافع الجنود المشهرة. شارك في العمل أيضاً عمال يتبعون شركات مقاولات حكومية، وأشرف على البناء مرتزقة يتبعون شركة أدوية يسمونها «الفارما».

قطعوا بالسياج أوصال المدينة، أما نحن الكائنات الشفافة فنتنقل ببساطة، لا نحتاج إلى مواصلات، نطير، أو نزحف. سأصف لكم في ما بعد الشوارع التي يمر فيها السياج، المهم أنه يحمي أحياء يسميها أهلها مدينة سطح اللحم، والكرماء، يفصلها عن المدينة القديمة، سواء المدينة الغايصة، أو حي السيدة وردة، أو تلك الأحياء المتاخمة للنهر المالح. انتقلت إلى الناحية الأخرى من السياج، مقارّ مؤسسات دينية، يخرج منها رجال يرتدون عمائم وقلنسوات، يسمّونهم شيوخاً وقساوسة.

لم نختبر بعدُ الأسماء، لكن ببساطة، ما أمكنني معرفته، أن المؤسسات الدينية هجرت العاصمة القديمة. هجر رجال الدين المناطق التي شغلوها لسنوات وقدّموا لأهلها الوعظ، واختاروا الانحياز لصفوف القادة الذين يوفّرون لهم الموائد العامرة.

(2)

لم يعرف أحد سواي كيف ينتقم مرتزقة «الفارما» من النسوة اللاتي يسقطن أسرى في قبضتهم! أنا من اطّلع على كل شيء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في زمنٍ أمّموا فيه اختراع الإنسان المسمّى بالصحف، وقطعوا فيه بثّ اختراعه الآخر المسمّى بالإنترنت. لم يعد بوسع أحد أن يعرف الممارسات التي أخافتني أنا الكائن الشفاف، الذي جاء إلى دنياهم من دون ملابس. لا أجد وصفاً لما يفعله هؤلاء المرتزقة بحق النسوة. لا، إنه ليس مجرد تجريدهن من ملابسهن، وإجبارهن على السير عاريات في الشوارع المزدحمة في صفوف طويلة مقيّدات المعاصم، ثم اغتصابهن في حفلات جنس جماعي بين الضباط الجوعى المنهكين من حرب الشوارع.

بعض هؤلاء المرتزقة يتلذّذون بقطع حلمات النسوة. تماماً كما قرأتم، قطعها، وجمعها في أكياس، تتجمّع الحلمات وتتعفّن في الأكياس النايلون. ويتباهى الأوغاد بعدد الحلمات في نهاية كلّ معركة، أو مواجهة، بينما النسوة الممزقات الأثداء، يُطلقن في النهاية، ليعدن بدمائهن النازفة، وبعضهن يمتن في الطرقات من العذاب والمهانة، قبل أن يمتن من نزف الدم.

نحن الكائنات الشفافة التي طمسها خالقنا، وجعلنا منزوين داخل أجساد البشر، نتعجب من هذه البشاعات التي يرتكبونها. كيف انحطّ بني آدم إلى قاع المجاري الطافحة، وصار نسله أحطّ من الحيوانات المفترسة في سلوكها مع بعضها بعضاً، بل ربما هي أرحم بفرائسها منه؟!

لا نعرف معنى كلمة «حرب»، ربما هي تشبه السباق الذي نخوضه في طريقنا إلى بويضة، لكننا شهدنا وقائع أشدّ أسىً، حينما اشتدت وتيرة المواجهات العسكرية خلال عامي الحرب، كانت قوات النسوة قد تضخّمت، وصارت كتائب كاملة تشكّل خطراً حقيقياً على العاصمة. استدعى ذلك أن تستخدم ميليشيا الفارما البلدوزرات العملاقة المخصصة لإزالة السواتر الحجرية ورفعها لبناء سدٍّ من الأحجار هائلة الحجم بين محطتي السواقي والمبخراتية في مدينة سطح اللحم.

طوّقت حاملات الخفراء العسكرية المنطقة، ومنعت الخطو، أو التنفس، أغلقت المساجد والكنائس، حاولت مجموعات نسائية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاصة التسلل إلى حي الكرماء، وقد نجحت في مباغتة قوات مرتزقة الفارما من الخلف. التفافة كانت معقدة، سلكن طريقاً طويلاً من منطقة الترعة الصوفية، وهناك ساعدهم الأهالي الذين حملوا ثأراً عميقاً مدفوناً منذ أيام الثورة.

ربما وقتئذٍ كنا قد قرّرنا مساندة النسوة في حربهن ضد هؤلاء المدججين بالسلاح الثقيل والعتاد الهائل، في إحدى المعارك صنعنا غباراً كثيفاً، نفخنا في النيران المشتعلة في المجنزرات لنطفئها. استطعنا أن نسخّر كتل السحب لتكون في أيدينا مثل القطن، ونثرناها بين الفرق المتقاتلة، فصار السحاب كالضباب، خيّم على جموع الخفراء المتعطشة لدماء النسوة. أحطنا المرتزقة بغمامات بيضاء كثيفة، عجزوا عن رؤية بعضهم بعضاً. البعض يعزو الانتصار المحدود لميليشيات النساء في معركة القصور الرئاسية، إلى صعوبة حركة الدبابات في الشوارع المسفلتة.

الحرب في الحقيقة كحلية. تمتزج فيها لون الدماء المسفوكة، ورماد البيوت المحترقة، يتكوّن اللون الكحلي من امتزاج اللونين القاتمين، تترك الحرب ندوباً مملحة في قلوب أحباء هؤلاء الذين أُجبروا على خوضها، ثم لم يعودوا منها. تتهدّم منازل، تضيع ذكريات أسفل أنقاضها، تتشتّت أسر، تُمحى شوارع ومناطق، ويفقد الناس فرصة لقاءات آمنة، لكن الكلّ يذهب إليها، ويتحدّث عنها، يتداولون قصص البطولات، يحكون عن المآسي، ويغلّفونها بضحكة.

أما نحن الكائنات الشفافة، فلا ذكريات لنا، ولا أسرة نعبأ بوجودها ونخاف على فقد أحد أعضائها، لا نسكن في الشوارع، ولا نأسى لتدميرها، الحرب عندنا مثل السلام. لا نُدوب مملّحة في قلوبنا، لأنه ربما ليس لدينا من نحقد عليه.

لا يمكن أن نتعامل مع ما يرد في هذا التقرير بهذه الخفّة التي يتعامل بها هذا الكائن الشفاف الذي يسمي نفسه شاكر، فهو يستبق الأحداث، ويحرق علينا حكايات كان ينبغي أن يحكيها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أبطال التقرير الرئيسيون في ميعادها، لذا قطعت عليه الحكي. هو يظن نفسه حراً من كل القيود.

هنا سأبدأ عرض إفادة جديدة. ذهني إفادته -على الرغم من قصرها- متشابكة، ومعقدة، ربما كشفت بعضاً منها زوجته ياسمين. تضمّنت تفاصيل إفادته: واقعة اقتحام بيته، وتعرّفه على المشرحجي، الشخص غريب الأطوار، الذي يفهم في خارطة الأجساد، وأين ينبغي أن تضرب من دون أن تقتل، ربما سيحكي ذهني اكتشافه علاقة «سين. عين» بزوجته ياسمين، رغم ما يغلّف هذا الأمر من حرج.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيخ ذهني الهندي: قائد ميليشيا الأمازونيات، داعك المصباح وأول من التقى جني سليمان

(1)

لا أستطيع لوم ياسمين على خيانتها لي، ولا أستطيع أن ألوم شاهيناز على تسليمها لنا، واحداً تلو الآخر. خسرنا كل شيء بسبب فتنة الرجل الذي تربّع على عرش الخصوبة، حتى هو خسر حريته دون أن يعرف ذنبه.

قبل الهزيمة التي مُنينا بها، كنت قد تعرفت على شاهيناز، فتاة ميدان الخضراء، العجوز الفاتنة، التي تحوّلت رويداً رويداً إلى امرأة معتمة، يكرهها الناس، وتكره الناس، لعقود من الزمن، تتوارى عن أعينهم، وهي تبيع لهم نهاراً مستلزمات الدفن، وفي الليل تتحوّل إلى خادمة ضريح. لم أتخيّل أبداً أن تصير هذه السيدة لعنتنا، التي تحرق كل شيء في النهاية.

كان ما أصابنا شيء غريب، جلب كل الغرائب، كأنها بكرة خيط تكر خيوطها، من يصدّق أن هناك امرأة معمرة تجاوز عمرها المئة عام لكنها لم تزل فاتنة كأنها ابنة عشرين؟ ومن يصدّق أن يختفي الأطفال من البلد، كأن لعنة أصابتها؟ ومن يصدّق أن نعثر، وسط كل هذا، على رجل لم ينضب مخزونه، ولم يصبه العطب؟

بات هو أملنا لتلقيح النساء، وإنجاب الأطفال للبلد مرة أخرى، لكن بشرط، أن ننتصر في هذه الحرب، ولمّا كنا واثقين أنه لا يمكن أن يقع شيء بينه وبين شاهيناز، لكبر سنها، وبالتأكيد لأنها صارت جدباء، نقلناه إلى منزلها، في باب الشمس.

كانت عملية انتشاله من منزله في عين الشوق خاطفة، وسجّلت أول انتصاراتنا في مواجهة مرتزقة «الفارما» الذين حاصروا المنطقة للظفر به. فتشوا بيوتاً عديدة، فتحوا دواليب ملابس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النساء الداخلية. تشتّتت قواهم مما أعطانا الفرصة لننتزع الرجل ونهرب به.

في أثناء حصار بيته، اضطررنا إلى أشياء لم نرغب في ارتكابها، ضربنا محطة مترو عين الشوق بالقنابل لنلهي قوات المرتزقة عنا. لم تتسبّب فعلتنا في إيذاء كثر، أعترف أن بعض الأبرياء تعرضوا للموت والبعض الآخر أصيب بعاهات مستديمة، والبعض الثالث تحوّل إلى وحش كاسر يقتل ويفتك بالآخرين. دمرتنا الحرب، وهي لا تفعل أيّ شيء آخر غير هذا.

أتحمّل مسؤولية كل الضحايا، ولكن بماذا يفيد هذا الاعتراف الآن؟

القاطنات في حي «سين. عين» سارعن وصنعن حولنا دروعاً بشرية. صرن علامة على موقعه، فأمرتهن بالتفرّق، ثم قدت الرجل بعدما ألبسته عباءة، وباروكة شعر، ودهنت وجهه بمساحيق وأظافره بالمونيكير، هكذا تعلّمت من المشرحجي -القائد العسكري الخفي، وجندي هذه المعركة المجهول- كيف أخدع المرتزقة.

قُبض علينا مرتين، قبل الاعتصام، وبعده. كنت قد توقعت مجيئهم، وحينما اقتحموا منزلي بعد فض اعتصام النساء، كانت هذه هي البداية الفعلية للحرب، لكنني لم أكن أعرف ذلك وقتذاك، أحدهم أبلغ عنا. أو ربما لمحوا ياسمين بين المعتصمات الناجيات. لا أعرف كيف توصلوا إلينا.

في ذلك اليوم البارد الممطر طرق بابنا ضابط من جهاز أمن العسس، هكذا يجلب المطر الوحل والأوغاد، وقتذاك شعرت أنني محظوظ لخلو الشقة من أي شخص من الموبوئين. لم ننظّم أي اجتماعات في ذلك اليوم، أردنا أن نكف قليلاً، فزارنا الذي كنت أظنه ضابطاً. كان الرجل بديناً، ويرتدي بنطلوناً واسعاً للغاية، وتي شيرت بالكاد يحتوي كرشه الضخم، وقف أمام بابنا، وقال: «أنا جيت في وقت غير مناسب؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يكن وحيداً، كان بصحبته مجموعة من الرجال ظننتهم قوة أمنية خاصة. كانوا جميعاً يرتدون معاطف سوداء ثقيلة، كأنه يونيفورم جديد للمخبرين. لأول مرة أشعر بالفزع، مجموعة من الأغراب يقتحمون بيتي، حقاً كان ذلك إعلان حرب، صحت متوتراً: «أنتو مين وعاوزين مننا إيه؟».

اندفع أفراد القوة نحوي، وصفعني أحدهم على وجهي، فسقطت على الأرض، وأخذ جسدي يرتجف في عنف من الخوف والعصبية، وقبض أحدهم على ياسمين، ودفعها في قسوة، فهبت صارخاً: «ابعدوا عنا يا ولاد الكلب!».

فقال الضابط البدين مبتسماً:

- لازم تحمد ربك.. لأن ولاد الكلب دول ممكن يقتلوكم.. ويحطوا جنبكم بندقيتين وقنبلتين ونحرر محضر تصفية أفراد خلية إرهابية، بس إحنا قلنا نشوف إيه حكايتكم الأول.

هكذا كنا نجلس بعد ذلك بساعتين في حجرة بمبنى لست متأكداً من تبعيته لأي جهاز، ظننته في البداية يتبع جهاز العسس الداخلي. كانت الحجرة التي وضعوني فيها أنا وياسمين بيضاء تماماً من غير سوء، حجرة تخلو من الأثاث، جلسنا على الأرض، نتأمل حيطانها البيضاء، قلت ساخراً: «أبيض كثير ووفير».

قلتها بعصبية، كنت مرعوباً بالطبع، أول مرة يقبض عليّ بهذا الشكل، لم أجرّب من قبل هذه الأحاسيس المرعبة، رعب أن يقتادني الأمن من بيتي أنا وزوجتي، ثم ننزل معهم لنجد في انتظارنا عربة سوداء فارهة، بدلاً من سيارة الترحيلات القاتمة، نستقلها بينما نرتجف من المجهول الذي ينتظرنا، نعيش الآن القصص التي كنا نقرؤها في صفحات الجرائد عن وقائع الاختفاء القسري التي سادت البلاد بعد سنوات من الثورة.

(2)

سأقول ما لن يصدّقه جون، وما لم أجرؤ على قوله في أولى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنوات الحرب. ليس بوسع ميليشيا أبداً أن تهدم بلداً، حتى لو كـان علـى رأسـها ديكتـاتور، الميليشـيا سـتذهب إلـى الجحـيم، وسيبقى الديكتاتور منتصراً، وسيكتب تاريخ انتصاره، ويحكي حكاياته لأحفاده، وستصوّره المناهج الدراسية على أنه المنقذ، مثل المنقذ قزمان.

الاغتيـالات الناجحـة تطـوّرت إلـى مواجـهات شـوارع بعـد ذلـك بعـامين. صـبيحة الثلاثـاء 25 هـاتور عـام 6260، بـدأ أول هجـوم بزجاجات المولوتوف على ثكنات ميليشيا «الفارما» في مدينة سطح اللحم.

كان هجوماً عبثياً، وانتحارياً، أكثر من كونه شجاعاً. لكنه كان مخططـاً، ومدروسـاً. القـوة التـي كـانت تـؤمن الثكنـة، استهانت بـالزجاجات المتطـايرة علـى رؤوسـهم، وظنـوا أن التصـدي لـها محسوم، خرجوا مستهزئين، ووقفوا من دون سواتر، يتصدّون ببلاهـة منقطعـة النظير للبنات اللواتي جاء دورهن فـي توجيـه الطعنة في الرقبة.

كنـا نعـرف أن هذه الميليشيا تحصل على إمدادات السلاح من وسطاء فاسدين يؤمنون لهم الذخيرة والمتاع والبنادق والمدافع وكذلك الأسلحة الثقيلة، لم نكن نعرف نوع الكنوز التي تنتظرنا داخـل الثكنـات، الواقعـة فـي معسكر «سطح اللحم». حينما برز المرتزقة مستخفين بالبنات، تطايرت على رؤوسهم دانات «الآر بي جي» البدائية.

تحمّل وجهي كل مخاوفي، وانفعالاتي، وقلق ورعب الليالي التي حُرمت فيها من النوم، فانطبعت على أخاديده سنوات عمر غير سنّي الحقيقي وانتشـرت صـورة لـي بـدا فيـها وجـهي متقلص الملامـح فـي أرجـاء تلفزيونـات العاصـمة وعبـارة أسفلها: «عـدو الدولة الأول، الإرهابي الشيخ ذهني الهندي».

وضعوا قبل اسمي «الشيخ» كي يُكذّبوا سبب الحرب الحقيقي، لم تكن حرباً مع الإرهاب، وسائل الإعلام الغربية كانت تلقّبني بقائد ميليشيا الأمازونيات، الرجل الذي يحضّهن على التمرد، ويدفعهن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى الانفصال عن الدولة من أجل تفشي وباء نفاد الخصوبة، وفي الداخل وسائل الإعلام الكاذبة الموالية للديكتاتور تصفني بالإرهابي، الذي يرغب في نشر الأفكار المتطرفة وزعزعة الاستقرار، والانفصال عن بلد المحيط بإقامة دولة الإمارة في الصحراء. بالطبع لم يكن اسمي ذهني الهندي، كان هذا اختراعاً من الحكومة لتشويهي وجعل مطاردتي مثيرة، لكن الصورة كانت لي. لم أكن محترفاً مثل «المشرحجي» الذي نجح طوال فترة الحرب في إخفاء صورته، فظلّ مطارداً من الجميع، من دون أن يعرفوا هيئته، وظلّ قادراً على اختراق أعتى أجهزة الميليشيا المخابراتية، والخروج منها بمعلومات هائلة، وتسريبات مخيفة. ألحق بهم خسائر عديدة. لكنه سقط في قبضتهم بالمصادفة البحتة، أو ما كنّا نظنّه مصادفة، حتى فوجئنا جميعاً أن شاهيناز هي التي تُسقطنا واحداً تلو الآخر.

(3)

تقف شاهيناز أمامي، وقد ضمنت السيطرة الكاملة على «سين. عين»، الذي يقبع في بيتها منذ شهور. لم نعد ندري ماذا نفعل به، الحرب مستمرة، وصارت خلية سرطانية، تنقسم آلاف الانقسامات، جبهات عديدة نقاتل فيها، أحياء عديدة انفرطت منا، ولم نعد قادرين على أن نركّز قوانا فيها وسيطرتنا عليها. وقوى عديدة بدأت تتشكّل، وتتسلّح. فوضى عارمة. والمرأة الفاتنة العجوز، تهيم بالرجل المحبوس في بيتها، وتبدو كأنها تبحث لها عن مستقبل معه، لكنها عاقر. بالتأكيد عاقر، لقد تخطّت المئة، سرق كاتب التقرير بطاقتها الشخصية القديمة المهترئة، تاريخ ميلادها يرجع إلى عام 6159، أي إنها اليوم تبلغ من العمر مئة وثلاث سنوات، لا تعني ملامحها الصبوح قدرتها على إخصاب البلد، فهي لعنة من لعناته، ولا يمكن أن تصير فجأة مصدراً للولادة والتجدّد، ولن يتسع رحمها لإنجاب الجيل الجديد من الأطفال الذين يعمرون بلد المحيط في فترة ما بعد الحرب.

هل يعني هذا أنك تسمح لزوجتك بأن تضاجع الرجل؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طرق رأسي السؤال، وظللت أحدّق في «شاهيناز» بنظرة من يحاول المقاومة والتحدي. شعرت بثقل كأني أحمله على كتفي، لم تتكلّم شاهيناز، ولم تعد ياسمين بعد، لعلّ معركة ميدان ترعة النهر الحافي لم تبدأ أصلاً، الآن بتنا نخوض حربين، حرب في الخارج، مع هؤلاء الذين يرفضون أن تتجدّد خصوبتنا، وحرب هنا، داخل هذه الحجرة، بين امرأتين.

(4)

حينما انهارت العملة، وتوقفت الأفواج السياحية عن المجيء، فقدت عملي. عشت فترات صعبة وأنا أبحث عن عمل، انعكست على علاقتي بياسمين، لكنها تحمّلتها بصبر وحب. بعد أشهر من الذلّ والجوع نفدت مدّخراتنا، بعنا ذهب ياسمين، ثم بدأنا ببيع أثاث المنزل.

ذات يوم كنت عائداً من السوق بعد أن بعت الحلّة الداخلية (الاستنلس) للسخّان، واشتريت بثمنها فرخة، وهناك وجدت فرصة للعمل بعد سنتين من الانتظار. في محل الجزارة التي تملكه الست «أم دينا»، عملت قيّماً على الدفاتر ومسؤولاً عن مرتبات العمال. وهناك تعرّفت على المشرحجي، هذا هو اسم شهرته، أما اسمه الحقيقي فكان «حسين». كان الرجل يشرف على الذبح في المذبح، وهو ذراع المعلّمة الست أم دينا اليمنى وعصاها التي تتوكأ عليها. ولها فيه مآرب أخرى، يستخدم جسده الطويل الممشوق، وهيئته الصارمة الباردة، في التأثير على مفتشي الصحة. يتصدى لهم إذا رغبوا في التدقيق والتفتيش على الذبائح والبهائم في الثلاجات، ينجح في صرفهم بكياسة، وبرود، من دون إثارة لغط أو شبهات عمّا في الثلاجات، وكان نافذاً، متسلّطاً، وله نظرات مخيفة، كان واضحاً عليه أنه أتى من دولاب الدولة، من أقصى دهاليزها سرية وغموضاً، وهو ما تبيّن لي لاحقاً، فقد كان ضابطاً، وأحيل للتقاعد بعد خلاف مع مرؤوسيه.

عملي كان يتطلب أن أكون مع حسين المشرحجي بينما يسلّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القطع المذبوحة للجزّارين الصغار، وأن أدوّن أعدادها، وتوقيتات خروجها ودخولها، وهكذا. يبدو أنها وظيفة سهلة، لكنها لم تكن كذلك، بل كانت مهلكة. تزيل غطرستك على الخلق تدريجياً، تخلع عن روحك التعالي، بينما ترى فقراء مطحونين يسعون لشراء الجلود لبيعها والتكسّب بها، أو السعي وراء قطع سمين ودهن. كنت يومياً أتخلّص من أدران روحي، وأفتح الباب لِذاتٍ أخرى تتسلل إليّ، بينما أجلس مع المشرحجي، وأتنفّس دخان سجائره، وأتعلّم مفردات لغته، وكلماتها، يقول المشرحجي: «ريحة اللحمة هي اللي بتبني بدنك، حتي لو مكلتهاش.. مزاجك، وطريقة تفكيرك، بتشكّله حاسة الشم. الريحة.. مشكلة الأجيال الجديدة إنها متعرفش الريحة الأصلية للحمة، الموضوع مش حتة حمراء، الموضوع في البهيمة.. البهيمة اللي بتتولد على أيامهم الغبراء وبتيجي على البلد اللي ملهاش منافس، غير البهايم اللي كانت بتتربى زمان، بهايم حية، بترعى في خضرة، مش في مقالب زبالة، أو في رملة الصحراء اللي محوطانا.. دا سبب برضه لقلة الخصوبة، أو لعقم الناس».

لا أعرف مدى دقة طرحه، وكيف استقاه، لكن تبيّن لي في ما بعد أن المشرحجي كان على صواب في ما يتعلّق بالرائحة، وكنت مخطئاً في ظنوني أن ما يقوله مجرد كلام مهاويس مغرمين بتناول اللحوم. حينما اكتشفنا سريان الجفاف، لم يكن يبدو على المشرحجي أي أسى، كان يبدو أنه اكتشف المأساة مبكراً، لكنه تجاهلها، أو آثر الاستسلام. يزاول حياته في محل الجزارة بطريقة عادية، كأنه لا يوجد حدث جلل في البلاد يستدعي الخوف، أو التأخر صباحاً عن العمل. ذات يوم سألته عن رأيه في الموضوع: «شكلك معندكش خبر.. الناس بطلت خلفة العيال».

ظلّ صامتاً، ونحّى رأسه بعيداً عني، أومأ أولاً إيماءه خفيّة كأنه يحتجّ، ثم أرسل نظراتٍ ساهيةً بعيدة إلى مدخل المحل الخاوي، تنطلق أدخنة سيجارته، لتشكّل فوقه ضباباً، ثم تمتم بخفوتٍ قاسٍ:

بص.. أنا جزّار صحيح، لكنّي بفهم فى المشاعر والإنسانيات..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مش هكون غشيم زيّك وأقول كلمة زيّ «بطّلت خلفة العيال».. إحنا ولاد بلد، لكن دا سر ولاد البلد.. ما يصحش تفشي السر.. دي حاجة بتحصل في أوض نومنا، ولازم نحترمها، ونوصفها التوصيف الصحيح، أنا جزّار آه، لكن عندي رأي في الإنسانيات زي ما قلت لك، أنتو عاوزين ولاد؟ بجد؟ عشان تتعسوهم زي ما أنتو تعساء؟ بص يا حلو.. احنا عايشين مرحلة الرجالة المسنّة.. العواجيز المساكين.. كلنا بقينا مسنّين، أنتم واحنا.. لو مفيش أجيال جاية يبقى أحسن لها! أنا معنديش أي حكمة ولا عاوز أشتغل واعظ، بس بص حواليك.. الناس بتحب بعض؟ طلع لي اتنين بيحبوا بعض فعلاً.. الناس مسنّة، الناس عجوزة، الناس غيلان، احنا غيلان في روحنا.. مدينة المسنين.. بلد المحيط مصت شبابكم ورمته في المحيط عشان كدا نشفتم.

قال ذلك ثم نهض، تحرك مبتعداً، وعاد فجأة كأنه تذكّر شيئاً، وأخبرني: «بكره هنروح سوا مشوار».

(5)

سارينات تدوي، ربما سارينات مدرعات العسس، سارينات تبث الرعب في القلوب، وتبدو كأجراس رعب تُقرع لتذكّر أهل البلد ألا يستكينوا، ولا يطمئنوا، وحتى إذا ناموا، أو استسلموا للسبات، فسيبدو سباتهم أشبه بفراء ثقيل يجثم على أنفاسهم.

سقطنا في شرك فتاة ميدان الخضراء، ملهمة يهوذا، سلّمتنا إلى المرتزقة. ليتني تغافلت عن خيانة ياسمين، لأتقي خيانة شاهيناز.

كانت الأصوات في أذني تصطخب مثل مواء ألف هرة شرسة تتمنى أن تخمش صدري، زجّوا بي في زنزانة مظلمة تحوي عشرين رجلاً، ولا أعرف ماذا فعلوا بياسمين. الرجال الذين احتجزوهم معي كانوا زملاء الميدان، قادة مساعدين للنسوة اللاتي يتولّين قيادة الهجمات، ورجالاً أفذاذاً، أو كانوا يوماً أفذاذاً، خاضوا غمار المعارك ببأسٍ شديد، قبل أن ينفضّ أصحابهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرّضنا كل يوم للضرب بالأحذية، واللطم على وجوهنا بالكرابيج، اقتادوا بعضنا واحداً تلو الآخر إلى ما كانوا يتحدّثون همساً عنه بكلمة: «الخوزقة»، لنجلس على الخابور الصلب. فعلياً هي مقتلة بشعة، وطريقة مزرية لإنهاء الحياة، التعرّي للمرة الأخيرة، ليس بغرض التبوّل، أو المضاجعة، بل لتصوّب فتحة شرجك على سنّ إبرة الخازوق الصُلب.

تفكّكت شبكات النسوة اللاتي بنيناها خلال ثلاثة أعوام، الكلّ الآن يتجرّع الريح القذرة، وهي تمرق في حلوقنا، وتخترقنا، تبدو مثل فساء الملايين الذين تجرّعوا وجبات مسمَّمة، تسلّلت الهزيمة إلينا في ليالٍ بلا أقمار، ونهارات شمسها متواطئة.

حدقة عيني اليسرى انطبقت من التورّم واللكمات التي أصابت قرنيّتها، فلم تعد تعمل، وانطبق الجفن نهائياً، صرت أعور، هذه هي اللحظة التي يجيء بعدها الموت ليسدل الستار على العذاب.

خلت الزنزانة في ليلة عجيبة، خلت فجأة، واستدعاني الحرس.

قال لي السجّان: حانت ساعتك.. لا محاكمة، ولا مهاترات.

لم يضع على عيني السليمة عصابة سوداء، جعلني أستمتع بالرؤية. سرت مع الحرس على ممشى معلّق يمتد فوق ساحة ضخمة، تناثرت فيها الجثث المخوزقة. جثث كل رفاق الزنزانة، دماؤهم صبغت أرض الساحة بلون أحمر كحلي، وأعينهم لم تزل تحدّق بي وهي تحمل كل نظرات العذاب الرهيب من الخابور، كأنها نظرات أخيرة ترسل الحنق واللوم.

أسمع وقع أقدامي، وهي تخطو، وهي تدقّ الأرض للمرّة الأخيرة، قبل أن تتوقف أذني عن السماع. أوقفوني بجوار الخابور، خارت قدماي من رؤيته، فرفعوني من ذراعي الأيمن والأيسر، فيما جاء ثالث، وجذب في عنف بنطالي الممزق، داخلي كنت أرتجف. وقلبي يشهق من الرعب. لكنّني كنت أتوق إلى الراحة.

يا لها من نهاية! لماذا بدأنا كلّ هذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أجل طفل؟ كي تستعيد بلد المحيط أطفالها وبراءتها؟ حقاً؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«شاكر»

(3)

نهاية ذهني كانت نهاية بشعة. كيف يصنع البشر في بعضهم البعض هذه الأفعال الرهيبة؟

كنت أنا وفريقي واقفين في ساحة الإعدام، بينما المنتصرون يعدمون المتمردين. قررت أنا وزملائي ألا نساعد أي جانب من الجانبين، قررنا التخلي عن النسوة بعدما لاحظنا أن هذه الحرب خرجت عن مسارها، مثل كل حرب، يظهر فيها القوّادون، والنخّاسون، والقتلة، ويتحالفون على القضايا النبيلة، ويضيع هدفها الرئيسي. نحن الكائنات الشفّافة، وقد طُمسنا على الرغم من أننا آباء البشر، قرّرنا ألا نهدر طاقتنا في نصرة جانب من الجانبين.

كانت هناك دبابات بشعة، سوداء مرعبة، تتقدّم كلها من نقطة سوداء في قمة المدينة، لتنتشر في شراييننا كأنها خنافس مقيتة. إذا أردت أن تنشر الهلع بين أوساط شعب، انشر الدبابات في أحيائه السكنية، هكذا يشعر بالرعب، والخوف، حتى نحن، الكائنات الشفافة، نخشى الدبابات. لا تعني قدرتنا على التخفّي، والانتقال في الهواء، واختراق الحيطان، والتنكر في صورة ذرات الأكسجين، أننا لا نخشى، ولا تخفق قلوبنا من الرعب، لدينا مشاعر الإنسان الضعيف نفسها: الخوف، الجوع، التعب، الرغبة في النوم، وفراغة العين.

لكن لم يكن هذا ما جعلنا نغيّر رأينا. ربما حدث هذا يوم أن جلست بجوار سيدة أسندت مدفعاً إلى جدار، وأشعلت سيجارتها، وأخذت تنفث دخانها في بطء ميمّمة نظرها شطر ميدان من ميادين المدينة. كانت تراقب الدبابات القادمة، وتحتار، أين وكيف تطلق رصاصتها؟ حاولت أن أواسيها في صمت من دون أن ألفظ بكلمة. هي لا تعرف أن بوسعها أن تتصدى للدبابات، لأنها لم، أما أنا فمجرّد كائنٍ شفاف معدوم القيمة. الآن لا يهمّني جون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحب التقرير، الذي يغضب كلما تدخلت من دون إذنه، ويغضب كلما حكيت أكثر من المساحة التي يخصصها لي. عما قليل سينتهي هو الآخر، ولن أنقذه. لا يهمّني أمره، بقدر ما تهمني هذه الأم التي أسندت رأسي إلى كتفيها من دون أن تشعر، تنظر عبر سحب الأدخنة التي تخلّفت عن معركة شهدها الميدان نفسه أمس، اختلطت في أرضه دماء قانية، وبقايا ملابس ممزقة، كانت تستطيع أن تستعيد نشيجها المكتوم، بعدما اكتشفت أن أحد المشاركين في المعركة كان ابنها، وأنها قتلته برصاصة تدرّبت على إطلاقها أشهراً عدة، قبل أن تقع هذه المواجهة. ابنها الضابط الذي انخرط منذ أشهر في مرتزقة شركة الأدوية الفارما، عمل هناك في وظيفة حارس أمن، أو مرتزق. قبل ذلك كان يكتب الشعر، ويتحدّث لأمه عن الحب، واللوعة، ورغبته في الإنجاب، وزراعة الأشجار فوق سطح البيت، والسفر إلى ساحل المحيط حينما يأتي شهر بؤونة. لم تكن تعرف أنه انتظم في صفوف ميليشيا شركة الأدوية، التي تقاتل النسوة المطالبات بفضح كارثة النطف وعتق العوانس، وكفّ أذى البلد وشرّها عن أبنائها.

مثلها مثل الكثير من الأمهات، نزلن الشارع للدفاع عن مستقبلهن، عن رغبتهن في الحياة، عن حقّ ابنها نفسه في ألا يصبح خصيّاً يوما ما، في أن تكون لديه نطفة، فإذا به يرفع السلاح في وجهها، وفي وجه أمهات عديدات. جلست الأم تدخن سيجارتها، يختلط دخانها بدخان المعارك، وهي ترمق الخنافس القذرة التي تزحف ببطء، وتصوّب مدافعها تجاه الجدار الذي يسند ظهرها، وتتذكّر كيف تحوّلت بلادها إلى مصانع لإنتاج حبوب الفياغرا، وأخرى لإنتاج الأوبئة، وصحاريها صارت تُباع بالقطعة لأباطرة البلدان الأخرى يدفنون فيها نفاياتهم الذرية ويجرون فيها تجاربهم النووية، وحينما تخرج الأمور عن السيطرة، يلفّقون لبلدها تهمة إفساد المناخ والتسبب في الاحتباس الحراري.

في هذه اللحظات، كنت أقترح على رفيق يسمى «بلور»، أن ننتقل ورفاقنا إلى حي جديد من أحياء بلد المحيط، التي صارت مثل كبد مريض مصاب بفيروس سي، فسمعت نشيجها المكتوم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تركت رفاقي من الكائنات الشفافة يتراصون في صفوف بيضاء كلآلئ النور، يستعدّون لزراعة الشوارع بجماجم مقاتلي الفارما. عدت إلى الأم، ووقفنا بجوارها أنا وبلور، ثم جلس هو ملتصقاً بها، كأنه يرغب في معانقتها كما لو كانت أمه. كائن شفاف قليل الحيلة، لا يملك غير شوكة في رأسه يثقب بها رؤوس خصومه، يريد أن يحنو على أمٍ، ربما لأن ليس له واحدة.

هي الآن تعيد تصوّرها عن السوائل التي رضعها منها، تشكّ في أنه رضع منها ماء الكراهية، أم أن الشوارع التي سار فيها منذ ميلاده هي التي جعلت منه نمراً شرساً؟ هل لعب مع الفئران في صغره؟ أم كان يتنزّه في السجون ويدخن الحشيش مع الفهود؟ تذكّرت الأم، أن ابنها لم يداعب أبداً العصافير، لم يفكّر في مقدرتها الهائلة على الطيران، على الرغم من رغبته في زراعة الأشجار. تفكّر الأم الآن كيف تحوّلت حياتهما معاً إلى حلقات دائمة من العجائب المتتالية. هجرها الابن منذ زمن طويل، ثم عاد إليها وفي يده بندقية، يصوّبها على نهديها اللذين احتضنهما في الماضي بشوق، طلباً للغذاء. نسي الليالي التي نام وأنفه ملتصق بهما. إن كانت ألقته في صغره إلى نمرة ليرضع منها، لم يكن سيحمل سلاحاً لصيدها حينما يكبر، إن كانت منحته لساحرة لتستخدمه في ممارسة ألاعيبها وسحرها، لم يكن سيقتلها حينما يكبر، إن كانت وضعته في طوف خشبي، وألقته في البحر، ليلتقطه عدو له، وعدو لها، لم يكن سيقتلها برصاصه حينما سيكبر.

أنظر إلى الأم، بينما تضيّق من عينيها، وهي تنظر إلى الأفق الذي تأتي منه الخنافس التي تسير على عجلات وجنازير تهرس أسفلت الشوارع، كأنه بطاطس عفنة. هنا وهناك، حيث دارت المعركة أمس، حفظت الشوارع أسماء المقاتلين، قصص الحب الفاشلة، والشابات اللاتي فقدن حيواتهن، من أجل نطفة، من أجل المستقبل، ومن أجل الصباح، كل الإذاعات تحرّض عليهن، والأم تجلس لتدخّن سيجارتها.

في هذه اللحظة قررت أن أكف عن مساندة جون وذهني

148 دقيقة متبقية ... 55%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وياسمين. بعد قليل اضطررت لصرف رفاقي، قلت لهم لا معركة اليوم، ولا معركة غداً، الوقت للحداد، استريحوا، فالأمهات يجلسن الآن على أطراف الميدان، يلملمن خيباتهن، فقد اكتشفن فساد لبن الرضاعة.

بوسعنا أن نحوّل المدينة التي تشبه كبداً نيئاً على الخريطة، أو قلباً أحمر قانياً، إلى مدينة مضيئة. بوسعنا نزع أسلحة الشوارع، وتعليق الأرغفة الشهية في أعمدة الإنارة، وتوزيع اللحوم كأنها أكواب بلح وخشاف رمضان. بلد المحيط كبد نيئ وقلب قانٍ على الخريطة، لكنها قريباً ستصير امرأة تحررت من مخاوفها، وتخطر بحرية، وتركب الدراجات، وتطارد التيوس، وتلعب بالبالونات الملونة، وترقص الباليه، وتقفز إلى السماء، ولا يضايقها المتحرّشون.

غادرت مأواي عند شاهيناز في «باب الشمس» وقد صارت كل المناطق محاصرة. سيسأل البعض كيف غادرت وسط هذا الحصار المضروب، سأردّ إن لديّ طرقي الخاصة. لقد تشعّث شعري واسمرّت ملامحي وصرت مثل أهل البلد، وبتّ أخشى السقوط في قلب قبضة أفراد ميليشيا الفارما. إذا سقطت في قبضتهم لن يفيدني باسبوري، وسيقتلونني بدم بارد، ويقولون لبلدي: «قُتل خطأ، قذيفة أودت بحياته ولا نستطيع التعرّف على جثمانه»، أو قد يقولون: «نعدكم بالبحث عنه وإعادته لكم إذا كان حياً، أو عن جثمانه وإرساله لكم إذا كان ميتاً».

لن يفيدني تقرير أو مهمة، ومع ذلك بقيت لأشهد ميليشيا الفارما وهي تنهي هذه الحرب بأي وسيلة.

في الضريح يقبع «سين. عين» وشاهيناز، آخر الناجين من الأهوال، ينتظران فكّ الحصار عن سكة سوق الزلط.

ولكن كيف جاء «سين. عين» إلى بيت شاهيناز؟

خادمة اكتشفت سره ونقلته إلى سيدتها. الأخيرة طلبت من المشرحجي أن يتفقد الرجل الذي لم يزل خصباً، فذهب مع ذهني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى الرجل، ليتعرّفا إليه. مهلاً، إنني أحرق تفاصيل عديدة من الأحداث، سيرد ذكرها تباعاً. معي الآن حكاية جديدة لبطل من أبطال هذا التقرير، هذا الرجل الذي سيروي الجزء الخاص به، أحد أضلع دولة بلد المحيط. لعقود لم يغادر مقعد المسؤولية، كلما كاد يفعل، أو يُفعل به، كانت الظروف تجلبه مرة أخرى، ليتولى المسؤولية، حدث ذلك حتى بعد اندلاع الثورة التي أشعلها أهل البلد للمرة الأولى في عصرهم الحديث منذ عشرين عاماً. استمر هذا الرجل في مقاعد المسؤولية، حتى اندلعت الحرب الأهلية، أو حرب الولادة.

إنّه «العزيز»، رئيس الوزراء الذي استُدعي أكثر من مرة ليشغل هذا المنصب، وليهرّب أموال المخلوعين، والوزراء المفصولين والمقالين، ومع ذلك يرفض أن يحضر بشخصه في الحفلات العامة. يفضّل الغموض. يحب ألا يكون في الواجهة، مع أن ضرورات منصبه تفرض ذلك. إنه يصلح أن يكون الرجل السري في عصابة هائلة تتاجر بكلّ شيء: الأطفال، والرقيق، والنساء، والأعضاء البشرية، والسلاح... لكن قدره جعله وزيراً، الوزير الأول، فاستسلم لقدره، وعمل بكدّ واجتهاد وإخلاص لمهام منصبه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«العزيز» رئيس الوزراء الذي أُعيد تدويره أكثر من مرة

(1)

انتهى الحال بي إلى هنا، إلى حجرة في قصر، محددة به إقامتي، محاصر تماماً، ممنوع عني التواصل مع أي شخص بالخارج، ومع ذلك دفع هذا الأجنبي الرشا كي يصل إلى ما يمكن أن أصفه بمخبئي. تنهال القذائف على عتبة بابي، وحراسي يختبئون، ولا يدرون شيئاً عن خوفي.

أنا العزيز، ينتهي الحال بي هكذا! انتهى عصري، تآكلت أيامي.

بعدما رشا كلّ الحرس، جاء هذا الرجل يطلب مقابلتي. قال إنه مبعوث من الأمم المتحدة، فاهتممت بمقابلته. سألني عن حرب الولادة، وعمّن أشعلها. قلت له إنهن مجموعة من النسوة الهائجات لم يجدن من يمتّعهن، أو بالبلدي: «هو إيه اللي ودّاهم هناك؟».

لا يبدو عليه سمتُ المبعوثين الدوليين الذين كنت ألتقيهم في ما سبق. شكوت له من وضعي الحالي، وهذا الحصار المضروب عليّ. قلت له إنني أطلب اللجوء إلي أي بلد يمنحني الأمان على حياتي، فطالبني بأن أكتب كل شيء، وأُبرز المخاطر التي تهدّدني، وحكايات من دولابي الحكومي، أيام كنت في المسؤولية، ووعدني بالمرور عليّ مرة أخرى، وفي جعبته أخبار من رؤسائه بخصوص طلب اللجوء، قال إنه سيملأ الاستمارات عني، وسيساعدني بتوصية، فابتلعت الطعم، وبدأت أكتب.

سأحكي من نقطة النهاية كما يقولون، سأبدأ من الخلاف العميق بيني وبين المجرمين الصغار. هذا هو ما قادنا إلى هذه الحرب التي تتفتت فيها الصواريخ والقذائف في أجساد الناس.

كنت أنا ومعاملي التي تنتج الترامادول، السبب وراء تحمّل النسوة للآلام التي مررن بها في السابق. كان ذلك منذ واحدٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعشـرين عـاماً. تحمّلن الكثيـر مـن اختنـاقات الغـاز، الرصـاص المطـاطي، وخزات الـرشّ الثقيـل، الـذي تلقَّينـه فـي صـدورهن، وظهورهن، وتحمّلن لسعاته مع ذلك، كنّ يتصدّين للرصاص الحي، بقلوب مستكينة، متوهّمة أن ما يصيبهن هو مجرد رصاص من الصلصال.

أنا المطرود من هذا الملك الذي كان يسوسه الديكتاتور البقرة، أنا الذي تآمر ضدّه الحرس الجديد، وأغرقوا البلاد بحبّات الفياغرا الزرقاء، فانحطّ الناس، أنا من أنقذهم من العبث بأعضائهم، قبل أن تعود المياه العكرة إلى مجاريها، لذلك كان يجب أن أركب هذه الموجة الثانية من الثورة، لكنها جاءت كشلال من الزجاج. حرب أهليـة بشعة يـرفض طرفاها الاعتـراف بأنهم يخـرّبون مدينتهم. وجدتها فرصتي لأعود، كما عدت بعد انحسار نظام الديكتاتور البقرة، هل تعرفون لماذا أطلقوا عليه هذه التسمية؟ إنها دعابة قديمة. المهم أنني عدت ممتطياً الخطاب البائد نفسه: مؤامرة إسـقاط الـدولة. فـي المرة السابقة عدت لأحمي فلوله الهائلين، لأنتشلهم من ظلماء زنازينهم، ولأساعدهم على تهريب أموالهم. هذه هي خبرتي، انتشلتهم من التعفّن في ظلام الحبس، وحفرت مجـاريَ لأنهار أموالهم، بتخطيط قنوات سرية وملاذات صعبة التتبـع، لكنـهم أنكـروا الجميـل، لـذلك كـان يجـب أن أعـود للمرة الثانية، لأحرقهم جميعاً.

ستذهب الظنون بشخصيتي، لا أحب أن أذكر اسمي، أو أي شيء عني، تراكمت سنون طويلة حول هيبتي، واسمي. سأريحكم، أنا الوزير الأول للدولة، أنا عزيز هذه المدينة، الأمين على خزائنها وصـوامعها، تحـت الطلـب دائمـاً، لتخطـيط نـهبها، وتشـكيل أي حكومة لوأد الثورات، أستطيع تمرير سلحفاة من بوابة «الإكس راي» بمطارها، لا يتعلّق الأمر فقط بنفوذي لأني وزير، وليس السر في كلمتي الناهية، بل في أفكاري، كلها أفكار عبقرية، أنا عبقري، لذلك كنت أعود كل مرة إلى مقعد الوزارة، كلما غبت عن شارع مجلس الوطن بحي الكرماء، كنت أعود إليه مرة أخرى، وبسرعة، بكلّ مجدي، وتجدّد أفكاري.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تراكمت لديّ خبرات على مدى سنوات، كان أشدّها حينما اندلعت الثورة، حينئذٍ طبّقت كل أفكاري، انتهزت فرصة أن الثوار كانوا حمقى، بدلاً من أن يقتلونا جميعاً، ويعلّقونا على نخيل جامعة المحيط، أو يصلبونا على الطريق الدائري، تركونا نذهب إلى بيوتنا. في أسوأ الحالات سلّمونا إلى السلطة، السلطة التي تعرفنا، ولا تدور تروسها إلا بمفاتيحنا.

لكن جائحة عجيبة حدثت، لا أعرف أسبابها، كنت قد ابتعدت عن مقر الوزارة والمسؤولية، حينما جاءني حسين المشرحجي بالخبر الغريب. الناس أصيبت بالجفاف، بالطبع لم يكن هناك سبيل لتجربة ذلك بنفسي، كان الأمر عندي قد انتهى منذ سنوات بالفعل، وكل الرفيقات الجميلات اللاتي كنّ يترددن عليّ، انقطعن عن زيارتي بمجرّد خروجي الأخير، وابتعاد كشاف السلطة عني.

في ذلك الصباح الذي استقبلت فيه حسين، لم أكن مستعدّاً تماماً لتلقّي هذا الخبر، أو فهمه، لكنه ألقاه عليّ هكذا. الناس لم يعد لديهم ما يقدّمونه للحياة، أجسادهم جفت، وحان وقت الثأر من صنّاع الفياغرا، من الحرس الجديد الذين طردونا من سوق الأدوية، وعبثوا بكيمياء الناس، من هؤلاء الذين صنعوا مؤسسة المجتمع المستقيم ليسيطروا على الأبدان، وليكرهوا الناس على أفعال ضد إرادتهم. حان الوقت للانتقام ممن أهانونا وطرحونا قديماً عن مقاعد السلطة.

كانت صناعة المنشطات رائجة، والأدوية كانت متاحة، وبأسعار زهيدة، وأهل البلد في أوضاع صحية جيدة، انتبهنا إلى خطورة هذا الوضع، كان يجب التصدي له بكلّ ضراوة، كيف نترك الناس أصحّاء؟ يشترون المضادات الحيوية بأبخس الأثمان؟ لماذا لا ندسّ أيدينا في هذه الصناعة؟ ونحكم قبضتنا عليها بكلّ ضراوة.

عام 6230، قبل اندلاع الثورة بعشر سنوات، امتلك أحدهم أربعة مصانع، تنتج جميعها الأدوية التي تدخل ضمن مكوناتها «الترامادول»، كانت تنتج «ترامادول» 50 مغ عبارة عن كبسولة خضراء، و150 مغ شكل القرص مستطيل كالبلاطة ومشرطة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ناحية شرطة واحدة ومن الناحية الأخرى شرطتين، بمعنى أنه إذا كتب الدكتور لمريض ما من الترامادول 75 مغ، فإنه كان سيقسمها على قطعتين، كان مدوّناً على هذه العلبة Pin killer.

حينما استدعيت مالك هذه المصانع، تعجّبت كيف لرجلٍ مثله أن يحقّق كل هذا النجاح ولا تبدو على ملامحه النعمة؟ كان متوسط الطول، ونحيف البنيان، يبدو مكافحاً فعلاً، سألته وأنا أتأمله في غبطة وحسد ظاهر: «قل لي يا ممدوح بيك.. كل فلوسك حلال؟ من تعبك وعرقك؟ بتدفع ضرايبك في ميعادها؟ بترشي بتوع متابعة الأدوية؟».

فوجئ بالسؤال، تقلّصت ملامحه، كان يجلس في مكتبي بالوزارة، لحسن الحظ لم تكن أجهزة التليفون المحمول التي بوسعها أن تسجّل المكالمات، أو تستقبل إشارات تنصُّت من جهات أخرى، قد ظهرت بعد، لم يستطع الردّ على سؤالي، نهضت من على مقعدي باتجاه الميني بار الموجود إلى يمين مكتبي، وفتحته وجلبت زجاجتي بيرة، ووضعت إحداهما أمامه، فقال:

- أنا مش بشرب.

ضحكت وأنا أحدّق فيه قائلاً:

- يبقى لازم تبدأ تشرب.. إزّاي ما بتشربش؟ أنت سلفي ولا إيه؟ طب بتصرف فلوسك دي كلها فين لو ما بتشربش؟ ثم إن العزيز لمّا يقدّم لك حاجة، ميصحّش ترفضها.

تململ الرجل في ضيق، كان بالفعل محاصراً، وزير مثلي يستدعيه في مكتبه، ويطلب منه أن يشرب معه البيرة. قلت في حزم شرس:

- كل حاجة إحنا مقسمينها هنا بيننا في الوزارة.. ملف الأدوية من اختصاصي، أشرف عليه بنفسي، مش مسموح لحدّ يلعب في صحة وأبدان الناس من غير ما نحطّه تحت عنينا، وعليه.. محدّش ينفع ينفرد بتصنيع دواء مهم زي الترامادول من غير ما نستدعيه ونعرض عليه الشراكة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انقبض وجه الرجل كأنه رأى ملك الموت، قلت وأنا أنهيه تماماً:

- أنت تعرف أن بعض الجهات في الدولة مش بتصنع الأدوية دي في مصانع الأدوية اللي بتملكها، لكن لو حد عاوز يلفت نظر الوزير المختص لخطورة الترامادول، حاجات كتيرة ممكن نتعبك بيها يا ممدوح بيك، أنا أوقفت ملف تصنيع الفياغرا في البلد، تخيّل لو فتحنا الباب دا.. مصانعك هتقفل.

تجرأ وقال:

- إيه اللي يقفل مصانعي لو صنعتم الفياغرا محلياً؟ أهلاً بالمنافسة الشريفة، اصنعوها، قبل ما الشركة الأميركية تيجي وتصنعها بنفسها هنا.

ضحكت وأنا أكتم غيظي، وقلت:

- بقول لك إيه يا ممدوح بيك.. شكلك فهمك صعب، أو شكلك بتستعبط.. إحنا ممكن نقفل خط إنتاجك للترامادول، ونرتاح ونفتح خط إنتاج الفياغرا.. إحنا بنحاربها دلوقتي في الإعلام، بنقنع الناس إنها هتخليهم تيران هايجة، لكن لو عاوزين، هنقنعهم إنها هتحفظ لهم بيوتهم، ومش هتخلي الراجل يبص برا.

قاطعني قائلاً بحدة:

- أنا ليه شامم ريحة مساومة وابتزاز رخيص؟

لمعت عيناي، كنت أشعر بلمعانهما، فوجئت به يهبّ من مقعده، ويغادر كأنه يهرب، ارتعشت أصابعي على سطح مكتبي، أشعلت سيجارة، ونفثت دخانها في الموضع الذي كان يحتلّه منذ لحظات.

لكنه جاءني بعد مغادرته بعشرين يوماً.

لا يملك أي شخص يمشي في شوارع هذه البلد أن يدخل مكتبي، مكتب العزيز، ويغادره هائجاً مثلما فعل ممدوح، لم أغفر له فعلته، لولا أنه جاء خاضعاً بعدها بعشرين يوماً، ربما كنت فعلت أكثر من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ربما كنت أمرت بخطفه، وإيداعه زنزانة قذرة، في سجن العزبة، الواقع في مثلث الرمال الميتة المخيفة. ربما كنت أجبرته على تطليق زوجته، وبيع مصانعه بيعاً صورياً لسكرتيري حسين، لدي كل الأساليب، التي تجعلنا أشراراً كاملين، لكنني نصف طيب، ونصف شرير، أنا العزيز، عزيز بلد المحيط، ويجب أن أكون طيباً ليتذكّرني الناس بالخير.

سامحت ممدوح حينما جاءني نادماً، ومعه أوراق عقود مصانعه الأربعة. ووضعها أمامي خانعاً، وملامح وجهه ازدادت تغضّناً، وأسفل عينيه هالات داكنة، كأن أحدهم لكمه في وجهه. جلس وفرد العقود أمامي وقال ووجهه يزداد تقلصاً، وكلماته تخرج مهتزّة مرتعشة كأنها تخرج من شفاه مثلجة:

- حطّ النسبة اللي حضرتك تحبها.. وأنا هبعت الإيراد لحضرتك أول كل شهر!

(2)

أنتم غاضبون من كل هذه الفوضى؟ أتظنون أنني وحدي المسؤول عنها؟

لن أنكر أي اتهامات. نعم، أنا وغيري، أوصلنا الأمور إلى حافة الحرب، ولكننا لم ندر أنها ستصل إلى هذا الحد. كنا نأمل أن نعيش بأمان فقط عشر أو عشرين سنة، هذا كل ما كنا نأمله، بأمان أي حتى بعد خروجنا من السلطة، ألا تُنتزع منا ثرواتنا، لهذا كنا نكنز ونكنز ونكنز. أكثر ما كنا نخشاه مقولة: «خد من التل يختل».

لسنا ديناصورات، إنما في فترة من الفترات حاولنا أن نخطو مثلها، ندهس من هم أسفلنا، ساءني جداً أن يتصوّر فريق الصبية الجدد، أن بمقدورهم السيطرة على ملفاتي. أقصوني، أزاحوني، حينئذٍ مضيت إلى أقصى مدى في لعبة الترامادول، وحينما تفاقم الصراع، لم ننتبه إلى أن آخر جيل وُلد ولادة طبيعية من الأرحام، قرر أن يثور، ونزل الثوار إلى الشوارع، وساروا بالآلاف على كوبري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيهك، وحاصروا قصر القضاة، وزحفوا إلى القصور الرئاسية في حي الكرماء، وحاصروا مجلس الوطن، وتلقوا في بأس الرصاص المطاطي والخرطوش.

هكذا عُدت، وحينما عدت، مددت للحرس الجديد كفي بالسلام، وأنا أعد بمحاربة الثوار، بمحاربة الجيل الأخير الذي سيولد في بلد المحيط، فإذا بهم يقصونني مرة أخرى، وإذا بهم يلعبون لعبتهم الدنيئة مرة أخرى، ويركلونني من المشهد، بينما هم من طلبوني لأرتب لهم أوراق الانتخابات، ومجلس الشعب الجديد، استعانوا بلاعب من فريقهم، فعدت إلى ڤيلتي هنا في جبل الولي، لكنني لا أطيق الابتعاد عن شارع مجلس الوطن، لذلك عدت بعد إقصائي.

حينما زارني ممدوح في ذلك الصباح، الذي يفصله عقدان من الزمن عن أول لقاء بيننا في الوزارة، ليخبرني بقصة جفاف رجال بلد المحيط، كان متحمساً لمساندة مجموعة ذهني في معركتهم ضد شركات المنشطات الجنسية. يتحدّث ممدوح بحماس، يتدفق الكلام منه بسرعة عجيبة، لا تليق بسنّه، وتعجز أذني الهرمة عن ملاحقته أيضاً، ويعجز عقلي الساكن الخامد عن استيعاب كل ما يقوله، أدركت فقط أننا نسير إلى النهاية، وأنه لن يكون هناك بشر، وأن الملائكة أخيراً ستهنأ، ألم تكن هي أول من تنبأت بما سنقترفه على هذه الأرض من آثام؟

عودة ممدوح المفاجئة ولّدت داخلي آمالاً شتى، شعرت أنني أعاود التنفس، نظر إليّ وانفعالاتي تظهر تدريجياً على ملامحي المتغضّنة. تذكّرت أيام معركتنا الشهيرة مع الحبة الزرقاء.

صوتي جلجل في المجلس وقتئذٍ، كنت أقول:

- يجب أن تتصدى الدولة بكلّ أجهزتها للحبة الملعونة الزرقاء، الحبة السحرية، التي إذا دخلت بلد المحيط، وبيوته، فستجلب الطوفان من المحيط إلى كل العتبات. وإذا دخلت أجساد رجال بلد المحيط فستُفسدهم، وستعصف بكيمياء شرايينهم، وستعجز مياه المحيط عن إطفاء نيرانهم وهيجانهم، لا تتوقعوا أى خير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا منحتم شركات الأدوية حق تصنيع اللعنة في بلدنا، هل تريدون الناس أن يفكّروا في أعضائهم الجنسية؟ هل فكّرتم في الرجال الذين سيتحوّلون إلى كلابٍ هائجة، تنطّ على النساء في الشوارع؟

أذكر العبارات المرحّبة التي ردّت على عباراتي، والتصفيق الذي لم ينقطع، الصحف أبرزت قولي، وشنّت حملات لمقاطعة إدخال الفياغرا بلد المحيط، صرت بطلاً في نهار وليلة، تحوّلت إلى حارس الفضيلة. العزيز اسم على مسمّى، هكذا كتبت المانشيتات. صاحت الجماهير باسمي في الشوارع، والقهاوي، ها هو ذا عزيز بلد المحيط يرفض تدمير صحة الناس، وانحراف رجالهم. كان فاصلاً مسرحياً رائعاً، أدّيته بجدارة في مجلس الوطن، كثيرون كانوا يلعنونني في سريرتهم، منهم الصِّبية، الحرس الجديد، يتأهّبون للوثوب فوق إنجازي الكبير، كنت أحمي في الحقيقة صناعة الترامادول التي ازدهرت بعدما أجبرت ممدوح على الشراكة معي، لأنني لم أجد من أتفاوض معه على طرح الحبة الزرقاء في الأسواق، وقتئذٍ كانت سيختلف خطابي.

أن يفقد العزيز سيطرته على أهم ما يملكه أي حاكم: الأبدان، يجعلني ذلك مثل شيخ جامع انفرطت حبات مسبحته منه، يفقدني ما يجعل الرجل الكبير -البقرة- يبقيني في مقعدي بالوزارة، حينما تملك أجساد الناس تمتلك الأرض والسماء. لذلك صنع الحرس الجديد مؤسسة المجتمع المستقيم، وفرضوا الزيجات قسراً، واستثمروا في الحبة الزرقاء وكلّ المنشّطات وهم يضمنون ارتفاع عوائد البيع نتيجة عقود الزواج التي تُوقّع بكثافة، ومع كل عقد زواج يحرّره المأذون، تذهب ضريبة دمغة لمصانع الفياغرا، من دون أن يحصل العرسان على الحبوب بالفعل، ومن يخرج عن القطيع، يُخصى، أو تذهب إلى سجن العوانس.

نحن نسيطر على أبدان الناس في ثلاثة حقول: المعسكرات، والمستشفيات، والوظائف العامة. حين نقيس فجأة درجة تعاطي الموظفين للمخدرات بينما هم في مكاتبهم لا يتوقعون مثل تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجـولات التفتيشـية. هـذه التقـارير التـي نمسكها عليهم، حينما نثبت تعاطيهم للمخدرات، تجعلنا نحكم قبضاتنا حول أعناقهم، فـلا يجـرؤون علـى الثـورة، ولا علـى التمـرد، وإلا أظـهرنا تلـك التقارير، وعرّضناهم للطرد بسببها، هكذا نملك الأبدان. لكن بقي حقلٌ رابع لم نهيمن عليه: أطفال الشعب. لماذا نترك أولادهم لهم؟ كيف نأمن شرّ ثورات قادمة تشعلها أجيال تكبر في أجواء وفي أسـر بعيـدة عـن سيطرتنا؟ كيف نستحوذ على أطفال الشعب، لنربّيهم تربية سليمة في مزارعنا، فيشبّون يؤمنون بالاستقرار، والـهدوء، ونبـذ أفكـار الثـورة، أو النزول فـي الشـارع لمواجـهة العسس والخفراء؟

الحرس الجديد الذين دخلوا مجلس الوزراء، بضغوط من نجل البقـرة، بـرعوا بوصفهم الجيـل الثاني من الفاسـدين. تعلّموا منا اللعب، والقـذارة، ثـم جـوّدوا. لـم يفقدوا أملهم أبداً فـي دخـول الحبايـة الزرقـاء بلـد المحـيط. سـافروا، وعقـدوا اجتمـاعات مع ممثّلي الشركة الأميركية، وعادوا يحملون حقائب الرشا المتخمة بالأخضر.

كنت أنتظر من الجيل الثاني من الفاسدين بعض التقدير، حتى إن كان يلعب بجوارنا، وفي مناطقه، وفي ملفّاته التي لا ألعب فيها، إلا أنني الوزير الأول، أنا الذي علّم الحواة الرقص مع الثعابين، بينما كان هؤلاء الصبية يذهبون المدرسة وفي أيديهم أكياس الساندوتشات، كنت أدبّر المكائد الكبيرة، المعارك المهولة، الحارات كانت ترتجّ تحت دبدبات أقدامنا، وهؤلاء الصبية يتوارون، الآن صاروا يدلفون علينا الاجتماعات، يحملون «الآيباد»، ويجلسون أمامنا كأنهم كائنات فضائية، ويردّون على هواتفهم المحمولة من سلك يتسلّل من أسفل الجاكت الأنيق، وربطات أعناقهم النحيفة المخنّثة.

(3)

كل الحكايات كانت ناقصة دائماً. منها حكاية القرب أو البعد عن الرجل الكبير الذي سأظل أسمّيه هنا: «البقرة».

60%

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كان يختال بنجله، ويتباهى به وسطنا، يفرح بسماع صوته يتحدّث في مؤتمر مثلاً، يسعد به حينما يراه واقفاً مع كبار رجال الدولة، الوزراء الكبار، واللاعبين القدامى مثلي، ويفرح أكثر حينما يرى نظراتنا المنكسرة بينما يتلفظ نجله الكبير بالهراء، ولا أحد منا يقاطعه أو يصحّح له.

أتذكّر المرات العاصفة التي كدتُ أن أطرد من منصبي أو تُجزّ رقبتي، تحمّلت سباباً مقذعاً، بدلاً من الإقالة، كيف لرجل دولة مثلي أن يتحمّله؟ كنت أعرف أن الرجل الكبير سبَّاب، يهين كل من حوله، يتعمّد إهانتهم حتى في الاجتماعات الوزارية الكبرى، كانوا يسعدون بإهانتي، يضحكون، والبقرة يشعر بالزهو، كنا جميعاً مرضى ضغط وسكر بسبب كتمِنا الإهانات، وتجرّعها، لذلك كنا نحيط أنفسنا بالمبهجات دائماً. وكل منا كان ينتقم لنفسه بطريقته، بالطبع لم نكن ننتقم من موجه الإهانات، بل كنا ننتقم من الملفّات التي بأيدينا، من الشعب.

في أحد الاجتماعات، قال لي إن الناس تحبني لدرجة أني كنت رئيس الوزارة الأكثر شعبية في الحكومات التي عيّنها منذ توليه الرئاسة، وأنهم يقولون عني نصير الفقراء. هنا تدخّل وزير الخزينة، معترضاً على سياسات الحكومة التي تراعي الشعبية وزعل الناس، لكنها لا تراعي مشكلات الموازنة. مضيفاً إن حبَّ الناس لا يمكنه رفع الاحتياطي، ولا ملء البنك، مما يضطرّنا إلى حلّ ذلك عن طريق سحب فلوس المتقاعدين.

الأوغاد، الحقراء، الذين يزجّون بي الآن إلى المحرقة، ويجعلونني علكة يضغطون عليها بضروسهم. ها هي ذي السلطة التي يحسدنا عليها الناس، مقتلة، ومهلكة، وجلطات صغيرة في شرايين الدم، وهل من سبب آخر لنفاد ماء الرجال إلا قهر الرجال؟

بطرف عيني لمحت الرئيس يرمقني، كاظماً غيظه، لذت بالصمت، فأيّ كلمة أتفوّه فيها يمكن أن تتسبّب لي بأن أقذف بكلمة مهينة.

لم أعمد للتخلّص من خصومي في المجلس، بل ظللت محافظاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على مساحات الود دائماً بيننا، كما يقول الإنجليز: «قرّب أعداءك منك، واجعلهم تحت عينيك، أما أصدقاؤك فهؤلاء هم من يجب أن تبعدهم».

لكن هجوم أعدائي لم يتوقف، كانوا يراقبونني، ويحسدونني على حب الناس لي، على الرغم من عبثي بكيمياء أجسادهم، كنت أتلقى دعوات عديدة لحضور الحفلات في مناسبات رسمية لها علاقة بمؤتمرات تنظّمها شركات الأدوية بالتعاون مع وزارة الصحة، أحد هذه المؤتمرات كان مقاماً في فندق الفصول الأربعة.

أثناء وجودي في السلطة، اشتهر الفندق آنذاك ولم يزل بكونه المكان الأبرز الذي تُضبط قضايا الرشا فيه، والذي يقيم في بعض أجنحته خصومي الصبية.

ما إن انتهيت من إلقاء المحاضرة فيه ذات يوم، حتى تقدّمت مني سيدة بالغة الرقة، والأناقة، وطلبت بصوت رخيم كله نغم صورة معي.

التصقت بي، ثم همست وهي تبتسم موجهة ناظريها تجاه الكاميرا: «معالي الوزير. أتمنى تشرفني في جناحي في الدور الخامس»، فأجبتها بأن مواعيدي كلها ينظّمها حسين، وسينسّق معها بهذا الخصوص. تحسّست كيس «التوبس» الذي أحمله دائماً في جيبي، تحسباً للقاء سعيد يزيل عني تعب اليوم الطويل في المكتب.

بعد أن التقطنا الصورة وصافحتها وطبعت قبلة شهوانية على يدها، دلفت إلى قاعة خلفية لأنتظر حسين الذي ذهب ليرى ماذا تريد، وما إن كان الجو ملائماً للقائها. حين عاد أخبرني أنها تريد أن تعرض عليّ مشكلة في الضرائب، ثم انتقل إلى الجانب العملي: جناحها يحوي غرفة نوم مرتبة، وقد فحصها بنفسه وتأكد من خلوّها من الكاميرات وأجهزة تسجيل الصوت.

لم أكن أخطو خطوة من دون رأيه، سواء في مواعيدي مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إدارات شركات الأدوية، فخبرته لا تجارى في تمشيط الأمكنة، وتأمينها من الآذان المدسوسة، أو عيون القطط المخبأة جيداً للإيقاع بي. وهو لم يكن يتورّع أبداً أن يزجّ بنفسه في أكثر الأماكن خطورة ليختبرها ويتأكد بنفسه من كونها آمنة.

لم يكن حسين سكرتيري الأمين فحسب، بل كان أيضاً ساعدي الأيمن والأيسر، وقبلهما عيوني، وأمين سرّي والحارس الأمين على سهراتي، ونزواتي، ومغامراتي العاطفية، وهو جُبّ عميق، ومظلم، كلّ ما ألقيه فيه يُبتلع، ويختفي. أشرف على عمليات إبعاد أشخاص أكرههم، عمليات نظيفة جداً، رغم ما يسفكه فيها من دماء، لكن لا أثر يبقى، أو يقود إلى ما فعل، أخفى ناساً، وأغرق ناساً، وأحرق جثثاً، وطوى عشيقات، وأرسلهن إلى جوف الشمس، وأحرقهن بعدما هدّدن بكتابة مذكراتهن عني، في محاولات رخيصة لابتزازي.

كان حسين المخلوق العجيب الذي سخّره الجنُّ لي، لينفّذ رغباتي، ويحميني مما يؤرقني، أو يخبط الهموم في رأسي، أو من يجرؤ على مبارزتي، لكن قدراته لم تُختبر مطلقاً مع الرجل البقرة، وربما يكون لديه الوسيلة على الانتقام لي، لكنني لم أجرؤ مطلقاً على ذلك، فلا يمكن أن أضحّي به.

عاد حسين ليخبرني عن الجناح الفخم الذي تدعوني إليه السيدة، إلا أنه لم يكن مطمئنا تماماً، نقل إليّ ريبته، إذ كيف يمكن لمن يعاني مشكلة أن يقيم في فندق فاخر؟!

شهوة السلطة تأكلني أكثر من شهوة الجنس. وحبّي لمقعدي، وتمسّكي به، أكثر قوة من توثبي لخوض مغامرة مع امرأة عابرة، لهذا تأهبت للمغادرة، لكن باب القاعة انفتح بغتة، ودلفت منه الهانم، وقالت: «عزيز بيك، أرجوك!».

وقفت في مكاني، فيما اعترض طريقها حسين، ولوّح لها بكفّه في صرامة قائلاً:

- أرجوك أنت يا هانم.. معالي رئيس الحكومة معندهوش وقت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضيّعه...

قاطعته: «استنّى يا حسين!».

ثم واصلت مخاطباً السيدة:

- حسين عنده أسباب قوية لصعوبة إتمام مقابلة حضرتك هنا يا مدام.. تحبي نكمل كلامنا في مكان تاني.. يحدده معاكي سكرتيري؟

تسمّرت السيدة فجأة كأنها تعيد حساباتها، ثم قالت:

- مفيش مشكلة.. أنا يهمني مصلحة أهم وزير في البلد.

أومأت إلى حسين، ففهم إشارتي. تحرك أمامي وفتح باب القاعة الخلفية، فغادرت مصطحباً السيدة، التي كانت تتحرك وعطرها يتقدّمها، ويلفح وجهي، فشعرت بالغبطة، اجتاحتني السعادة بغتة، وانتشيت، ولم أدر إلا بساعدي وهو يحيط خصرها، بينما نمرّ في ممر طويل يخلو من الناس، لكنه معروف للحرس، ويؤدي إلى مصعد كراج الفندق، شعرت بخصرها يرتجف أسفل وطأة ساعدي، فشددت أكثر على جسدها، رغبتي هي السيطرة على أجساد الناس كما تتذكّرون. ارتجفت أكثر، وأخبرتني أن هناك مؤامرة وسخة جداً تحاك ضدي. كتمت انفعالي وسألتها ما إن كانوا يهدفون إلى تصويري معها وأنا عارٍ، لكنها نفت ذلك قائلة:

- هم عارفين إنك بتدبّر حاجة ليها علاقة بشغل الأدوية.. كانوا بيضغطوا عليّ أعرض عليك ورقة بشراكة مع توكيل أجنبي لتوريد ماكينات لتصنيع «التامول»، وفي وسطها ورقة حقيرة عن تسريب أسرار تخص عائلة الرئيس، دا كان هيزعّل الرئاسة منك جداً يا عزيز بك، هم عاوزين يزقوك من على الجبل.

توقفت في الممر المؤدي إلى الكراج، إثر جملتها الأخيرة، يطيحون بي من على الجبل، يا لها من عبارة! تفحّصتها ملياً. ثم شعرت بسهمٍ من الريبة يهزّني فجأة، قلت لها بصرامة وأنا أبتعد عنها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضيّعه...

قاطعته: «استنّى يا حسين!».

ثم واصلت مخاطباً السيدة:

- حسين عنده أسباب قوية لصعوبة إتمام مقابلة حضرتك هنا يا مدام.. تحبي نكمل كلامنا في مكان تاني.. يحدده معاكي سكرتيري؟

تسمّرت السيدة فجأة كأنها تعيد حساباتها، ثم قالت:

- مفيش مشكلة.. أنا يهمني مصلحة أهم وزير في البلد.

أومأت إلى حسين، ففهم إشارتي. تحرك أمامي وفتح باب القاعة الخلفية، فغادرت مصطحباً السيدة، التي كانت تتحرك وعطرها يتقدّمها، ويلفح وجهي، فشعرت بالغبطة، اجتاحتني السعادة بغتة، وانتشيت، ولم أدر إلا بساعدي وهو يحيط خصرها، بينما نمرّ في ممر طويل يخلو من الناس، لكنه معروف للحرس، ويؤدي إلى مصعد كراج الفندق، شعرت بخصرها يرتجف أسفل وطأة ساعدي، فشددت أكثر على جسدها، رغبتي هي السيطرة على أجساد الناس كما تتذكّرون. ارتجفت أكثر، وأخبرتني أن هناك مؤامرة وسخة جداً تحاك ضدي. كتمت انفعالي وسألتها ما إن كانوا يهدفون إلى تصويري معها وأنا عارٍ، لكنها نفت ذلك قائلة:

- هم عارفين إنك بتدبّر حاجة ليها علاقة بشغل الأدوية.. كانوا بيضغطوا عليّ أعرض عليك ورقة بشراكة مع توكيل أجنبي لتوريد ماكينات لتصنيع «التامول»، وفي وسطها ورقة حقيرة عن تسريب أسرار تخص عائلة الرئيس، دا كان هيزعّل الرئاسة منك جداً يا عزيز بك، هم عاوزين يزقوك من على الجبل.

توقفت في الممر المؤدي إلى الكراج، إثر جملتها الأخيرة، يطيحون بي من على الجبل، يا لها من عبارة! تفحّصتها ملياً. ثم شعرت بسهمٍ من الريبة يهزّني فجأة، قلت لها بصرامة وأنا أبتعد عنها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أنا مش فاهم شغل إيه اللي بتحكي عنه؟ أنا مش بشتغل غير شغلانة واحدة بس هي شغلانة رئيس الحكومة...

صمتت، كأنها فوجئت برد فعلي، فابتعدت عنها، إلا أنها هتفت:

- عزيز بيه.. حباية التامول النهارده بكام؟

كأن شبحاً ظهر لي في الممر، رمقتها في رعب، ازداد لهاثي، وتسارعت دقّات قلبي، شعرت أنني وحدي، اختفى حسين فجأة، لم أجده خلفي، تردّد صدى صوت المرأة الملعونة في قوة، ما أن وصلت إلى نهاية الممر، حتى انفتح باب المصعد عن وجوه صارمة، حدّقوا فيّ بحزم، امتقع وجهي، قلت بينما أتراجع:

- أنتم مين؟ فين حراسي؟ يا حسين...

قبضوا على معصمي، واقتادوني في صمت، أدرك معنى هذا، قلت في يأس وصوتي يتهدج من الانفعال والخوف:

-أنا العزيز.. عزيز بلد المحيط.. مينفعش تعملوا فيّ كدا.. أنا رئيس الحكومة.. أنا البلد.

قادوني إلى سيارة هامر ضخمة، يحيطها حرّاس ضخام الأجساد، كأنهم فضائيون. وانطلقوا، ثم انضمت إليهم سيارة مشابهة لموديل السيارة التي أركبها، سارت بمحاذاتنا في المقدمة، ثم بعد فترة من السير، انضمت سيارتان إضافيتان. طوّقتني الهواجس، سرنا خارج العاصمة. اتجهت العربات الأربع بصيدها الثمين إلى تلك المزرعة.

أي دولة هذه التي أرأس حكومتها؟ رئيس وزرائها يُختطف هكذا من قلب فندق شهير بوسط العاصمة، ولا أحد يتحرك لنجدته؟ هذا لا بدّ أن يكون تدبير أعلى رأس في الدولة. صراع أجهزة؟ من عطّل الحرس؟ من أبطل القواعد الأمنية المتبعة لتأمين الكبار؟ شيطان لعين؟ بالتأكيد هذا من فعل بشر. أليس كذلك؟ من قتل رئيس الوزراء السابق؟ ألم يكن أنا؟ بل كنت أنا. أنا من تآمرت عليه، كان المقعد يأتيني في أحلامي، وكنت قريباً من الثلة التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها مآرب أخرى في المقعد، حينما ضيّق الرجل الخناق على تجارة المخدرات، كنت متورطاً بشكل غير رسمي، لكن الخيوط تقود إلي، والمخدرات هي نوع من أنواع الأدوية. دفعنا للقتلة، القبائل المتمردة والانفصالية المطاردة في الصحراء، كانوا هم أيضاً مُضارّين، اقتسمنا نتائج عملية الاغتيال، نغيّر حرس رئيس الوزراء، ونبعد أخلص رجاله، ونحوّل مساره، بدلاً من أن يسير موكبه من قصره في حي الجهنمية الجديدة الراقي، عبر الكورنيش، إلى شارع قصر القضاة، وميدان الخضراء، مروراً بالشوارع المؤمنة جيداً في منطقة السفارات، نجعل الموكب ينحرف في الشوارع غير التقليدية، وهكذا، انحرف الموكب، إلى منطقة الاغتيال، بجوار كوبري كيهك، قبل مطلع الكوبري مباشرة، أمام فندق الفصول الأربعة. يا للعجب، إنه الموضع نفسه الذي اختُطفت منه! وهنا باغت الموكب ملثّمان من أبناء القبائل المتمردة، أطلقا النار على رئيس الوزراء السابق. تولّيت المنصب، وانفتحت طرق التهريب على مصراعيها، تظاهرنا بأننا نحارب القتلة والإرهابيين، ونحن في الواقع نتخذ منهم حراساً، ورجالاً نولّيهم على المناطق الصحراوية التي لا نعرف النفاذ إليها، أطلقنا أيديهم في فرض الإتاوات على فنادق الصحراء، بل وعلى شركات التعدين، أفسدوا سياحة السفاري، الأجانب والمستثمرون الذين حفروا المناجم لاستخراج الرمل الأسود والذهب من باطن الصحراء هجروها وجمعوا أدواتهم تحت وطأة غارات أبناء القبائل المتمردة، ولم نبالِ، تركناهم.

الآن أدفع ثمن هذه الجريمة. اختُطفت بالطريقة نفسها، والخاطفون، يتجهون بي إلى منطقة مجهولة. كنت أشعر أنهم سيقتلونني ويدفنونني حيّاً في هذه المزرعة. ربما يكونون الحرس الجديد، رجال الأعمال المنافسين في ملف الأدوية، ربما يكونون شركائي، الذين يكرهونني من الإتاوات التي أفرضها عليهم كل شهر. لي خصوم وأعداء كثر.

سرنا في ممرٍّ طويل مضاء بأنوار خافتة من مصابيح مخفيّة في الأرض. تدحرجت السيارات في الطريق، حتى وصلنا إلى قصر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في نهايته.

في هذه اللحظة كان الرجال الغلاظ يقتادونني في صرامة إلى داخل القصر، هناك ظللت محاصراً بينما يشهرون أسلحتهم في وجهي وظهري، لا بدّ أن سيد القصر يفوقني سطوة وسلطة حتى يشهر هؤلاء الرجال أسلحتهم في وجهي، دقّت خطوات، فالتفت، فإذا بالشاب الصغير يهبط السلم، ارتجف قلبي بين ضلوعي، لقد كنت ضعيفاً أمام الصبية، لكنني لم أتوقع أن يخطفني أحدهم. الصبي الصغير الذي دائماً ما كنا نسحق أنفسنا لإضحاكه لاستجلاب رضا أبيه البقرة. لقد كان هذا بداية عصر جديد.

(4)

ذهبت إلى الأبد، طوتني السنون، وظنّ كثيرون أنني انتهيت، تتراكم الأيام مثل أنقاض مبنى متهدّم، ظللت على هذا الحال حتى بعد خلع البقرة في الثورة التي اندلعت ضدّه منذ عشرين عاماً. آنذاك نلت انتقامي، وعُدت، ثم أُقصيت مرة أخرى.

زارني حسين عدة مرات، لم يزل يشعر بتأنيب الضمير والرغبة في نيل الصفح بعد موقعة اختطافي الشهيرة، التي تداولتها الغرف السياسية رفيعة المستوى، والتي اضطرّت الرجل البقرة للاعتذار مني، قبل إقالتي بعد ذلك بسنوات.

عدت فعلاً، لكنني صنعت من خدّي مداساً، سمحت لهم بتهريب أموالهم، دفنت معهم أدلّة جرائمهم النكراء، ثم ركلوني حينما جاءتهم الفرصة. يعود حسين، وقد أصبح شيخاً ومع ذلك لم يزل ممتلئ الجسد، ضخماً. ولم يزل يحتفظ ببريق التوثّب والغدر في عينيه، أعرض عليه قصة ممدوح، واجتماعاته مع النسوة وتنظيمهن، يُطرق مفكّراً، ثم يقول إنه سيسأل عن الموضوع.

لم ينفد ما في جعبة حسين حتى بعد استغناء وزارة التخطيط عن خدماته في أعقاب خروجي من الوزارة، لم يزل يرتبط بعلاقات سرية مبهمة لا أعرف عنها شيئاً، يتواصل مع ضباط في جهاز أمن الدولة، وأجهزة سيادية أخرى، يتردد على بعض رجال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخفراء، وشركة أمن الأدوية السرية التي أسست في حي مدينة سطح اللحم شمال العاصمة. مافيا الأدوية تطوّر أساليبها، صار لها مرتزقة و«بلاك ووتر» وميليشيا من موظفي الأجهزة الحكومية والأطباء والممرضين، وحتى الصحفيين. أسماؤهم مقيّدة على «البايرول» يتلقّون رواتب شهرية لتهيئة المجتمع لأي تحوّل. مارسوا عبر سنوات تعبئة المجتمع والناس بأحلام فانتازية، وتحويل السرير إلى حلبة لمصارعة الثيران، الباب لن ينفتح وحده للحباية الزرقاء، بل لأفلام بورنو شرسة يؤدي الأدوار فيها ممثّلو بورنو محترفون، يمارسون مضاجعات قاسية وشرسة، مدّوا للناس أيديهم بالخيال الجامح، وبالحبة الزرقاء القادرة على تحويله إلى حقيقة.

كانت إزاحتي قاسية، لكنها ولّدَت دروساً، المواجهة القادمة ستكون حباية مقابل حباية، حباية يتناولها جيل غاضب ناقم، ليتمكّن من كتمان أنفاسه، في مواجهة حباية رش خرطوش بماسورة بندقية نخرها السوس، يطلقها النظام الجديد صوب النسوة الباحثات عن طفل. وحينما جاء ممدوح بقصة مجموعة ذهني، استدعيت حسين، وبدأنا العمل مرة أخرى.

وضعني حسين في الصورة كاملة، قدّم لي تقريراً وافياً، على الرغم من رائحة اللحوم القذرة المنبعثة منه، عرفت أن ذهني وزوجته تردّدا طويلاً على أطباء الذكورة، وأنهم الآن محط أنظار فريق أمني يتبع شركة منشطات جنسية.

بدأت شركة أمن الأدوية تضعهم في دائرة اهتماماتها، كثرت زيارات ممدوح لي، إذ كان يأمل أن أتعاون معه لنضغط على الحكومة لرفع التامول من الجدول واستعادة نشاطنا وإعادة فتح مصانعنا المقفولة، لكني فضّلت ألا أدخل في نهاية عمري في معركة كهذه.

غادرني يائساً، ربتُّ على ركبتي، وأخذت أدعكها مرات عديدة، كأنني أحاول أن أدفئها. هذا هو ما يطلقون عليه أرذل العمر. عجوز مخرّف، لكن الطمع في المقعد لم يزل يراودني. الأمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتسلل إلى القلوب حتى المسنّة منها، ولكن السؤال الذي صرت اسأله لنفسي: لماذا يأتونني؟ يظنونني ذلك الرجل القادر على فعل الأعاجيب؟ لقد انتهى زمني، وما كان ينبغي لهم أن يضعوا فيّ كل هذا الأمل.

حين جاء حسين بعد ساعتين من لقائي بممدوح، قال وابتسامة ساخرة تستقر على زاوية شفتيه، كعادته كلما أراد أن يبوح لي بخبر مهم:

- فيه شغل كبير بيحصل في البلد يا عزيز بيه.. كل حباييك، المجموعة القديمة، مجلس المافيا الأعلى.. اجتمعوا وقرّروا يعملوا حاجات جنونية.. واضح إن قصة ممدوح بيه مهمة، أو على الأقل لازم حضرتك تهتم بها.

تأملت ملامحه. كان الشيب قد انتشر في شعره، والتجاعيد لاحت في جبهته، وإن احتفظ خدّاه برونقهما، وظللت أفكر في كلمتيه، اللتين استوعبت منهما خطورة كلامه. مجلس المافيا الأعلى، والمجموعة القديمة، يقصد رؤساء مجالس إدارات شركات الأدوية، رفاق السلاح القدامى، المتحكّمون واللاعبون الرئيسيون في أقدار الناس، وأجسادهم، وأعصابهم، وضغط دمهم، وشراييهم، ونسبة السكر في دمائهم، وكذلك سيولته في عروقهم، وتجلّطاته. السبعة الخطرون، الذين يحكمون البلد من خلف الستار، المتاجرون بكلّ شيء، بدءاً من البنادول ومجموعة الأنفلونزا، مروراً بالعقاقير الجديدة التي اشتروها من الولايات المتحدة لعلاج فيروس C، وانتهاءً بالمنشطات الجنسية على اختلافها، المتحكّمون في التشريعات الدوائية، والتشريعات الاجتماعية التي من شأنها تشجيع زيادة بيع الدواء، كإنشاء مؤسسة لتزويج الناس قهراً.

رفعت وجهي إلى الشمس مرة أخرى، وأغمضت عيني، فقال لي بهدوء إن المافيا حدّدوا مجموعة الشباب الذين طلبت منه الاستفسار عنهم وقرروا تصفيتهم، وقد خطفوا قائد المجموعة وزوجته وحبسوهما، ثم أطلقوا سراحهما مدفوعين بضغط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشارع حين اعتصمت النسوة في ميدان الخضراء، مدركين أن هذه المجموعة ليست هي الخطر الأساسي.

كررت له ما قلته لممدوح من قبل، أنا أصبحت عجوزاً غير قادر على اللعب ضد الجبابرة، لكنه أصرّ على أنه يجب علينا الانتقام مما فعلوه بنا. قال: «هو اللي حصل لحضرتك قليل؟ ولا اللي حصل لي معاك أنا كمان قليل؟».

لم أنزعج من إشارته الأخيرة، كان يشعر بما أشعر به من سخط وضيق، إزاء استبعادي للمرة الثانية، بالطريقة نفسها التي استبعدوني بها منذ عقدين. استدعوني لتمرير السلحفاة من جهاز «الإكس راي»، ثم لفظوني. كان هو ناقماً أيضاً فقد كان يُمنّي نفسه بمنصب مدير مكتب الوزير، وإذ به يجد نفسه في الشارع مطروداً شرّ طردة. هو أيضاً تعرّض للتنكيل مثلي، أو ربما عاقبوه لأنه كان بجواري طيلة السنين المنقضية، لا أعرف كيف كان ينفق في الفترة الأخيرة، لكنه عاش ظروفاً صعبة فعلاً، وأياماً بائسة.

سألته: «تقترح إيه؟ نتدخّل إزّاي؟ آخر الطريق دا إيه؟».

هزَّ رأسه في ثقةٍ وانفعال بالغين:

- زيّ ما تدخّلنا من عشرين سنة يا عزيز.. فاكر؟ مش كنا على اتصال بالمجموعات النشطة، مبخلناش على حدّ بالحبوب، ولا بالدعم، وفي عزّ البرد كان الكل واخد الجرعة، ومستعد للرصاص فوق الكوبري، هنعمل زيّ ما عملنا يا عزيز...

- هتعمل إيه؟ دا مش نظام البقرة.. احنا في عهد جديد.

كأنه انتفض فرحاً، أو استردّ أنفاساً محبوسة، لا يستطيع التحرك إلا بعد موافقتي رغم كل شيء، قال وقد نفض من على نفسه همّ ترددي وثقله:

- سوف نقدّم لهم كل ما يلزم من دعم، ولن تنفلت الأمور من أيدينا.

لكنها انفلتت، مثل «كرة ثلج» تتدحرج من قمة الجبل، علقت بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل الأوساخ، وظلّت تتدحرج حتى بلغت بابي. جاءت القوة ذات ليلة، ووضعوني في زنزانة قذرة مظلمة، ثم بدؤوا بعد ذلك بأسبوعين التحقيقات معي، لم أحتمل في أيديهم بضع ساعات من التحقيقات، اعترفت من أول لكمتين، وصفعتين، اكتشفوا تورّطي، حينما سارعت كل رموز الدولة العميقة في تقديم الدعم والتأييد للحكومة ضد المتمردات، كنت في غيبوبة، ولم أستطع أن أسارع مثل الآخرين بإعلان تأييدي، كنت أشعر بالجبن، وأصوات الطلقات في الشوارع تزيدني رعباً. لم أتصوّر مطلقاً أن تجري كرة النار إلى الحرب، كنت أتخيّل أن الشعب سيخرج، والديكتاتور سيستسلم، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل ربما خرج الشعب ضد الستّات. كأن هذا الشعب العجيب يرغب أن يفنى، لهذا خرج ضد نفسه. خرج لتأييد الرجل الصلف، الذي قاد بلد المحيط للغرق في المحيط، ولم يمانع من تدميرها ما دام سيبقى هو. حبسوني، وانتهى بي الحال إلى حجرة قذرة منحطة، والآن لم تعد لديّ حكايات جديدة لأضيفها إلى ما كتبته لجون، مبعوث الأمم المتحدة. أنا الآن في انتظارك يا جون، لأنك صرت أملي الوحيد في النجاة من هذا المحبس القذر.

حسين هو بطل هذه الحرب لأنه بدأها وأنهاها. هو أول ضحايا شاهيناز. كان هو الكبش الكبير. أبلغت عنه وسلّمته لقمة سائغة لمرتزقة الفارما، الذين لم يتخيّلوا أبداً أن يسقط في قبضتهم الرجل الخفي الذي أدار المعارك ضدهم لعامين من دون أن يتمكنوا من الإيقاع به، أو التوصّل إلى صورة واحدة عنه. بعد سقوطه، سقطت باقي قطع الدومينو، وثارت شبهات أنه تعاون مع المرتزقة لإسقاط باقي رفاقه. ربما يكون هو المسؤول عن إعدام ذهني وياسمين.

في السطور التالية يحكي حسين، سكرتير العزيز، ما يخصّه، يتراجع قليلاً إلى الوراء ليلقي نظرة على تاريخه، وعمله في المسلخ، يتطرق إلى واقعة اكتشاف الخادمة للبقع على قطعة ملابس «سين. عين»، وكيف قادت الجميع إلى مسكنه، كيف اكتشفت النسوة أن هناك رجلاً لم يزل يحتفظ بمخزونه من سائل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل الأوساخ، وظلّت تتدحرج حتى بلغت بابي. جاءت القوة ذات ليلة، ووضعوني في زنزانة قذرة مظلمة، ثم بدؤوا بعد ذلك بأسبوعين التحقيقات معي، لم أحتمل في أيديهم بضع ساعات من التحقيقات، اعترفت من أول لكمتين، وصفعتين، اكتشفوا تورّطي، حينما سارعت كل رموز الدولة العميقة في تقديم الدعم والتأييد للحكومة ضد المتمردات، كنت في غيبوبة، ولم أستطع أن أسارع مثل الآخرين بإعلان تأييدي، كنت أشعر بالجبن، وأصوات الطلقات في الشوارع تزيدني رعباً. لم أتصوّر مطلقاً أن تجري كرة النار إلى الحرب، كنت أتخيّل أن الشعب سيخرج، والديكتاتور سيستسلم، لكن شيئاً من هذا لم يحدث، بل ربما خرج الشعب ضد الستّات. كأن هذا الشعب العجيب يرغب أن يفنى، لهذا خرج ضد نفسه. خرج لتأييد الرجل الصلف، الذي قاد بلد المحيط للغرق في المحيط، ولم يمانع من تدميرها ما دام سيبقى هو. حبسوني، وانتهى بي الحال إلى حجرة قذرة منحطة، والآن لم تعد لديّ حكايات جديدة لأضيفها إلى ما كتبته لجون، مبعوث الأمم المتحدة. أنا الآن في انتظارك يا جون، لأنك صرت أملي الوحيد في النجاة من هذا المحبس القذر.

حسين هو بطل هذه الحرب لأنه بدأها وأنهاها. هو أول ضحايا شاهيناز. كان هو الكبش الكبير. أبلغت عنه وسلّمته لقمة سائغة لمرتزقة الفارما، الذين لم يتخيّلوا أبداً أن يسقط في قبضتهم الرجل الخفي الذي أدار المعارك ضدهم لعامين من دون أن يتمكنوا من الإيقاع به، أو التوصّل إلى صورة واحدة عنه. بعد سقوطه، سقطت باقي قطع الدومينو، وثارت شبهات أنه تعاون مع المرتزقة لإسقاط باقي رفاقه. ربما يكون هو المسؤول عن إعدام ذهني وياسمين.

في السطور التالية يحكي حسين، سكرتير العزيز، ما يخصّه، يتراجع قليلاً إلى الوراء ليلقي نظرة على تاريخه، وعمله في المسلخ، يتطرق إلى واقعة اكتشاف الخادمة للبقع على قطعة ملابس «سين. عين»، وكيف قادت الجميع إلى مسكنه، كيف اكتشفت النسوة أن هناك رجلاً لم يزل يحتفظ بمخزونه من سائل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحياة. يروي حسين جانباً من الوقائع التي تخصّه، منها قصة أسره في قبضة المرتزق، كيف سقط قبلها في قاع الحضيض بالعمل في المسلخ، وإضراب الجزارين، وأسطورة الست أم دينا، بعض الأجزاء في حكايته كان من الصعب الوصول إليها، لكني نجحت آخر الأمر في الحصول على كل المعلومات المطلوبة. كل الأبواب تُفتح لي لحسن الحظ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حسين «المشرحجي»

(1)

من أين أبدأ حكايتي لرجل الأمم المتحدة؟

يجعلنا نُدلي بكلّ ما لدينا ببساطة، ويمنحنا أوهاماً مثيرة للهرب، يغوينا بطلب اللجوء والحصول على فرصة المثول أمام محاكمة عادلة، وقتئذٍ سنتلقى الأحكام باستسلام، لهذا سأقول كل ما لدي.

أكتب له قبل أن أمضي إلى مصيري النهائي، ربما لن يكون بوسعي أن أروي له كل شيء إذا سقطت في الأسر، أو إذا قتلت، لكن لا شك عندي في أنه سيتولى معرفة مصيري من مصادر أخرى.

لا أجد نفسي إلا في حجرات الاستجواب الكابية، حيث متعة انتزاع الاعترافات، وصراخ المضبوطين الذي يتعالى بينما ننتزع منهم الحقائق. موسيقا روحية تسري بين خلايا جسدي، وتخدّرها، أرتاح بينما أراقب عن كثب نجاح خططي للسيطرة على الأجساد، أدرّس ضرورة التدقيق خلال ضرب المتهمين والمشبوهين في مواضع مدروسة، معروف أين يجب توجيهها.

كنت في فترة من الفترات، بعدما انضممت للعمل مع عزيز بيك، مسؤولاً عن تدريب ضباط أمن العسس على ضرب الأجساد ضرباتٍ محكمة، من دون أن يسفر ذلك مثلاً عن انقطاع الحبل الشوكي، أو كسر عظمة الترقوة، أو تحطيم ضلع، وضعت نظرية جديدة، هي نظرية علمية أستحقّ عنها جائزة نوبل: كيف تمسك الحياة في قلب الموت. كيف توزع الموت الذي يأتي فجأة إلى عشرات الأجزاء، فبدلاً من أن تقتل الشخص الذي تنتزع منه الاعترافات مرة واحدة، تقتله ألف مرة من دون أن يموت في أي مرة قبل الألف.

اكتسبت خبراتي طبعاً في الأقبية السرية لجهاز أمن العسس الوطني، الجهاز الذي تأسّس منذ عشرين عاماً، لمنع تكرار الثورة التي كانت الدرس المؤلم الذي كان يجب تخطّيه، ومنعه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التكرار.

تأسس الجهاز في أعقاب النداءات الملحّة بإنهاء عمل جهاز قلم الاستجوابات، هكذا كان اسمه، لكن هيبته تهاوت حينما حاصره الثوار، وهاجموا مقاره، واستولوا على مستنداته، وفضحوا رفاق العمل القدامى، فاضطرت الدولة تحت ضغط الثورة لتسريحهم. كنت واحداً من المسرّحين، ثم استدعوني مرة أخرى سراً، وأعلموني أنني لن أكون موظفاً في وزارة العسس، ولن يُقيّد اسمي على أي بايرول لجهاز أمني، وحوّلوا راتبي على وزارة التخطيط.

لكن بعد ذلك استغنوا عن خدماتي وطردوني من وزارة التخطيط، في مؤامرة دنيئة، وعقب طردي، وإيقاف تدريبي الذي كنت أزاوله في جهاز أمن العسس الوطني، تورّط عشرة ضباط خلال ستة أشهر فقط في وقائع ضرب وتعذيب مواطنين بأقسام أحياء الجهنمية الجديدة والترعة الصوفية، والمدينة الغايصة، والجبال الزرق، وعين الشوق، وبلد الشيخ وترعة النهر الحافي، وقد أسفرت كل هذه الوقائع عن موت المضروبين.

في نهاية الزمان خبأ لي القدر مساراً عجيباً لحياتي، صرت بقدرة قادر المسؤول الأول عن احتلال العاصمة، ضرب المناطق الاستراتيجية، قصف المعسكرات التي تأوي المرتزقة الذين يسمّون أنفسهم بالفارما. وحماية «سين. عين» الذي توصّلنا إليه أنا وذهني، عبر خادمة الست أم دينا، التي عثرت على نطفة في ملابسه. توصّلت إلى الرجل، وانتشلته من مخطّط خبيث، كان يستهدف قتله، كي نتساوى جميعاً في الفناء.

لم يعرف أحد ممن درّبتهم وجهي، ألقّن الضباط هذه الدروس عبر الفيديو، لا يرون وجهي، ولا يعرفون مني سوى صوتي، يسمعونه مع خريطة توضيحية للأجساد. في ما بعد ساعدني وجهي الخفيّ، في التنقل بحرية عبر المتاريس، التي قطعت أوصال العاصمة، وأن أمرق ببساطة إلى كلّ موقع عسكري بهويات عسكرية مختلفة، وبطاقات شخصية عديدة، وأوجه عديدة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشارب مرات، وبذقون مرات أخرى، أصلع مرة، وبشعر قصير مرة أخرى، وبشعر طويل مرة ثالثة.

يسمّوننا جلّادين. أرتدي قناعاً على وجهي، كي لا يتعرّف عليّ لا المضروب ولا الضارب، بينما أعطيهم ملحوظاتي على ضربتهم، كيف يجب أن يضمّوا قبضاتهم، أيّ المواضع في جسم كلٍّ منا يصلح أن توجَّه له لكمة، وأيّها يصلح للصفع، من دون أن يتسبب ذلك في كسر ضلع، أو تورُّم، كانت تجمعنا أقبية مظلمة مرعبة سيّئة التهوية، في سجون سرية تقع دائماً على أطراف الصحاري.

لقّبوني بالمشرحجي لتخصصي النادر، وقدرتي الهائلة على تشريح الجسد، وتفادي الأماكن الحساسة، الضرب من دون قتل فنٌّ هائل، وممارسته ممتعة، ويستلزم حساسية. أن تضرب وتعذب متهماً، وتحافظ على وسامته في آن واحد، فلا يتورّم وجهه بكدمات ضربك، ولا تترك آثاراً للطب الشرعي يمسكها عليك، ويحوّلك إلى النيابة بسببها.

حملت اللقب نفسه معي حينما غادر عزيز الحكومة للأبد، وحينما غادرت قبله كذلك مفصولاً طريداً ومشرداً، فاضطررت لحمل اللقب لأعمل في المسلخ، هذه المرة كانت وظيفتي السابقة مألوفة، أعمل على أجساد البهائم. بالنسبة لي الكلّ يتساوون. المجرمون الخطيرون، شباب الثورة، كل هؤلاء تعرضوا لتطبيق دروسي في الضرب والتعذيب من دون قتل، ويتساوون مع البهائم، التي كنت أستخدم السواطير في ذبحها وتقطيع لحومها وتشفيتها، وسلخها. وجدت نفسي في المسلخ، كما وجدتها في الوزارة. ما ساءني وغمّني، هذا الإنكار الذي وجدته، الصلف، الدناءة، إكراهي على التخلي عن كل مميزات وظيفتي السابقة: البيت الكبير، أرصدتي في البنوك، وسيارتي. تعرضت لعملية ذبحٍ مهنيّ، ذبحوني، وجرّدوني من كل شيء، كأنهم ينتقمون من العزيز في شخصي.

تعرّفت عليه قبل الثورة، حينما تلقّى طلباً من وزير العسس بتكريمي في حفل خاص نظير خدماتي الجليلة التي قدّمتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للوطن، حضر العزيز الحفل بالمصادفة، كان يبحث عن رجل من نوع خاص يحميه، ويكون حارسه الخاص. يومذاك حضر بدافع الفضول، ووقتئذٍ بدأت علاقتنا، التي استمرت حتى وأنا أؤسس الجهاز الخاص بعد الثورة.

بعد اندلاع الثورة التقيت شبّانها ورموزها بانتظام، كنت ألتقيهم سراً، وأحمل إليهم عبوات الأدوية، كانت عبوات «التامول» ملقاة على قارعة الطريق، في المستشفيات الميدانية العديدة التي أُنشئت في العديد من المناطق بميدان الخضراء، لعلاج المصابين. كنت أتردد عليها بانتظام، وأسلّم الأطباء المتطوّعين جرعات التامول، والترامادول اللازمة لعلاج الجروح، لكن بعد فشل الثورة، وانقلاب الكثيرين عليها، عاد عزيز ليتولى رئاسة الوزارة، وكان من الطبيعي أن أعود معه، فإذا بتقارير رقابية تنهال على مكتبه، تحذّره من الاستعانة بخدماتي، لكنه ضرب بها عرض الحائط، إلا أن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحدّ.

في ذلك اليوم، كنت عائداً إلى ڤيلّتي بالشارع المتميّز في حي الكهوف السود. اشتريت هذه الڤيلا قبل الثورة، كانت ڤيلتي الوحيدة من بين عشرات الشقق التي كنت أشتريها وأغلقها. لم أكن أشتريها جميعها بمقابل، غالباً ما كنت أحصل عليها نظير تسوية ما، أو إنهاء مصلحة لأحد الأشخاص النافذين. وكنت أتلقى مقابل خدماتي هدايا يصعب ضبطها، وأستطيع أن أواريها باستمرار: شقق أكتبها باسم شقيقتي التي اخترعتها على الورق، واخترعت توكيلاً ممنوحاً منها لبيع وشراء وإدارة ممتلكاتها العقارية. أستخدم هوية شقيقتي حتى حينما أرغب في السفر، وقضاء بعض الوقت في منتجعات أصدقائي الذين أخلّص لهم صفقاتهم العالقة، أسجّل وصولي إلى الفنادق ببطاقة شقيقتي، وأمنح مدير المنتجع أو الفندق إكرامية سخية، ليتغاضى عن رؤيته شقيقتي، فيكتفي فقط بتسجيل بطاقتها، لأن شقيقتي لن تحضر في الحقيقة، لن تحضر أبداً، لأنها ليست موجودة، إلا في ثلاث أوراق: شهادة ميلادها، وبطاقة رقمها القومي، وتوكيل بيع وشراء باسمي. رشوت ثلاثة موظفين لاستخراج هذه الأوراق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رشوت موظفاً بسجل الأنفس ليثبت ميلاد شقيقتي منذ عشرين عـــاماً، ورشـوت موظفـاً آخـر ليسـتخرج لـها أوراقـها الثبوتيـة المختلفة، شهاداتها المدرسية، بطاقتها الجامعية، شهادة تخرجها، وبطاقة الرقم القومي، هكذا خلقت مواطنة من العدم، وأثبتُّ أنها شقيقتي، ثم رشوت ثالثاً لا يعرف زميليه السابقين، يعمل موظفاً بالشهر العقاري، جعلته يلتقي هانماً من الهوانم اللاتي أعرفهن، ليسـتخرج لـي توكيلاً دائماً بإدارة ممتلكاتـها، باسم شقيقتي المزعومة، وجعلته يغضّ النظر عن كون الهانم لا تشبه صاحبة البطاقة الشخصية المجهولة، وهكذا أتولى الحصول على شقق، وسكنها، أو بيعها مرة أخرى وقتما يحلو لي، لكن كل الأموال، تـذهب إلـى رصيد شـقيقتي البنكـي، الـذي يتضـخم بشكل غير منطقي، وغير معقول.

كنت عائداً إلى ڤيلتي إذاً، وقد كنت أفضّل السير من دون حراسة كي لا يلتفت الناس لهويتي، توقفت بالقرب مني عربة نصف نقل، وأطلّ منها رجلٌ يرتدي جلباباً بدوياً، وعمامة بيضاء من الكتان، كان يميّز وجهه شارب كثّ ولحية كبيرة. بدا أشبه بشخص ضلَّ طريقـه، فــي العــادة لا ألتفـت لأي شـخص يسـتفسر منـي عـن اتجاهات الطرق، أو يستوقفني في الشارع ليسأل عن أي شيء، فالقواعد الأمنية تحتّم ألا أقترب من شخص ما يجلس في سيارة لأجيب عن استفساره، لكنني تخلّيت عن حذري هذه المرة بعدما لاحظت الفاتنة التي تجلس بجواره، كانت بيضاء الملامح، ترتدي إيشارباً أسود يلمع قماشه في الليل. دققت في ملامحها، كانت نظراتها واضحة تنادي وتدعو، تقول أشياء، اقتربت مأخوذاً بها، أمّا الرجل فقال:

- يا سعادة البيه.. إحنا ضلّينا الطريق.. تسمح تستضيفنا عندك، ينوبك ثواب في أختي ما ينفعش ألفّ بيها طول الليل.

شـعرت بغـرور ابـن المـدينة، الـذي يمتلـك المـأوى، والسـلطة، ابن المدينة المارق، الذي لديه استعداد لنهش بدوية جاهلة ساذجة، لـم تـرَ المحـيط مـن قبـل، ولا تعـرف غـير الصـحراء القاسـية، والتـهامها، مصّ تذييها، ثم طردها في الصباح، كنت أحمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زجاجتي نبيذ لأنني اعتدت أن أختم يومي بكؤوس النبيذ كي أهدِّئ أعصابي، وأطفئ تأهبي الذي دام طيلة اليوم، شعرت بالنشوة، والحماس، وأبديت ترحيباً مباغتاً، قادني ببساطة إلى الشِّرك، لم ألحظ بساطة الخدعة: أيّ طريق تاه عنه الرجل؟ كان يجب أن أسأل نفسي السؤال، لكن حذري خانني.

أنا رجل الحذر والحرص، سقطت في الفخ. حينما دخلنا القيلا، كان الرجل يستدرجني إلى أنه متفهِّمٌ رغباتي، أبدى رضوخاً أعجبني، وأغراني. ابتلعت الطعم كاملاً، تفهّمت أنه قوّاد الفتاة، وليس شقيقها كما ادّعى، كيف لم يُثِر ريبتي؟

حين جلسا فوجئت أنها فائقة الجمال، وأن الليل كان يسكب غيمته على بهائها، التصقَت به أولاً أثناء جلوسهما، فدعاها الرجل إلى أن ترتاح في جلستها، فإذا بها تفكّ حجاب رأسها، وتطلق شعرها كأنها في منزلها. فوجئت بجدائلها السوداء الناعمة، وارتعشت، وأنا الذي لا يرتعش أبداً، مهما رأى.

من دون أيّ مقدمات أخرجت من جيبي مبلغاً ووضعته في كفّ الرجل، ونهضت مشيراً للفتاة كي تتبعني.

في الحجرة ضاجعت وردة، وهذا هو اسم الفتاة، بشهوة جائعٍ محروم، منعوا عنه الطعام قرابة الشهرين. احتضنتها في شوق حبيبٍ يلتقي حبيبته مصادفة، ثم كان كل شيء، كأنها المرة الأولى التي أضاجع فيها غريبة، أو مضطرّة.

(2)

بينما أتفقّد بقايا معركة كوبري بابه، كنت أشعر بالجزع على ما اقترفته يداي، كانت فكرة ملعونة تحوي في قلبها رماد احتراقها. الدماء المنسكبة هذه الليلة والتي فاضت ووجدت طريقها عبر ثنايا الكوبري إلى النهر المالح، كانت أكثر من احتمال أيّ قائد عسكري، فما بال قائد ميليشيا مثلي، أبيدت أمام عينيه أربعة كتائب من النسوة، قوام كلٍّ منها أربعمئة شابة باسلة، بعدما حاولن اقتحام حي الخطابين عبر الكوبري، فإذا بشرك الأهالي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومرتزقة شركة الأدوية يطبق عليهن.

الشابات اليافعات اللاتي ظللت أدرّبهن أشهراً على القتال وحمل السلاح، والرماية والضرب والنشان، ضعن مني في ساعة عراك غير متوقعة. هذه هي النكبة.

ندم مثل ذلك انتابني منذ سنوات، يومذاك قلت لروحي أيضاً: «هذه هي النكبة»، قلتها بعدما غادرت مكتب العزيز إثر مواجهة ساخنة بيني وبينه، بدأها صائحاً في وجهي بغضب: «أين ذهب حذرك يا حسين؟»، ثم ألقى بصور في وجهي، مردّداً أنهم خيّروه: «إما هو يمشي، أو تمشوا أنتو الاتنين».

كيف تسلّلوا إلى الڤيلا، وزرعوا الكاميرات، وصوّروا المضاجعة بيني وبين وردة؟! خيانة، ومكيدة سقطت فيها بمنتهى الغباء، وأنا ملك الحذر، أتلصّص على الطرق وأستكشفها، قبل الخوض فيها، فإذا بقدمي تضغط على إبرة اللغم، وإذا بالانفجار يهشّم عالمي.

طلب مني تسليم كل شيء لفرقة من الرجال ستأتي لجرد كلّ ملفّاتي بوزارة التخطيط، ومصادرة كلّ أملاكي، وأرصدتي، وأملاك شقيقتي المزعومة، انكسر ظهري ولم أستطع أن أتكلم، ولا أن أنطق.

إنها التعليمات التي تحدث باستمرار أمام أعيننا، كلما سقط أحدنا، يحدث هذا في ما يسمى بمرحلة «البراية»، الموظف الذي يسقط بفضيحة مجلجلة، يجب أن يتم بريه، أي سلبه كلّ موارده، ومصادرة أملاكه، نظير كتمان الفضيحة، وإنقاذه من السجن مع خلعه، وإعفائه من منصبه. مرحلة البراية لا تجري بالكيفية نفسها مع كل موظف رفيع المستوى يسقط، لكن إن فاحت رائحة أحدهم، وتمت السيطرة عليه، مثلما حدث معي، وإذا رفض الاستسلام للبراية، يدخل مرحلة أخرى تسمى «الموس»، أي يُجهّز ملفّه، ويُحوّل للنيابة، هنا تسلك الأجهزة صاحبة الضربة طريق القانون، لأن الموظف رفض الاستسلام، فيوضع تحت حدّ الموس، بدلاً من إدخاله للبراية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن لماذا جرى هذا معي؟

كنت قد مضيت في تأسيس جهاز أمن العسس الوطني إلى أقصى مدى، عمليات قذرة كثيرة، نفوذ هائل، سلطات واسعة، وميزانية للإنفاق والصرف على تدريب الضباط من دون سقف، وهكذا صرت مغناطيساً للأطماع في موقعي، خاصة أن وجهي غير معروف إلا لعددٍ محدود من القادة.

عزيز أيضاً كان طرفاً في الموضوع، الخدمات التي قدّمتها له، والحماية التي وفّرتها لتحرّكاته، ولصفقاته، أثارت حسد كثيرين وضيقهم، خاصة خصومه النافذين، هؤلاء رغبوا في الإطاحة بي، كان عزيز يدرك جيداً أن الإطاحة بي تعني ببساطة إجباره على خلعه البنطلون وقضاء حاجته عارياً في ميدان عامّ.

جاؤوا إلى ڤيلّتي التي شهدت المضاجعة، وسلّمتهم كلّ شيء. كانوا سبعة، وثامنهم يرتدي نظارة سوداء، جردوا محتويات الڤيلا، وعثروا فيها على مفاتيح سبعٍ وثلاثين شقة أخرى، صاحب النظارة السوداء أجبرني على التوقيع على تعهُّد أنني وشقيقتي المزعومة لا نملك أيَّ شققٍ أخرى، أجبرني أيضاً على التوقيع على شيك على بياض بمبلغ خمسمئة ألف دولار، رجوتهم، وقلت لهم إني خدمت البلاد وقدّمت خدمات جليلة لها، ويكون مصيري الآن أن أنام في الشارع. لكن رجلاً صارماً منهم أمرني بأن أبعد عن العزيز بشكل تام، كما أمرني بأن أقطع اتصالاتي بكل الضباط الذين أعرفهم في أجهزة الدولة، وهدّدني بأنهم سيحوّلون كلّ أوراقي للنيابة العامة إذا ما خالفت هذه الأوامر.

ذهب الرجل وفرقته، طردوني من الڤيلا، وشمّعوا أبوابها، ووضعوا عليها أقفالاً من الخارج، ظللت واقفاً في الطلّ، يلسعني العراء، أضرب رأسي في الحيط، ضاعت مني الشوارع، تائه من دون بوصلة. كيف هويت هكذا؟ لم يمدّ عزيز يده إليّ لينتشلني، قال إنه مرصود. طرقت أبواباً عديدة، وجدتها جميعاً مغلقة، عشت شهوراً من التشرد والحاجة، إلى أن وجدت نفسي أخيراً أعمل في محل جزارة، بعيداً عن الفاسدين والكاذبين. ليس من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السهل أن تعمل في مجالٍ كهذا، لكن خبراتي في التعامل مع لحم البشر أغراني. هنا أستطيع أن أفرّغ طاقتي المتوثبة للانتقام، في ذبح أجساد حقيقية، البهائم. كلهم بهائم، وكنت أريد الانتقام بذبحهم.

في شارع المسلخ بالسيدة وردة بدأ الكلّ يدعونني بلقبي القديم «المشرحجي»، وقد اتخذ معنى جديد، كانوا يتندّرون بقدراتي الفائقة على الذبح والسلخ، ويلوكون سيرتي في جلسات سمرهم الليلية، حتى إذا طلع النهار، يتقاتلون عليّ لأعمل في كل محلّ وفرشة من فرشات الشارع بالساعة، يتنادون بمهارتي، وقدرتي على ذبح الذبيحة ونفخها وسلخها في وقت قياسي، طغت شهرتي في الشارع، وتطايرت أقوال تنثر حكايات أخرى ما أنزل الله بها من سلطان عن كوني «مخاوي».

إلى أن جاءني مرسال من لدن الستّ أم دينا، الكلّ يعرفها، صاحبة سطوة ونفوذ في السيدة وردة كلها، في رمضان تعلّق الذبائح في محلاتها الأربعة التي تحتل طرفي شارع المسلخ أوله وآخره، ولمدة ساعتين في اليوم، تمنح كيلو غرامات اللحوم مجاناً للفقراء، البعض يقول إنها تفعل ذلك للوفاء بنذر، البعض الآخر يتداول سراً حكاية أسطورية مخيفة، يحكون عن جنّيٍّ تعشقه، يضاجعها بعد الفجر، لذلك تدفع باللحوم للفقراء تكفيراً عن الخطيئة. لا أحد يعرف الحقيقة. كان لها خنّ تذهب إليه في منتصف النهار «لتقضي»، أي لتدخّن سيجارة محشوة، الكل كان يلوك هذا أيضاً ضمن سيرتها، حينما يرون سيارتها تقترب من مدخل شارع المسلخ يمرقون في سرعة، ويتهامسون: «الست أم دينا رايحة المصلحة، ساعة المزاج والكيف حلّت»، الكل في الشارع يضبط توقيته بخروجها، وعودتها، أما أنا فمضيت إليها وأنا أرتجف من القلق والحيرة، وأفكر: كيف لم ترشّح نفسها في الانتخابات في مواجهة مرشح المنطقة الثابت «سعد النجوم» قبل الثورة؟ مرَّ عليّ في المسلخ خمسة عشر عاماً، حكم الرئيس الحالي طيلة تلك السنوات، والدنيا استقرت، انقطعت علاقتي بالعزيز، تقريباً. انتهى زمني القديم، وصرت واحداً من جزاري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المذبح، ثم تستدعيني أم دينا بعد كل تلك السنوات؟!

كنت أتخيّلها معلّمة تجلس وأمامها أقدام الكوارع الضخمة، أو قطع الكبد النيئة، أو رزم النقود، وخزائن بطول الدولاب.

كنت أشعر أن مصيري سيتغيّر على نحو ما وأنا أتجه لرؤيتها.

كان محلّها عميقاً كأنه مغارة، وينتهي بحجرة مكتبها الخشبية، التي ما إن دخلتها، حتى طالعت على الحائط آية قرآنية:

«إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ».

سقط نظري من الآية المعلّقة على الحائط إلى السيدة التي تجلس في صدر الحجرة، خلف المكتب الكبير، سطحه كان خالياً، هي نفسها كانت تبدو مثل ملكة تجلس على عرشها، تجلس مرتاحة، هادئة، تدخّن سيجاراً. ملامحها تبدو وادعة، سيدة رصينة، لا تعبأ بهموم الدنيا، على الرغم من الحمل الثقيل الذي تديره، والحكايات التي تتطاير حولها، ترتدي فستاناً بلون أزرق غامق، وتضع على كتفيها شالاً ثقيلاً من الصوف، رجالي النوع، وينسدل عليه شعرها الأسود المصبوغ بلون فاحم ثقيل، تاركة شعيرات طويلة تتحرر بشيبها الأبيض وسط شعرها الحالك، عيناها سوداوان حرصت على تكحيلهما، ورموشها طويلة، تضفي خطورة ورهبة على نظراتها.

رمقتني بضع ثوانٍ، قبل أن تنهض وتميل نحوي، من دون أن تغادر موقعها خلف مكتبها، ثم صافحتني بكفّها اليمنى في حزم. شعرت بقبضة سيدة لطمها الدهر، وردت له اللطمة، نقلت السيجار إلى كفّها الأيسر الذي تزيّنت أصابعه بخواتم ملأتها الفصوص، ثم جلست، ومن دون أي مقدمات قالت: «الجان معرفوش إن النبي مات، إلا من نملة.. قعدت تأكل صولجانه، وتفتفت فيه لحدّ ما طبّ ساكت».

حافظت على صمتي، وأنا لا أعرف ماذا تعني بهذه العبارة، لكن بدني اقشعر حينما بدأت حديثها معي بسيرة الجان، ثم أردفت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسـرعة وهـي تشـد نفسـاً مـن السـيجار، كأنـها تخشـى أن تفقـد سيطرتها عليّ:

- أنت هنا بقى بتتجسّس على مين في المسلخ؟

تـراجعت بظـهرى إلـى مسـند المقعد، وأنا أحاول فهم مقصدها. أعرفت حقيقتي؟ من أخبرها بقصتي؟ ابتسمتْ، فتحوّل وجهها إلـى الرقة والوداعة، كأنها أم تبتسم لطفلها الذي اعترف بذنبه بعدما افتضح أمره وقالت:

- هـو فيـه رِجلـين تـدبّ هنـا فـي الشـارع، ولّا حدّ هيتنفّس وأنا ميكونش عندي خبر؟ أنا برضه النملة قالت لي إيه حكايتك، بس مقالتش أنت هنا بتعمل إيه!

قلت وأنا أتأملها ساخراً:

- وهي النملة بتاعتك دي مش بتقول كل حاجة ليه؟ ولّا نملتك نـامت قبـل مـا تكمـل لك حكايتي؟ ولّا النبي داس عليها برجله وفعصهالك؟

أطرقت بنظرها إلى الأرض، محافظة على ابتسامتها، لكن شفتيها تلوّنت ببسمة غرور مع ذلك، كأنها تستمتع بتهكمي، وتتعامل معه كصياد يطارد وعلاً، ثم رفعت عينيها ببطء، وصوّبت نظراتها على عيني قائلة:

- أنا ممكن أخلّي النملة تقرصك وأنت نايم.. تقول لي أنت هنا ليه، بتعمل إيه، أسيبك تشتغل وتعيش بيننا وتأكل عيش.. هتكمّل في اللبط والملاوعة يبقى كلام تاني!

قلت متهكّماً بجرأة عجيبة:

- يا ستّ أم دينا، أو يا ست بلقيس.. أنا بشتغل جزّار، وكنت زمان الحارس الخاص لوزير من الوزراء.. كل اللي عملته زي ما أنتي شايفه: كاريير شيفت.. معنديش حاجة تانية أقولها.

ضحكت ببطء، كأنها تطلق سعالاً، أو كأنها تمصمص ضحكاتها، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تكتمها، شعرت أنها تتعمّد ألا تبدو سهلة، وتريد أن تحكم هيبتها، كي لا تنفرط منها قوتها، هيئتها التي تستمد منها تأثيرها في الناس، قالت:

- فاكر إنك لمّا هتقول لي كلمتين إنجليزي مش هفهمك أو هتلخبطني؟ أنا يا عم مشرحجي أو يا حسين بك، خايفة عليك من نملتي.. سواعي تساهيني، وتروح تعضّ حدّ مضايقني، أو تاعبني، هي نملتي دي كدا، متحبّنيش أكون مش مرتاحة.. أنا عارفة أصلك، لكن مستنّياك أنت تحكي.

نهضتُ، قائلاً في سأم:

- بقول لك يا معلمة.. عندك نملة ولا فيل.. بإذنك.. أنا إيدي متعاصة دم وعاوز أروح أغسلها.

واستدرت لأغادر، فلاحقتنى ساخرة:

- سلامة إيديك يا حبيبي. دم البهايم على إيدينا كرامة. ماعاش ولا كان اللي يعوص لك إيديك بدم البهايم تاني يا.. يا حلو!

غادرت محلها متخبطاً، وكلمتها الأخيرة ترن في أذني، تحمل تهديداً مبطناً، هذا واضح، ظللت أفكر في ما قالته، إنها تعيد وتزيد في قصة نملتها، هل لديها نملة فعلاً؟ تسخّر كائناً من الجن يؤذي أعداءها بأمرها؟

(3)

ظننت أن أكبر أذى تعرضت له في حياتي، ما فعلته فيّ الست أم دينا، لكن الآن، وبعد سنوات من تدخلها للضغط على «دهشور» ليطرحني عن الأورمة الخشبية، أتذكّر أن هذا لم يكن أذى أبداً، أتذكّر ذلك بينما فوهة مسدس مصوّبة إلى رأسي، وصاحبها يطلب مني كل المعلومات المتوفرة في رأسي عن «سين. عين» وعن مجموعة ذهني وزوجته ياسمين، وعن كمية السلاح المتوفرة لدى كتائب النسوة، المنتشرة في مداخل الكهوف السود، وبابة الشمس والمنتظر والسيدة وردة، وتلك التي تستعدّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للانقضاض على حي الكرماء، من ناحية الكوبري، وكذلك الكتيبة التي تستعد لتفجير جدار كوبري قصر القضاة، الذي يُفضي إلى ميدان الخضراء.

تناقلت التلفزيونات صورتي، عقب نبأ القبض عليّ، بعدما اشتهرت بأنني صاحب عملية إنقاذ «سين. عين» من الحصار الذي ضربته مرتزقة شركة الأدوية، لكنهم لم يحصلوا على صورة لي قطّ قبلها، الآن، بينما أقبع داخل هذا المبنى القذر، الواقع على أطراف طريق مدينة سطح اللحم، أتذكّر سنوات عديدة مضت، أتذكّر بداية الحرب، حينما استيقظت بلد المحيط على عربات المرتزقة تطوّق ميدان الخضراء، وتطلق نيرانها في شراسة على النسوة المعتصمات فيه، بعد ذلك لم يهتف أحدهم أبداً بكلمة «سلمية»، النسوة استخدمن مطابخهن لصنع القنابل، تحوّلت الشوارع إلى كمائن موت، كانت فكرة تسليح بعض أفراد الأمن العاملين بالفارما، فكرة مجنونة جلبت الخراب.

في زنزانتي، جرّدوني من ملابسي، كهربوني، استخدموا معي كل أساليبي المتوحشة، أنا المشرحجي، الأسطى القديم، المعلّم الأول، جاء تلاميذي لانتزاع الاعترافات مني، لكن كيف سقطت؟

هل بيننا خائن؟

مؤكد!

سقوطي كان بفعل وشاية مدبرة، لكن من صاحبها؟

ذهني أقرب المساعدين لي، وأحد أبرز المسؤولين عن التشكيلات القتالية المتمركزة في منطقة المنتصر. ياسمين، لم تكن هناك. كانت في ترعة النهر الحافي، بل وانقطعت أخبارها طيلة اليوم. الرجل الأجنبي كاتب التقرير، ما مصلحته؟ ليس هناك سواها: الشمطاء، المسخ.

فوجئت بالهجوم، كان التعامل انتحاراً، خاصة أنني لم أكن في كامل تأهّبي، فرق الحراسة التي تصحبني كانت قد سبقتني إلى شارع المطاريد، حيث تنتظر إمدادات، فوجئت بالمدافع المشهرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تطوّق رقبتي. وقعت ضحية اختراقٍ لعين، انسحبوا بسرعة بصيدهم الثمين، كنت في هذه اللحظة الفريسة. حينما تعرف عليّ أحد تلاميذي في السجن المعُدّ على عجل، لضرب النسوة اللاتي يقعن أسرى، وتعذيبهنّ، وانتزاع الاعترافات منهنّ، شعرت بالغرابة. الرجل لم يكن يتخيّل أنني سأكون صيده، ربما سمع عني من الواشي، لكنه لم يصدّق. جاء الرجل ليعاين الصيد الذي عادت به قوة المرتزقة التي نفذّت الهجمة، ثم ابتسم، حينما التقت العيون، قال لي:

- أستاذنا! يا أهلاً يا أهلاً.. أنت مشيت في سكّة النسوان الوسخة دي؟

قلت في تحدٍّ:

. لو سكّتهن وسخة.. فأنت ماشي في سكّة الخرا.

لم يعقّب، نظر إليّ باستخفاف، لكن عينيه كانتا تومضان، كأنه يدرك أنني أرغب في استفزازه. انتزع مسدسه، جعلني أراه بينما يفكّ خزانته، جعلني أرى كل رصاصة يعيد فكّها وتركيبها في الخزانة، ثم قال وهو ينحّيه جانباً ويشعل سيجارة:

. آخر حاجة سمعتها عنك يا حسين إنك كنت بتشتغل جزّار.. إيه اللي مشّاك في سكة النسوان دي؟ عاجبك اللي وصلتله البلد؟ الدم اللي سايح؟

تذكّرت كلمة الست أم دينا «دم البهايم على إيدينا كرامة»، فابتسمت، ولم يفهم الرجل سبب ابتسامتي، صوّب نحوي مسدّسه، بعدما أعاد تذخيره، ثم قال:

- فرحان ليه؟

قلت وابتسامتي تتسع:

- افتكرت حاجة عزيزة عليّ.

في اليوم الذي تلا لقائي بها، وجدت صبياً آخر من صبيان المعلّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«دهشور» واقفاً على الأورمة التي تخصّني، كنت قد تقلّبت عدة مرات على فراشي تلك الليلة، وجافاني النوم، ظللت أتقلّب متخوفاً من حكاية النملة، اشتريت بودرة نمل من العطار خلال عودتي، ورششتها بجوار فراشي، وقبل دخولي الفراش لففت سيجارتين، وشربت كوب شاي، وطهوت لحماً وأرزاً وخضاراً وأعددت طبق سلاطة، وجلبت بصلاً أخضر لظنّي أن النمل ينفر من رائحته، واستحممت، ثم انقضضت على وجبتي أتناولها بكلّ شهوة، كأنني أضاجع الطعام، ثم مضغت البصل الأخضر كأنني أمضغ علكة مسكرة، وتأكدت أن رائحة فمي باتت معتقة بالبصل، وأنه من المستحيل أن تقترب مني أي أنثى، وليس مجرد نملة تافهة.

بعد الأكل عزلت كل ملابسي القذرة عن مكان نومي في الحجرة الضيقة التي أستأجرها نهاية شارع المسلخ، ووضعتها في ملاءة وربطتها، ومسحت الأرض بالفنيك، ورششت البودرة، ووضعت نفسي في الفراش متهيّباً، وأنا أظن نفسي قد بتُّ معزولاً عن نملها الغادر.

لكنني في المنام رأيت نملةً عملاقةً، سوداء ويقطر من شدقيها زبدٌ مقزّز سمنيّ اللون، سميك وشديد العفونة، تنتصب على أرجلها الخلفية، وقد شقّت الحائط، وبرزت بقائمتيها الأماميتين وتقدّمت من فراشي، لا أدري كيف انتزعتني من ملاءتي، وحملتني كأني طفل رضيع، من دون أن تبتر ذراعي مثلاً، حملتني والتفتت بي إلى الحائط، الذي ظلت أحجاره مشقوقة في موضع خروجها، كان المشهد برمته مرعباً، دخلت بي النملة في الحائط، وابتلعنا الظلام، فاستيقظت هَلِعاً.

شربت جرعة ماء، وحاولت العودة للنوم، مراقباً الجدار الذي كان صامتاً، بريئاً كأنه لم ينشقّ منذ لحظات. في الصباح قلت إن هذا لا ريب تأثير البصل الأخضر. دلقت على جسدي الماء الساخن، وشربت شاياً، ولففت سيجارة حشيش، واخترت قميصاً نظيفاً، وارتديت فوقه بالطو أبيض اعتدتُ ارتداءه لأميّز نفسي عن باقي ظبيان المذبح الذين يرتدون» مراييل ملطّخة بالدماء، أو مبقّعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من آثار ذبح أمس، ونزلت سريعاً إلى محل دهشور متجهاً في حماس تجاه الأورمة التي أعمل عليها كل صباح منذ سنوات، فوجدتها للمرة الأولى مشغولة بشخصٍ غيري.

توجّهت نحو الصبي، ونهرته بعنف وعصبية، وأنا أتذكّر النملة:

- واقف هنا بتعمل إيه يا حلو؟ دي أورمتي!

نظر إليّ الولد بعصبية، كانت هيئتي تبعث على الرثاء، دائماً حينما تُزاح من موقعك، يفعلون الحركة الدنيئة نفسها، يأتون بأحدهم ليحلَّ محلك، ويجلس على مقعدك، سواء كان هذا المقعد في الوزارة المرموقة، أو أمام الأورمة الملطخة بدماء البهائم. كسر الفتى نظرته مطرقاً وقال في خوف: «المعلّم هو اللي قال لي أشتغل مكانك».

هرعت نحو المعلّم دهشور الذي كان يجلس داخل المحل، بينما أحد زغاليله يرصّ له حجر المعسل، وقفت أمامه غاضباً، كدت أتوسل إليه، ورائحة الحجر تغريني، وتنهشني، وبقية من كرامة تصدّت لي، فظللت صامتاً أحدّق فيه، بينما هو يتأملني بنظرة خاوية كسولة، كأنه لم ينم كفاية.

- صباح الخير يا معلّم.. ليه يا حلو موقف سعد مطرحي؟ وعلى أورمتي؟ حد قال لك إني عيان؟

أخذ يجذب الأنفاس، وهو يجرّب رصة الزغلول للحجر، ثم نفث دخان الشيشة في وجهي قائلاً ورمش عينه اليسرى يرتعش كعادته كلما انفعل:

- معلش يا مشرحجي.. من هنا ورايح مش هينفع نشتغل مع بعض.. أنت من سكة وإحنا من سكة.. وإن كان ليك حساب عدّي آخر الشهر وخده وعليه حتة ملبّسة.

نظرت نحوه والغلّ يكاد يحرق عيني، كنت أفكر في أشياء عديدة، تذكّرت بغتة كيف طُردت من جاهي وسلطاني، والآن أُطرد من محل جزارة حقير منحطّ، ومنسي، ومهمل، ولا أحد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعرف عنه أي شيء في شارع مجهول.

استدرت ببطء ورحلت. الآن أنا كائن متهدم استوت أنقاضه بالأرض. من فعل هذا بي؟ مضاجعة منسيّة ذات ليلة حطمتني وألقت بي هنا؟ أم نملة عملاقة، دست شوكتها في فتحة شرجي، فاجتثت خلية الحظ والبخت؟

في تلك اللحظة، وأنا منهار تماماً، اقترب مني زغلول من زغاليل محل الست أم دينا، وقال لي: «بيسألوا عليك يا معلّم».

انتبهت، شعرت أنني أنهض من حلم ثقيل، رمقت الولد، وقلت في نفسي هل يمزح، أم أنها تطلبني فعلاً؟ هل ناداني: يا معلّم؟ سألت روحي مرات: ماذا أفعل؟ أهرب من هنا، أم أذهب إليها؟ وأين أهرب وأنا مهدم هكذا؟ هي بالفعل تحاصرني في فوضاي، بل هي سبب فوضاي، قلتها في نفسي وظللت أرددها، إذا كانت هناك فرصة للذهاب إليها، فلتكن الآن.

***

لم أصدّق ما سمعت، ولا ما رأيت. هل حقاً عضّت شفتها السفلى وغمزت لي بعينها اليسرى، وطلبت مني أن أعمل في محلّها في النهار، وأن أذهب معها آخر اليوم؟ قلت لها: «اللي تشوفيه يا ستّ!»، ثم توجّهت نحو الصبي الذي أشارت إليه كي يقودني إلى حجرة الجزّارة الكبيرة، ويدلّني على العمل.

نسيت أن أبلع حبة الترامادول المعتادة، شعرت بصداعٍ شديد، وأنا أعمل في الذبائح مثل الثور، احتجت عدة مرات أن أذهب لسنّ السواطير و«البروة» أو الخنصر، خرجت أيضاً لشرب كوبَي شاي على القهوة وتناول سندوتش سمين، ظلت الأفكار تروح وتجيء في رأسي، لقد قالتها هكذا: «تنفّذ اللي أطلبه منك.. يا حلو تبقى ملكي». وعضّت شفتها. أنا لم أكن ذلك الرجل الذي تبدو عليه ملامح الفحولة الجنسية. كنت قد صرت بديناً، وافر اللحم، تبدو على ملامحي علامات الصحة وعنفوانها، وفي ساعدي قوة من زمن غابر، هل هذا ما جذبها فيّ؟ هل شعرت أنني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخص آخر؟ طينة أخرى؟ انتابني الزهو.

ربما أوهمها تاريخي أنني أنتمي إلى فئة أخرى من الناس؟ لمجرد أنني رجل سابق بالحكومة ركلته مؤامرة خسيسة، هل هذا ما جذبها فيّ؟ أنا الذي أكلت الثمرة المحرّمة من شجرة الشهوة، لم أتلقَّ إنذاراً من السماء، ولم يحثّني إلهامٌ على تجنّب الشجرة، فسقطت، سقطت في طشت العظام المتبقية من البهائم المنحورة، كنت أرعن تماماً، فإذا بالستّ أم دينا تلتقطني، هل تتوهّم أن لديَّ بقية من المجد الغابر؟ لعلها تظنّني مدسوساً عليها، ولذلك ستقدّم لي نفسها؟ كيف تفكّر الست أم دينا؟ وما اسمها الأصلي؟

(4)

قبل سقوطي في الأسر كنت قد وجدت طريقي إلى السلطة، هذا هو التحوّل الثالث في حياتي، خرجت من الوزارة إلى الجزارة، ومن هناك إلى الإمارة، صرت قائداً بمحض المصادفة، ومهندس عمليات حرب غير متوقعة، أنا أعرف موقعي بالضبط، وأعرف ما أفعله أو ما ورّطت نفسي فيه من مخاطر، لكنني لم أسقط بسهولة، لأنني حافظت على سرية وجهي.

لم تكن هناك صورة دقيقة ومتداولة لملامحي في قبضة ميليشيا المرتزقة التي نقاتلها قبل سقوطي في أيديهم مصادفة. صرنا المارقين الانفصاليين في خطب الجمعة، ينعتوننا بالكفرة والملاحدة أعلى المنابر، وفي تلك الخطب منحونا لقب الخوارج.

أجهزة الدولة الرسمية تنعتنا بالمتمردين المخرّبين، المنشقّين، رافعي عصا الخراب والعصيان، نحن حتى الآن مجهولون، ولا يعرف أحد قضيتنا الحقيقية التي نقاتل من أجلها. نجحت في حراسة وجهي، في الوقت الذي كانت تليفزيونات ميليشيا الفارما تبث صوراً للنسوة المقاتلات، المطلوبات لمحاكمات عديدة بتهم الإخلال بالنظام والسلم العام، والتمرد ومحاولة قلب الحكم، والانفصال عن الدولة وجرّ البلاد إلى حافة الحرب الأهلية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صور المحاربات التي كانت متداولة في كل مكان، في المناطق التي تسيطر عليها قوات مرتزقة الفارما، لم تنهِ الحرب، لأن الحرب انتهت فعلاً بسقوطي، كان ينقصهم صورتي، ليجهزوا علينا. في مكتب ما من مكاتب جهاز المرتزقة الاستخباراتي الخاص، كان الجميع يتحدّثون عني، ويشيرون إليّ بلقبي: المشرحجي، الضباط كانوا ينشرون المخبرين ويجنّدون المواطنين الشرفاء في محاولة للوصول إلى صورتي، بحثوا في أضابير وزارة التخطيط التي كنت أعمل فيها، نقّبوا في كل صور العزيز، ومؤتمراته الصحفية، بحثاً عن صورة لي، ربما أكون ظهرت فيها بالمصادفة، من دون أن يعثروا على شيء.

الخلاف بيني وبين ذهني، المكشوف الوجه، المعروف لدى المرتزقة، على قيادة النسوة، كان سبباً في ارتكاب مجازر فادحة بحق الفتيات والنساء اللاتي وثقن فيه، وفيّ.

بينما أستقبل ذهني في محل الست أم دينا قبل الحرب بعامين، ارتسم على نحو غامض خيط كبّلنا معاً، وصنع مصائرنا المشتركة في ما بعد. هناك أشياء تحدث بالقرب منك، ولا تتخيّل أن تكون سبباً في تحوّل كبير في حياتك، لكنها تفعل. كان هو من أسرّ لي بحكاية النسوة اللاتي سقطن في المذبحة، قال لي يومذاك والغضب ينطلق من عينيه إن النسوة لن يسكتن، نظّموا أنفسهن وقرّرن الانتقام، لكنّهن بحاجة إلى من يدرّبهن ويجلب لهنّ السلاح.

وكنت أنا هذا الشخص. كنا في كل ليلة ننهي عملنا أنا وذهني في محل الست أم دينا، ونذهب لنعاين أسلحة بدائية، تصلح لتنفيذ هجمات صغيرة، لكنها قد تحقق أهدافاً كبيرة. في البداية ارتكبن اغتيالات سريعة وحاسمة ودقيقة لكبار قادة الميليشيا ممن شاركوا في مذبحة الاعتصام.

تلا ذلك نقل السلاح في حذرٍ وخوف إلى أماكن تجمّع النسوة اللاتي أصررن أن ينلن شرف الضربة الأولى. أول مخزن سلاح، كان في جزيرة الحطّابين، الواقعة في قلب النهر المالح، ويمرّ بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكوبري، الذي ينتهي في ما يعرف بوكالة الحطّابين. هناك راكمنا العديد من قطع السلاح، التي حصلنا عليها في حذر من تجّار مخضرمين، تعاملوا معنا على أننا ننتمي لعائلة من عائلات الأعيان تسعى لإنهاء خصومة ثأرية بمذبحة كبرى، فتفهّموا حاجتنا إلى الكميات الكبيرة.

كنت أعود من رحلات تخزين السلاح، وتدريب مجموعات متتالية، إلى قصر الست أم دينا، كنت قد أدركت نيّتها، ستتخذ مني خليلاً وسأكون عاهرها، بعدما ضمّتني إلى محلّها، وكان هذا سرّها الكبير، الذي عرفته بالمصادفة.

انتهى يومي الأول في المسلخ بغروب الشمس، وإذا غربت الشمس تخفّ القدم على الشارع، وتهدأ الحركة، وتهجع الأنفس، طلباً للراحة من الشراسة المتأهبة للذبح، وللنحر. أغلق الجميع محالّهم الواحد تلو الآخر، لمحت للمرة الأولى الصبيان وهم يعملون في همّة لجمع الأدوات وعدّة الجزارة، ورأيت كيف تحين منهم نظرات حذرة وقلقة تجاه محلّ الست أم دينا، الواقع في أول الشارع ناحية المستشفى.

تشعر أن المحالّ تُغلق وفقاً لاتفاق غامض، أو وفقاً لسقوط أحجار الدومينو. الكلّ ينتظرون الستّ أم دينا. تتحرك بخطا وئيدة، خارجةً من المحل، فتنحني لها الأنظار طوعاً بشكل مريب، مشهد لم ألحظه من قبل، وكنت أظنّني رأيته مرة فلم أنشغل به، الأبصار منكسرة، والنظرات تتجنّبها، وتتحاشاها، كأنها ميدوزا، يخشون أن تلتقي أعينهم بعينيها، كي لا يتحوّلوا إلى مساخيط.

في ذلك اليوم كنت وحدي أحدّق فيها، وهي كانت تحدّق فيّ، ثم أومأت للصبي الذي سلّمني عدّة الجزارة، فتحرك في عفوية، كأنه يدرك الدور المرسوم له، ويعرف ماذا عليه أن يفعل، ربّت على كتفي، وقال لي: «تعال».

ذهبت معه، بينما مشت هي في الاتجاه المعاكس لنا، ركبنا توك توك، خرجنا به إلى ميدان السيدة وردة، كل شيء يدور هنا في رحابها، وهي في مرقدها، كانت قد اشتهرت بكراماتها، فقدّسها

79 قراءة متعمقة من «النسخة الالكترونية»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناس، وطافوا حول مقامها، ومنها استمدّت نسوة الحيّ نفوذهن، وصرن متوّجات. قال الصبي بينما نترجل من التوك توك: «استنّى الستّ هنا!».

أمور غامضة، هل تخاف الملكة من الأعين التي انكسرت أمامها؟ هل تخاف أن أركب معها سيارتها كي لا تطعنها الألسنة؟ أم أنها تحاول أن تضلل الله عن أفعالها؟

اقتربت سيارتها وانتشلتني من الطريق ومن أفكاري، جلست بجوار السائق، بينما جلست هي خلفنا. كانت ترمقني بنظرات شغف وإعجاب، انقلبت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تلتقي فارس أحلامها، شعرت بالخجل والتوتر، وسائقها يقود بنا غير مبالٍ، كما لو كان سائقاً من الشمع، أو كأنني كتلة من الهواء جلست بجواره، قادنا إلى الطريق المؤدي إلى كوبري الخواجة، الذي يعلو النهر المالح، ويربط بين قلب المدينة في الشرق بأحيائه الشعبية، باب الشمس وباب القمر، وباب النور، وقلب المدينة الغربي، بلد الشيخ، والسوالمة، وعين الشوق.

عبرنا الكوبري، تلقّفنا الطريق الموصل إلى بلد الشيخ، قبل أن يلفظنا في نفق «مريدي الشيخ»، الذي سلّمنا إلى وجهتنا المنتظرة، منطقة اعتادوا على تسميتها بـ«السبعين قيراط» تقع ما بين السوالمة، وبلد الشيخ، تبدو منعزلة نظراً لابتعادها عن عمار العاصمة المعهود، لكن قباب قصر مهيب ظهرت فجأة من بعيد، محاطاً بأسوار شاهقة، كأنه دير لفظته المدينة إلى الصحراء، تتعبّد فيه صاحبته وحدها، أو معبد يخصّ شهرزاد، ولكن كيف تصله الكهرباء وأعمدة الإنارة؟ من مهّد له هذا الطريق الأسفلتي الخاص؟

في القصر كنا كما لو أننا انتقلنا إلى حدوتة من حواديت الليالي الألف.

كنت مأخوذاً، محتاراً بقباب القصر المهيبة، التي جعلت منه أشبه بالمقام، أو القلعة المسحورة ذات القباب المحبوس فيها جحافل نمل يأتمر بأمرها، «كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها قصراً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ببلد المحيط، بثلاث قباب بيضاء تشبه قباب مسجد السلطان المنتصر.

حين دخلنا إلى القصر قادتني خادمة في ممرّات معتمة، تسقط فيها ظلال قادمة من نوافذ متتالية، كأنها صُمِّمت لهذا الغرض، لإنارة ممرات القصر ليلاً، وتوقفت بي أمام باب كبير فتحته في رفق، فإذا بنا في حمّام واسع تفوح منه رائحة عطور مريحة.

الأنوار خافتة، مصدرها شموع طويلة لا تحترق على الرغم من ذؤابة النار في قمتها. تضيء الحمام بوهن، لكن نورها كافٍ لرؤية البانيو الكبير، المغطى بالكامل برغاوي الصابون. خلعت الخادمة ملابسي القذرة الملوّثة بدماء الذبائح، جرّدتني من كل شيء، ثم دفعتني برفق تجاه الماء الدافئ، شعرت بالبهجة المباغتة، والراحة الصافية، أغمضت عيني وصارت الخادمة تسكب فوق رأسي الماء. اكتمل نزول جسدي في حوض الاستحمام. صبّت الخادمة سائلاً طيب الرائحة، كأنه عطر في صورة صابون استحمام، أو كأنه عسل أبيض.

ثم فجأةً شعرت بملمس مختلف، كفّان خشنتان، أصابع معروقة، يد ليست حانية مثل يد الخادمة، التفتُّ إليها في حذر، وأنا أحقّق صاحبة اليد، كانت الست أم دينا عارية مثلي، بينما تبدو الخادمة غريبة وهي بكامل ثيابها بين عاريين، ارتعشت، وشعرت برجفتي، فربّتت على جسدي في حنوّ، بينما يتهدّل ثدياها فوق رأسي، وتبدو ثنايا جلد بطنها ومقدمة حوضها بتجاعيدها، رمقت شعر ملتقى حوضها، تلك الغابة السوداء بين ساقيها، فأشفقت على نفسي، وواريت امتعاضة كادت تقفز إلى ملامح وجهي التي تقلصت فعلاً، بينما هي تبتسم ابتسامةً كلّها لهفة وشوق، كما لو أنها كانت على موعد معي منذ سنوات. ظللت أراقب أفعالها في لهفة، فطوّقت عنقي بساعديها، وطبعت قبلة بشفاه جافة، ذابلة، ثم مدّت أصابعها تجاه ذكري، وجذبته في قوة، كدت أشهق معها، فخففت من قبضتها ومالت على وجهي، واعتصرت شفتي بشفتيها الجافتين. كانت ساحرة عجوزاً، تشرب من رحيقي، لتستعيد بهاءها، وكنت قد انتصبت فعلاً لكنني لم أزل مأخوذاً بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفعله سيدة النمل.

(5)

لم يحدث، وكان ذلك سبب الحرب التي اندلعت في بلد المحيط.

يبدو أن هذا لم يفاجئ الست أم دينا بقدر ما فاجأني، لم يغضبها بقدر ما ضاعف عندها خيبة أمل غامضة، كأنها شعرت أنها هي الملعونة، بينما كنت مستسلماً. ضاجعتها أكثر من ساعتين بحماسٍ منقطع النظير ونهمٍ متواصل، ظللنا في مضاجعة محمومة بحوض استحمامها أكثر من نصف ساعة، لم يشكُ بدنها من الارتجاج المتواصل، ثم خرجنا بالمناشف وأنا أدعك جسدها في شغف، وذكري منتصب أمامي، لم أكن أعرف الطريق إلى حجرة نومها بطبيعة الحال.

ما إن خرجنا من الحمّام، حتى اصطدمت عيناي بطرقات قصرها المعتمة، قادتني من ذكري، مثل خروف تشدّه من حبلٍ في عنقه. دخلنا حجرة نومها، حجرة نوم الجزّارة، سيدة شارع المسلخ، كانت غارقة في الدفء، على الأرض أبسطة ناعمة كأنها مفروشة بالحرير، وفي وسط الحجرة فراشٌ كبير للغاية، يصلح أن ينام فيه خمسة أزواج، مفروش بملاءات وردية زاهية، وتغطيها أغطية ناعمة بألوان حمراء فاقعة وروزية. تذكّرت أن هذا الذوق لا ريب يليق بسيدة تعمل في مجال الجزّارة، اختلط ذوقها بذوق الرجال، لكنّها تحاول باستماتة حراسة طابع الأنوثة، وسط كل هذه الخشونة التي تحاصرها.

استكملنا المضاجعة حتى تعبنا، وصلت هي إلى الذروة أكثر من مرة، انتفضت، وشهقت، وأطلقت صراخاً أجشَّ من صندوق حنجرتها حتى ظننتني أضاجع رجلاً، كان صراخها ينصبّ في أذني مباشرة، لكنّه لم يفسد شهوتي. فقط التعب والإنهاك جعلاني أنهار في النهاية، فسقطت من فوقها. ظلّ ذكري منتصباً بضع ثوانٍ، قبل أن يبدأ بالترنّح، والخمود.

رمقتني ورمقته وقد ارتخى قبل أن تستدير إلى الدرج الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجاورها، فتحته، فوجدته عامراً بالسجائر الملفوفة. أينعت رائحة الحشيش، أشعلت واحدة، ونفثت دخانها في ضيق، ثم ناولتني السيجارة، وقبل أن تتركني أستمتع بتدخينها، قالت بصوت أجشّ مخيف:

- مفيش فايدة.. زيّك زيّهم.. بدأت أشكّ إني مش ملعونة، العيب مش مني.. العيب في الرجّالة اللي باختارهم.

ظللت صامتاً، أفكر في ما قالت، تنفست بصوت مسموع، شعرت باختناق، ثم قلت:

- تقصدي إيه؟

زفرت في حنق، وغمغمت وهي تنظر إلى سقف حجرتها:

- عاوزاك بكره تيجي معايا مشوار لحدّ باب الشمس.. عندي ندر عاوزه أوفيه.

حافظت على صمتي، نهضت مستلّة عريها من حضني، كان جسدها العاري قد تبدّى لي أسفل الضوء الخافت ممشوقاً أكثر مما ينبغي. كانت عملاقة وفاتنة. كيف احتفظت بفتنتها رغم تقدّمها في العمر؟ تمشي فلا يتبدّى في جسدها أيّ ترهّل أو تهدّل أو أعضاء تعاني من الشيخوخة.

توجّهت نحو روب معلّق على مقعد أمام تسريحتها وارتدته، أخذت تتفحّصني بنظرات مستريبة، فيها بريق الندم، والخزي، والخذلان، كأنها أفاقت فجأة، فاكتشفت أن حشرة تقضم لقمتها، قالت في بطء وهي ترنو إلى الأرض:

- ميّتكم راحت فين يا رجالة؟ بقالي سنتين مش لاقية نقطة.

ثم نهضت مقتربة مني وانحنت تتحسّسني في شغف، كأنها تراني للمرة الأولى، وقالت في توسّل عجيب:

- أنا محتاجاك جداً.. أنت لا تتخيّل أنا ممكن أعمل فيك إيه.. أنت كمان مش هتخرج من القصر دا إلا لقا...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصمتت، كانت تمسح على شعري، وتتحسّس وجهي بشغفٍ عجيب، بينما تقول الكلمتين الأخيرتين، فلم أفهم قصدها، ارتجفت، وبلعت ريقي، محاولاً استيضاحها، لكنها لوّحت لي باشمئزاز وازدراء كي أخرج من الغرفة.

سرت في الممرّ المعتم خارج حجرتها، واستلقيت هناك، لم أدرِ كيف نمت بينما تصطرع الأفكار في رأسي: ما قصة النشفان الذي أصابني؟ في الصباح وجدت نفسي في حجرة ضيقة، أشبه ببدروم. أحدهم نقلني إلى هذه الحجرة، ووضعني في الفراش، وغطّاني بأغطية كثيرة، لكنني لم أزل عارياً، نهضت، وأطلقت سعالاً حاداً كاد ينزع قلبي من موضعه، قلت لا ريب أن هذا من أثر النوم في الممر البارد المؤدي لحجرة الست أم دينا. كأن سعالي كان إشارة لتأتي الخادمة، طرقت الباب، ودخلت تحمل صينية الطعام. راقبتني وأنا أمسح الأطباق مسحاً، ثم قالت لي فجأة بلهجة متهكمة:

- إيه اللي جابك في سكّتها بس؟

- يعني إيه؟

- أنت سابع واحد تقعد تمصمص فيه كل الليل، وما تطلعش منه بنقطة.

انتابني الذعر وأنا أردّد:

- تمصمص فيه؟

مالت نحوي قائلة في شهوة:

- بتنام معاهم في الليل، والصبح بيروحوا لقدرهم، زيّ أيّ شهريار محترف.. أنت الوحيد اللي فلت بعمرك، لأن الست أم دينا صحيت الصبح على خبر حريقة في التلاجات.. أنت محظوظ.

صحت بذعر وأنا أنهض لأرتدي ملابسي: «حريقة!».

وأنا أغادر القصر فوجئت بمشهد قبض قلبي. كانت المقابر تطوّقه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من كل جانب، أسوار مقابر مترامية تحاصر سور قصرها العالي، حتى شكل القصر في النهار كان يشبه المقابر التي تحيطه، كأنه مقبرة تتوارى في المقابر المحيطة به، عدوت بأقصى ما أستطيع، كي أسبق الأرواح التي تحوم حول شواهد القبور. شعرت في لحظة أن الخادمة أنقذتني، وأنها ردّت إليّ روحي التي كادت تسلبها الست أم دينا، مثل أي شهريار محترف! يا لها من تسمية مرعبة! كنت أفكر في المصير المخيف الذي نجوت منه، وبدلاً من الهرب منه وجدت نفسي في شارع المسلخ، أمام محل الست أم دينا، الذي تفحّم تماماً.

(6)

كلما طال قتالنا في الشوارع ظلّ السؤال معلّقاً في سمائها من دون إجابة. وماذا بعد؟ هل نحرِّر المدينة من المرتزقة الذين احتلّوها ذات ليل؟ هل نسيطر على كل شيء؟ وإذا حدث، هل تعود المياه إلى مجاريها في شرايين الرجال؟ هل هدفنا أصلاً استعادة الأطفال للمدينة؟ وهل يأتي الأطفال في هذا الخراب؟ ولماذا؟ كي يعيشوا فيه؟ أليس من الأفضل أن نجلب الأطفال للحدائق والجناين؟

***

حينما غادرت قصر الست أم دينا، في ذلك اليوم، على نبأ الحريق الذي اندلع في المحل، وتوجهت إلى هناك، رأيت أهل المسلخ يشاركون في إطفاء النار، هم أنفسهم الناس الذين تضامنوا بعد عامين مع النسوة المقاتلات، واعتصموا وأغلقوا شوارعهم بمنطقة السيدة وردة في وجه قوات العسس وميليشيا الفارما.

كانت الست تجلس أمام المحل المتفحم، وتتوكأ على عصاها، كأنها ملك تلقّى على الفور نبأ سحق كل جيوشه في معركة كان يظنها محسومة، تنظر إلى المحل المحترق نظراتٍ ملتهبة تنزّ غضباً مكتوماً، تضيّق ما بين حدقتيها، وترفع أحد حاجبيها في إصرار. ما إن رأتني حتى غضّت عني بصرها، كأنها تستنكف النظر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إليّ، كل المعلّمين الكبار كانوا يشرفون على الزغاليل الذين وقفوا فـي صـفوف طويـلة يتنـاقلون جـرادل المـاء. كـل أرقـام مـرفق الإطفاء تجاهلت بلاغ الحريق، لم تظهر عربة إطفاء واحدة، لم يحضر شرطي واحد لكتابة محضر، أو معاينة، لم تتحرك عربة بوليس، ولـم يحضـر وكـلاء النيابـة لأخذ أقـوال صاحبة المحلّ المحتـرق، كمـا يحـدث فـي العـادة. شـاركت فـي رفـع الأخشـاب المحترقة، والثلاجات التي تفحّمت، وبداخلها العجول المذبوحة المتفحمة هي الأخرى.

أكثـر من ستّ ساعات ونحـن نحاول إزالة آثار الكارثة. سمعت الست دينا تقول بوضوح:

- أوساخ البلد هم اللي ولّعوا فيّا الولعة دي، والأوساخ مش بيحبّوا غـير اللحمـة وبيكرهوا العضم.. من هنا ورايـح هورّيهم عضمي ناشف إزاي.

لـم أفـهم مـا تعنيـه السـت أم دينا بتـهديدها، شعرت أنها تتوعّد منافسين لها في المسالخ الأخرى، لكن خلال الأيام التالية أدركت ما يحدث، فقد بدأ إضراب كبير عن العمل في المسلخ.

لم يذبح أحدهم بقرة، أو بهيمة، جفّت الأرض وتوقفت مسامها عن شرب المزيد من دماء البهائم المذبوحة. يتوجّه الجميع إلى محلاتـهم فـي الصبـاح، يفتحونـها، يـرشّون أمامـها، ثـم لا شـيء يحـدث بعـد ذلك. صمت تـام عن العمل. يتحمّل المربّون تكلفة العلـف المرهقـة وازدحـام المزارع بـالأبقار التـي صـارت تتكدّس، الدبّاغون توقفوا هم أيضاً، البلد انتابها حالة من الجمود، سرت دعوة الإضراب إلى كلّ المسالخ في أنحاء الأحياء الأخرى. أضرب الجميع، وجفّفوا سكاكينهم، وغسلوا أيديهم من آثار دماء البهائم، ظلـت مرايـيلـهم بيضـاء ناصـعة، أغلـق الجـزّارون محلاتـهم، حـار أصـحاب الـولائم كـيف ينظّمونـها. عـجز كلّ الجزارين المحليين خـارج المسـالخ عن شـراء بهيمة واحـدة، وحتـى إذا اشـتروا في النهاية، امتنعوا عن شحذ سكين.

البلد باتت من دون نسيرة لحم فى الموائد والصوانى. انخفضت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسعار الألبان، والجبن، والزبادي، بشكل دعا مستثمري مصانع الجبن والزبادي لعقد اجتماعات لأنهم صاروا يبيعون بأسعار رخيصة وزهيدة لمنافسة الموردين المحليين الذين يوردون الألبان غير المبسترة من المزارع بأسعار زهيدة تجعل المنافسة صعبة، في المقابل ارتفعت أسعار الأسماك والدواجن بشكل شاهق، تضاعف الإقبال على الثروة الداجنة، فشلت خطط وزارة التموين بإغراق الأسواق باللحوم البرازيلية. عصابات مجهولة تعقبت شاحنات البضائع العملاقة التي كانت تنقل اللحوم المستوردة من موانئ المحيط واستولت عليها، وألقوها في سفح جبل الولي للفقراء والغلابة والمساكين، أو ألقوها في مياه ترعة النهر الحافي الشبيهة بالمستنقعات المسمّمة. ضجّ المواطنون بسبب نقص اللحوم المستوردة في الأسواق. توقفت الحركة السياحية في منتجعات الصحراء بعدما عجزت فنادقها عن تقديم اللحوم في وجباتها للنزلاء. نشطت مافيا ذبح لحوم الحمير، وبدلاً من أن تتلقّاها الأسود والنمور بحدائق الحيوان، استقبل عدد من المستشفيات مواطنين مصابين بحالات تسمُّم بالغة، بعدما تناول أصحابها وجبات مفرطة من لحم الحمير، وضلوع البغال.

استدعى رئيس مجلس الوزراء رئيس غرفة القصّابين في الغرفة التجارية، وهدّده بالسجن ما لم يتدخل لإنهاء الإضراب.

فعقد الأخير اجتماعاً مع رؤساء غرف القصابين بالأحياء الكبرى والمناطق الراقية، حذّرهم فيه من مغبة استمرار الإضراب، وخطورة ذلك على اقتصاد البلاد. نددوا برأس الفتنة، ردّدوا مراراً كلمة «الحيّة» في إشارة للست أم دينا، التي كانت تصلها الأخبار، وتتابعها بشغف مهول، وهي جالسة في محلها الذي احترق ورفضت أن تجدده. كانت تكرر: «هاقعد لهم على تل الخرابة لحد ما النار تاكل رجليهم».

أدركت ما للست أم دينا من قوة، أدارت معركة الإضراب بقسوة وحزم لتنال ثأرها، لكن بقي السؤال: من حرق محلها؟ وما شروطها لإنهاء هذه الحالة العجيبة من منع ذبح اللحوم في

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البلد؟

حاول أحد الجزارين اختراق الإضراب، فذبح عجلاً لأحدهم خلسة، في حي من أحياء العاصمة المترامية. اختفى الجزّار، لم يعد إلى منزله، جاءت زوجته مصطحبة عياله، تتوسل للست أم دينا أن تعيد زوجها، لكن الست صرخت:

-مش راجع لك يا روح أمك.. يروح يدبح من ورايا وعاوزاه يرجع؟

هتفت الزوجة ملتاعة:

- ضاق علينا الحال والله يا ست الكل.. بقالنا من أول ما بدأتوا العند دا، وإحنا مدخلش بيتنا لقمة.

- كان ييجي لي يا روح أمك ياخد مصروفه ومكنش عصاني..كنت هشغّله في محلات الفرارجية.

عرفت أنها كانت تدفع مصروفاً للجزارين العاطلين عن العمل، ليظلوا طوع أمرها، ولا يفكرون في عصيانها. لم أذهب معها إلى قصرها العالي في الأيام التي تلت الحريق، إلى أن أتت ليلة اتجهت نحوها في تصميم، وقلت بلهجة خنوع عجيبة:

- ست الكل...

التفتت إليّ، ثم حوّلت نظرها عني وهي تقول:

- ولا ينفع نتكلم أيّ كلام.. أنت راجل نشفان!

قلت متلعثماً:

- أوعدك يا ست الكل أني أجيب لك غرضك.. لكن، أرجوك، أنا مش عارف أقول دا إزّاي.. أنا والله معرفش اللي حصل دا حصل إزّاي.. أنا ممكن أخدمك.. أعرف إزّاي أوقع لك اللي مزعلينك.

نظرت إليّ بريبة، كأنها تتفحص ما قلت، ثم أشاحت بنظرها بعيداً عني مرة أخرى قائلة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مش محتاجة حدّ يساعدني...

ثم توقفت في نصف عباراتها، والتفتت نحوي في اهتمام:

- تقصد إيه إنك تعرف حدّ يوقعهم؟ أنا عارفة الأوساخ اللي حرقوا محلي وعارفة إزّاي هقدر أذلّهم.

قلت في انفعال:

- وهم الأوساخ دول قليلين؟ دول بيقولوا على روحهم وطنيين يا ست أم دينا، وماسكين البلد من لباليبها، أنتي مش هتكوني دريانة بيهم قدي...

ابتسمت لأول مرة. أول بسمة أراها على وجهها، لم تبتسمها حتى ونحن في أشد لحظاتنا حميمية، كانت تتشنّج وتنتفض بعنف، ويمتقع وجهها في انفعالات الذروة.

(7)

لم ينتهِ الإضراب على سلام. تصاعدت المواجهة، حاصرت عربات البوكس قصر الستّ أم دينا في بلد الشيخ، قبل ذلك طوّقت قوات العسس شارع المسلخ بعربات مدرّعة، وأرسلت وفوداً من الأمن إلى محلّها تطلب منها إيقاف الإضراب، والسماح للجزارين بمعاودة الذبح.

لكن كل هذا لم يشغلها.

كانت فوقية، خادمتها، قد أسرّت لها بأنها عثرت على أحدهم، أو تحديداً عثرت على شخص ما، يمكنه أن تقضي منه وطرها. استدعتني في مكتبها المحترق، كان أحد الصبية يرصّ لها حجر الشيشة، وطلبت مني أن أذهب وأقابله لأنني الوحيد الذي يمكن أن تثق فيه.

قطع حديثنا دخول صبي يخبرها بأن هناك ضباطاً في الخارج يريدونها، فقالت له بغضب: «حطّ لي كرسي برّا في الشارع».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقف الضباط يشعرون بالرهبة في مواجهتها، وهم ينقلون لها التعليمات المبعوثين بها. كنت أعرفهم من سنوات العمل السابقة حين كنت أدربهم على الضرب من دون قتل، لكنهم لا يعرفون إلا صوتي، فآثرت الصمت. استغربت أن يُرسل ضباط بحجمهم للتفاوض على فضّ هذا الإضراب، وقتئذٍ استشعرت خطورة قدرها. كانت تجلس في هذه اللحظة أمامهم على مقعد فوتيه مذهّب مرتاحة تماماً ومطمئنة، دسّت بين شفتيها السيجار وأشعلته وهي تغمض عينيها لتتفادى الدخان المتصاعد. ثم نفثت دخانه في وجه الضباط، وقف أحدهم يتفحّص وجوه الجزارين المتأهبة حولهم، فيما خاطبها آخر بعصبية وبدا محتداً وهو يحاول إقناعها بأن تنهي الحالة بسلام، ضماناً لاستقرار البلد، لكنها أجابته باستخفاف قائلة: «وبالنسبة للمحل دا اللي اتحرق يا روح أمك؟».

صرخ الضابط وهو يستلّ مسدسه ويصوّبه نحوها في حدّة:

- أنت بتقولي لي أنا يا روح أمك؟

حين رأى الجزّارون المسدس المصوّب إلى الست استلّوا أسلحتهم من أغمادها، لكنّها رفعت ذراعها الأيسر بحركة مباغتة. خفق قلبي وأنا أستعدّ للمجزرة القادمة، مشهد مبهر، كأنها تجلس على حصان، وليس على كرسي فوتيه، كأنها تتقدّم الصفوف، أو في ميدان حرب، وليست في شارع متفرّع من حي السيدة وردة. نهضت وتقدّمت نحو المسدس المصوّب تجاهها، حتى التصقت فوهته بصدرها، فتراجع الرجل متوتراً، قالت الست أم دينا ببطء وعيناها تلمعان ببريق الإثارة: «ما تضرب يا روح أمك!».

بدا على الشاب الغضب والتصميم، جذب إبرة أمان المسدس، فتقدّمت بغتة، ووقفت بينه وبين الست أم دينا، وقلت في حسم:

- جرى إيه يا هيثم؟

بوغت الرجل، ارتخت قبضته الممسكة بالمسدس، وقال:

- أنت تعرفني؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تفرّس زميله في وجهي، قائلاً بتشكُّك:

- الصوت دا مش غريب عليّا!

قلت في حسم محاولاً إخفاء انفعالي:

- أنا عارفكم واحد واحد، ودرّبتكم واحد واحد، في مبنى سطح اللحم، القطاع الشمالي.. اجتماعات الضرب الأبيض.

تراجع الضابطان، نظر إليهما زملاؤهما في حيرة، أعاد صاحب المسدس سلاحه إلى غمده، رمقتني الست أم دينا بإعجاب قبل أن تخفيه وهي تعيد عقد ما بين حاجبيها، شعرتْ لوهلة بالضيق، لأن زمام السيطرة خرج من كفّها إلى كفّي.

غادر الضباط بعد ذلك من دون أن يحققوا ما جاؤوا من أجله، لكن الست قرّرت أن تصحبني إلى قصرها مرة أخرى، لكن هذه المرة لهدف مختلف.

حين وصلنا وضعت الخادمة أمامنا أشهى أطباق الطعام، أربعة أزواج حمام مشوي، أطباق عليها فراخ مشوية، أطباق أرزّ معمّر، محاشي ورق عنب، وباذنجان، وأطباق سلطات مختلفة، شعرت برائحة الأكل تدير رأسي، على الرغم من خلوّه من اللحوم. قالت:

- كُل.. لأني هكشف لك سرّ من أسراري.. مش عارفة هتصون السر.. لكن هتروح مني فين لو لعبت بيّا؟!

انقضّت على المائدة، أكلت بشهية مفتوحة، أكلت سعيدة بانتصارها، وبإخضاعها رجلاً آخر من جنسنا، شعرت أنها تأكل لترضي انفعالات القلق والهلع التي مرت بها، وإن نجحت في إخفائها، إلا أن خلاياها كانت تنتفض بها.

شاركتها الأكل بحماس أقلّ من حماسها، كنت أراقبها في دهشة، وفضول، ما هو ذلك السرّ الذي تريد أن تطلعني عليه؟

قاطعتنا خادمتها بغتة، جاءت وعلى وجهها ملامح الانفعال، كان جسدها يرتعش، وأصابعها تهتزّ، وهي تقول:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- البوليس.. عربات أمن العسس والمدرّعات في كلّ حتّة!

تصلّبت الست أم دينا ثوانٍ، شعرت أنها تكتم خوفاً تقهره في شراييها، قالت في جمود:

- الوقت جه.

نهضت متوتراً من دون أن أتلفظ بكلمة، فأشارت لي وهي تمضي في ردهة قصرها الطويلة، المؤدية إلى حجرتها، بينما الأضواء تخفت تدريجياً حتى أظلمت، فقط أضواء عربات أمن العسس التي تحيط بقصرها تنعكس على حيطان البهو. حينما فتحت باب حجرتها كانت إضاءة حمراء خافتة تسري فيها، كأننا انتقلنا إلى برزخ، نستعد منه للعبور إلى جنة أو جهنم. توجّهنا نحو حائط حجرتها الذي يلتصق إليه فراشها، ضغطت على زر النور مرتين متتاليتين فأُضيئت لمبة بجوار فراشها مرتين وانطفأت، ثم انطلق صوت حشرجة باب. انتبهت إلى جزء من الحائط، لم ألحظه من قبل، يحمل اللون نفسه لدهان الحيطان المجاورة له، ولم تتحدد أطره، بينما ينزاح في صعوبة مطلقاً صوت صرير، كاشفاً عن ممر أوله مضيء بأنوار الحجرة التي انسكبت فيه، قالت لي وهي تلتفت بوجهها نصف التفاتة:

- شاور روحك.. يمكن متقدرش تكتم اللي هتشوفه هنا...

حدّقت في الفتحة المظلمة التي كشفها الباب العجيب الموجود في حائط غرفتها، شعرت بالخوف، كتمت انفعالاتي، تذكّرت فوراً حلم النملة التي خرجت من الحائط بأذرعها السوداء، وقوائمها الأمامية ترتعش، ويتساقط من شدقيها الزبد المقزز. أرغب في التقدّم لمعرفة أسرار المرأة التي تملكنا وتملك شارع المذبح بأكمله وتمنع نسيرة لحمة عن الخلق، وأخشى من التقهقر حتى لا أسقط في قبضة العسس. أرغب في التقدّم لرؤية عرشها عن قرب، وفي الوقت نفسه أتذكر كلمات خادمتها: لقد ذبحت كل عشاقها الذين جفوا، مثل أي شهريار محترف. هل تقودني إلى حجرة الذبح؟ هنا لن تمنع الست أم دينا لحمي عمن يرغب في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التهامه، هي نفسها ستلتهمه كله لأن سائلي نفد. أنا لا شيء من دون سائلي، ووحده كان بوسعه أن ينقذني من هذا المصير المحتوم.

أقف أمام الفتحة السوداء، التي تكشّفت فجأة في حجرة الست أم دينا، أشعر أنني أعزل تماماً، لا شيء يحميني في هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر. ماذا ينتظرني خلف هذه العتبة؟ لكنني في النهاية حسمت أمري وتقدّمت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«شاكر»

(4)

نستطيع أن نفهم حيرة النسوة في إنهاء هذه المعارك، السيطرة على أحياء عاصمة بلد المحيط لم يكن هدفهم من البداية، وحتى إذا طردوا من المدينة كل المرتزقة، كل الجبابرة، وكل المتكبّرين الطغاة، هل يعني ذلك أن المدينة لن تستعيد الطغاة بسهولة مرة أخرى؟

بالعكس، تاريخ المدينة يعترف بقدرتها الهائلة على استعادة الجبارين، والملاعنة. بالاطلاع على أخبار الماضين نعرف كيف تنجح المدينة في ولادة الجبارين. إذا رأينا أحوال الخلفاء والسلاطين، سنجد في آثارهم عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتعظين. أحدهم قرّر أن يقتل كل البنين، فخدعته أم أحدهم، وألقت بوليدها في صندوق، وقذفته في اليمّ، وكانت تتمنى لو تضع البحر في زجاجة، أو مصباح، حتى تتوفر الحماية لطفلها الذي راح.

أحد طغاة المدينة صنع مرتبة من الزئبق، أرسل العفاريت إلى كل المناطق، ليأتوا بالحرفيين القادرين على وضع الزئبق في المرتبة الإسفنجية. حار العلماء، وشعروا بالعجز، كيف ينفّذون أوامر السلطان، أما الطاغية الآخر، فكان يتصدّق كل أسبوع بثلاثة آلاف دينار، وكان خراج البلاد في أيامه أربعة آلاف دينار، وبجانب ما يتصدّق به، بلغ عدد من قتلهم 18 ألفاً، هل تعرفون اسم هذا الطاغي؟ إنه صاحب أكبر مسجد يوجد الآن في شوارع المدينة، ولديه مسجد آخر في بلاد بعيدة يقال لها بلاد التربة السمراء.

طاغٍ آخر من صلبه، ذبحه الخدم لكثرة فساده وعبثه بهم، كان قد وضع في جهاز ابنته ألف هاون من ذهب، وبنى لها قصراً على رأس كل منزلة لها بين الحواضر والعواصم، حتى العبيد حكموها، وملكوها، واستعبدوا أهلها الأحرار، وكأن أقدارهم ساقتهم لهذا الانحطاط، بعدما انحطّوا، واستذلّوا بعضهم بعضاً، وعاونوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعضهم على الاستبداد، وساعدوا البعض الآخر على البطش والتجبّر، ملك أمر المدينة عبد قبيح الخلقة، لا يتطهّر من الدنس، وعلى الرغم من ذلك مدحه أشعر شعراء المدينة، وقال بعض الوعاظ: من هوان الدنيا على الله، أنه أعطاها لخصيّ.

الآن نحرق المدينة من أجل عيون النساء، نحرقها، لعلها لا تعود، نتمنى ألا تعود. المدينة الظالمة، التي تلتهم بظلمها من لا حيلة لهم ولا سند، تدهس بجبروتها من ليس له حيلة، وتنحني بخبثها للدهماء والحقراء. تُمجّد التافهين، الجُهّال، تُعظّم القتلة، الفتوّات، الجبابرة من كل لون، ممّن يرتدون بزّات رسمية، وممن يشحذون بلحمهم. مدينة لا توقّر الصالحين، ولا تعترف ببركات الأئمة، مدينة يتولى أمرَها كلّ جاهل، أو فاسد، أو منقلب على وليّ نعمته، مدينة حكمها معتوهون، وناقصو عقل، وخصيّ ومنحلّون، وجبابرة، وقتلة، يسفكون دماء الآلاف، ويتبرعون لبناء دور العبادة.

كنا مكلّفين هذا الصباح، أنا وكتيبة من الكائنات الشفافة بالثأر من مجموعة من كُتّاب المقالات الذين يزيّفون الحقائق، يدلّسون على الناس، وينشرون مقالات يكتبون فيها أن نساءنا حبلى بنجم رؤساء البلاد. لم يكن ينقصنا الذكاء لنعرف أنك إذا أردت أن تربح حرباً يجب أن يكون صوتك هو الأعلى في الإعلام، ويجب أن تكذب، وألا تكفّ عن الكذب حتى تتسع كذبتك، وتتأكد، وتصبح هي الحقيقة.

أحد هؤلاء رئيس تحرير صحيفة مستقلة خاصة، ومساندة لميليشيا المرتزقة، كتب مقالاً عن فوبيا هدم الدولة. من أفكار المقال، كتب رئيس التحرير: «أنتم تعرفون أن بلد المحيط، هي البلد الذي أخرج الزعماء لهذه الأمة الكبيرة، وقد أفرزت زعيماً جديداً، لا يكذب علينا كما تفعل النسوة اللاتي يقاتلن ضد وطنهن، مدفوعات بأجندات خارجية، لتحطيم البلد، هل يعجبكم الركام والحطام والأنقاض والبنى التحتية التي تحطمت؟ وكل هذا من أجل الخصوبة؟ ومزاعم انتهاء الخصوبة؟ إنهن خائنات لربوع هذا الوطن، لأنه حتى إذا انتهت الخصوبة، فيكفينا أن قائدنا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وزعيمنا، لم يزل قادراً على الإنجاب، ولم يزل قادراً على إخصاب هؤلاء النسوة الهائجات. أدعوهن إلى الاستسلام، وأنا أعدهن بأنهن سيجدن نطفاً لدى قائدنا، وزعيمنا».

كانت هذه مقتطفات من المقال، ليس بوسعنا أن نستوعب، كيف طوّر البشر قدراتهم، فصار بوسعهم أن ينبطحوا، ويخضعوا. سمعت فقرة المقال من ياسمين، كانت تقرؤها في مرارة على شاهيناز، الأخيرة لم تكن تعبأ، لكن ياسمين كوّرت الصحيفة وألقتها في غضب، وهي تقول: «واضح إن رئيس التحرير متأكد يا جماعة إن الرئيس لسه عنده، وبيدعونا نبطل ونسلّم، ونجرّب مخزون الرئيس من الخصوبة، يا ترى رئيس التحرير فلقس وعرف بقدرات الرئيس الفذّة؟!».

نحن يمكننا أن ننتقم بشكل مباشر من رئيس التحرير، عرفنا تحركاته، هذا أسهل شيء عليّ باعتباري كائناً هلامياً، أن أعرف كيف يقضي أحدهم يومه، في الصباح يستيقظ رئيس التحرير، ويجلس في فراشه، محملقاً في السقف، يبحث في ذاكرته عمّن ينهشه بسطوره، عمّن يستحقّ أن يوجّه نحوه دانات صفحات جريدته، يهبّ إلى النافذة ويشعل سيجارته، ويتفحّص من خلف نافذته، في قلق، الحراسةَ أمام ڤيلّته الواقعة في المنطقة الآمنة بمدينة سطح اللحم.

رئيس التحرير يعرف جيداً أنه يحتاج إلى فتح صفحات كاملة لمؤازرة الدولة، اعتاد ذلك منذ سنوات، قبل اندلاع حرب الولادة. دائماً كان هناك، مع كل نظام، مع كل راية، حينما كانت الدولة تحكمها القومية، كان رئيس التحرير قومياً، هكذا يصف البشر هذه النوعية من الناس، القومجية الذين يهلّلون للقائد حتى في نكسته، حتى وهو مهزوم. حينما صارت الدولة انفتاحية، رأسمالية، كان رئيس التحرير انفتاحياً، يتباهى بصورة الرئيس الذي يدعو لعقد الصفقات، وبيع أصول الدولة. والآن، حينما صارت المدينة إلى أيدي المرتزقة، ودَّ الرجل لو ارتدى كاباً وبيادة. لا ريب أنه يكتب بمدفع وليس بقلم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نحن الكائنات الشفافة نتخيّل ثم نثق في خيالنا، نثق أن رئيس التحرير حينما يستيقظ في الصباح، يفكر في أكبر خطوة يستطيع أن يخطوها، في سبيل إرضاء القائد الذي يشوّه من أجله الناس، لهذا حينما دخلت حجرة نومه في هذا الصباح، لم أكن قد قرّرت بعدُ إيذاءه، هناك كثيرون مثله، إذا قتلنا هذا سيحلّ آخر محله، لا فائدة! لكنني فوجئت به ينتفض فجأة، كأنه وجد ضالته، رفع تليفونه المحمول، وطلب أحد معاونيه، انتظر قليلاً، قبل أن يتحدّث في حماس:

- يا هندي، بقول لك إيه.. هات كدا ورقة وقلم، واكتب ورايا.

ثم انتظر، حتى نفّذ محدّثه مطلبه، فعاود الكلام:

- اكتب.. علماء وباحثون يكشفون في دراسة حديثة: العثور على نطف حبيسة في إحدى زجاجات التجارب منذ أربعمئة عام.

شعرت بالدهشة، وتعجبت من روعة الكذبة، لا ريب أن رئيس التحرير كان يقرأ جيداً حواديت العفاريت والشطّار والعيارين، وكتاب «دليل الحيران في كيفية استخراج الجان»، لا ريب أن رئيس التحرير يطالع كل ليلة قصص الكهّان في تحضير ملوك الجان، أو لعله مغرم بقصة جرجريس ابن راجموس وإبليس، وإلا فمن أين جلب حكاية الحيوانات المنوية المحبوسة في زجاجة منذ أربعة قرون؟

طلب رئيس التحرير من محدّثه أن يكلّف صحافية اسمها «بسمة» بكتابة مقدمة لهذه الفكرة تقول فيها: «في ما سيُحدث مفاجأة مدوية لكل المروّجين لنظرية نفاد الخصوبة لدى أهل بلد المحيط، ومعاناة الرجال من انقطاع ماء الحياة، عثر علماء أمريكيون بمعهد «سيتي كول» الأمريكي على ما سيمثّل مفاجأة سارة للشعب، إذ توصلوا إلى معمل قديم ومهجور في مدينة أطلانتيك سيتي الأمريكية، كان مخصصاً لإجراء تجارب الهندسة الوراثية على الديناصورات المنقرضة، وكان بالمعمل العديد من الزجاجات المحفوظ فيها بعناية هذه النطف، التي يعود بعضها إلى أربعة قرون مضت».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت مبهوراً بالكذبة، وبطريقة صنعه لها، وحبكها. كان صانع أكاذيب ماهراً، لا يُشقّ له غبار. تأتيه الفكرة، ويكلّف أمهر الصحفيين الذين يعملون في صحيفته بكتابتها، كي يتفادى وضع اسمه عليها، وفي الوقت نفسه يسبكها في قالب أدبي مقنع.

لم أستطع ثقب رأسه، قررت أن أصحبه كظلّه، إنه وعاء هائل لا ينضب للأفكار المجرمة والمسمومة.

كان يومه طويلاً، نزل وسط حراسته، وهم مجموعة من مرتزقة شركة الأدوية الفارما تؤمّن طريقه، وتحرس سيارته كأنها موكب رئاسي، غادر منزله إلى الجريدة، اطمأن إلى أنهم نفّذوا الفكرة. رسم أحدهم له في صدر صفحته الأولى صورة مشوّهة لجنين في زجاجة، وقف رئيس التحرير ومعاونوه يتأملون الصورة بانبهار، بينما شعرت أنا بالأسى. لا يمكن لأخي، أن يظل حبيس الزجاجة طوال هذه المدة، تخيّلت نفسي في الزجاجة، انتابني الحزن، بكيت، وحينما تبكي الكائنات الشفافة، تصرخ صراخاً متصلاً، صراخاً يستطيع أن يهدم المباني، صراخاً يخلّف موجة انفجارية هائلة. هكذا فوجئت مدينة سطح اللحم بانفجار هائل في مقر الجريدة، محاها من على الوجود، وخلّف أثرها حفرة عميقة سوداء لا يظهر قرارها. الجثث تطايرت، تفسّخت، تفحّمت، تناثرت خلاياها ببشاعة، ولم تتبق منها أي أشلاء يمكن التعرّف عليها، أو أحماض نووية تقود إلى هويات أصحابها. كل الإحداثيات أشارت إلى أن هذه البقعة كانت تحوي مقر جريدة كبيرة، شديدة التأثير في الرأي العام.

بينما أنا أحتفظ بالنسخة الأخيرة التي نجت من الانفجار، النسخة التي تحتفظ في صفحتها الأولى بصورة الجنين المسكين حبيس الزجاجة، كانت هناك بقايا دموع في مقلتي. انطلت عليّ كذبة رئيس التحرير.

في فترة من فترات الحرب، كاد اليأس يدبّ في قلبي، مثلي مثل ذهني، مثل ياسمين، مثل الرجل الناجي. كان سبب يأسي هو خوفي من ألا تنتهي الحرب، وكان سبب يأسهم خوفهم من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهزيمة. الوحيدة التي كانت خائفة لأسباب أخرى هي شاهيناز، إذ إنها كانت خائفة على مصير «سين. عين».

قبل أن أحكي حكايته، وقبل أن أنهي هذا التقرير، وألملم أوراقي وأقلامي لألحق بأول قافلة ستنطلق من إحدى المنافذ الصحراوية، التي دأب المهرّبون على تهريب الناس منها خلال سنوات الفزع، يجب أن أحكي عن أخطر رجل في هذه الحرب، الرجل الذي انتصر في النهاية على الجميع. قائد من أخطر قادة مرتزقة شركة الأدوية: الفارما، هو الرجل نفسه الذي تدمّرت على يديه بلد المحيط. لم يكن الوحيد المدان، أسماء عديدة شاركت في الجريمة، ربما من الجانبين، لكن المرتزق، أو بعل زبول، اللقب المخيف الذي تلقب به خلال أهوال الحرب، الذي يعني الشيطان، أو سيد المزبلة، لديه حكاية مهمة يجب أن نسلّط عليها الضوء، تليها حكاية «سين. عين».

صفحات قليلة وننهي التقرير، وأغادر إلى الأبد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرتزق، بعل زبول، سيد المزبلة

(1)

أفلتُّ بطريقة عجيبة من مصيرنا. هذا الرجل الذي يسمّونه: الناجي الأخير، ربما يكون قد نجا من مصير الفناء، لكنه لن ينجو من رصاص مسدسي. في الأغلب سأتخذ طريقاً وسطاً بين التكليف الذي تلقّيته بقتله، ورغبتي الخاصة في أن أعاين بنفسي حقيقة أمره عن كثب. سقط في يدي منشور توزّعه ميليشيا النسوة كتبن فيه: «لماذا نريد أن نقتل أخصب من فينا؟ أعط الأوامر بمنح الحياة للرجل، ستجد الماء جرى في الشوارع، ستجد النجوم أزهرت على أسطح البيوت، اعط الأوامر بمنح الحياة للرجل ليخصّب نساء البلد، وانتظر أشهراً وسنوات، سيولد الأطفال ويملؤون الشوارع، يكبرون، ويصبحون رجالاً».

ثم يعودون وينتقمون منا، لهذا كان يجب أن أعثر على هذا الخصب وأقتله!

ضحكت حينما وقع في يدي منشور لهؤلاء النسوة البلهاوات اللاتي نقاتلهن، يحوي هذه السطور السابقة، وصرت أحتفظ به في جيبي كتميمة حظي للقضاء عليهن. الدمار يمضي في طريقه، الخراب يستمر، كنت أقلّب أوراقي، وأدخن في شراهة، وبين الحين والآخر أتناول سلطة البطاطس بالزبادي المفضّلة لدي، بينما أجلس في المبنى الذي أدير منه عمليات مقاومة النسوة. إنها المرة الأولى التي نعرف فيها معنى كلمة «مرتزق». يلقّبوننا بكلمات قبيحة ظناً أن الشعب سيكرهنا، ونحن من يقاتل من أجل إعادة الاستقرار! نحن لا نختلف عن الناس، كنا لواءات بجهاز العسس الوطني وأقالونا، بعضنا كان ضباطاً بجهات أخرى، سُرّحنا ظلماً بناء على صراعات متعددة، ضرب ضرب، كله يضرب في الكل، والنتيجة أنهم أخرجونا في صراعاتهم المتتالية في ما بينهم. رجال يتعشّون معاً، يسهرون معاً، يحضرون اجتماعات في القصور معاً، وحينما يعود كل منهم لإدارته، يدبّر المكائد لاصطياد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رجـال خصـومه، وهكـذا، عـدنا إلـى عصـر القصـور التـي تشـهد مؤامرات الخصي. كل أمير على جماعته يبحث عن وسيلة إقصاء الأمراء المنافسين، بضرب رجاله، وإيقاعهم في فخاخ منصوبة، وشراك متتالية. سمّوه اسماً لائقاً بالعصر فحسب.

اسم السيطرة. سيطر على خصمك، أي ابحث عن كيفية تجريده من رجاله الأكفاء.

فـي هـذا العصـر، ومـع تسـارع وتـيرة الضـربات المتلاحقـة بـين الأجهزة، كان كلٌّ منها رقيباً على الآخر، كلٌّ منها يكتب تقارير في الآخر، كلٌّ منها يبحث في كيفية السيطرة على الأجهزة الأخرى. وهكذا، تحوّلت البلد إلى فخاخ وشراك منصوبة متتالية، أليست هذه أسباباً كافية لفقدان الخصوبة والنماء؟ أليست هذه أسباباً كافية لإخصاء الرجال؟

جئنا إلى «الفارما» منذ سنوات. قبل اندلاع الحرب بسبع سنوات. نظـام العمـل فيـها لم يختلف عن أي شركة أدويـة أخـرى تولّيت تأمينها كضابط سابق، لكنني تدرّجت في المناصب هنا بسرعة غير معهودة، كان ملحوظاً حسي الأمني المختلف عن أقراني، وكانت هناك رغبة في بناء هيكل أمني غير مسبوق، بدأت بدعوة رئـيس مجلـس إدارة الشـركة لتخصـيص مبنـى كامل من مبـاني الشركة ليكون إدارة الأمن. وبدأت منذ اللحظات الأولى في عملي بالإدارة في تلقي تكليفات لا حصر لها ولا علاقة لها بتأمين شركة أدوية، من بين المهام تأمين مقر اجتماع على مستوى عالٍ من السرية بين رئيس مجلس إدارة الشركة وأحد وزراء الصحة.

بعد ذلك بأيام تلقيت تكليفاً بمراقبة أحد ضباط مباحث الرقابة علـى الأدويـة، ممـن تسـبّبوا فـي خسـارة جـمّة نتيجـة نشـاطهم المتزايد في مكافحة تهريب بعض الأصناف، ثم تلقّيت طلباً غير رسمي بتصفيته. لا، ليس بهذه الطريقة، بل نتدرّج حتى الوصول إلـى معنـى كلمـة تصـفية الخطـير. نبـدأ أولاً بعـرض رشوة عليـه وتصويره أثناء تلقّيها، ثم إرسال هدية إلى منزله وتصوير زوجته وهـي تتلقّاهـا. كـل خيـارات التصعيد مطروحة، خطفه، ضربه،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعذيبه، الحصول على توقيعه على أي أوراق، انتهاءً بالتخلص منه.

تتشعّب مهامي وتصبح أكثر صعوبة، صرت أنا الوحيد القادر على إنهائها، خاصة حينما تتطرق إلى مطاردة علماء أدوية يزورون بلد المحيط للمشاركة في مؤتمرات طبية معيّنة، أو إفشال عمليات جراحية يجريها أطباء مشهورون بالمجان، تعقّبهم، ومطاردتهم، أو إرسالهم إلى مستشفيات مجهولة غير تلك التي ينتظرهم فيها المرضى الحقيقيون التواقون لإنهاء معاناتهم.

غرض المهام في الغالب ما يكون مجهولاً بالنسبة لي، وفي بعض الأحيان تكون هناك ملحوظة مرفقة: «اللعبة مؤذية وتسبّبت في إفساد لعبنا الأخرى، مطلوب عرقلتها، ومنعها من الوصول إلى أيدي الأطفال الذي ينتظرونها في طوابير» إشارة إلى العمليات الجراحية المجانية. أو يكون السبب: «اللعبة تسبّبت في خفض أسعار مواد علمية مما أصابنا بخسارة تقدّر بالملايين، مطلوب إزاحتها لأنها ضارة جداً بصحتنا» في إشارة إلى أن العالم الذي يزور البلاد ابتكر ابتكاراً جديداً خفّض أسعار مواد خام مرتفعة الأسعار، وهو ما أثّر على أسعار العقاقير، وجعلها في متناول الأيدي.

آلاف وآلاف المهام القذرة، المنحطّة، كلّها تمحورت حول ملفّ الأدوية، وكلّها صنعت مني المرتزق، قائد إدارة الأمن بشركة «الفارما»، وبعد ذلك بسنوات، قائد العمليات، الذي يتولى تنسيق المواجهات العسكرية على الأرض في الحرب التي اندلعت في العاصمة.

صرت بجدارة سيد المزبلة.

(2)

نحن الذين فضضنا اعتصام النسوة.

هذا سيكون أول اعتراف من نوعه، لحسن الحظ هو اعتراف لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فائدة منه، لأنه ببساطة لن يكون بوسع أحد أن يطاردني، أو يحاكمني. قتلت ما يقرب من ألفي امرأة في الميدان، ولم يمسّ أحدُ مني شعرة. أنا أكثر القتلة قدرة على الاعتراف بجرمه، والإفلات من المحاسبة.

ليس من الضروري الثرثرة عن تفاصيل الفضّ، ولن أحكي قطعاً عما حدث قبلها، من حشد وتعبئة، وتحريض على النسوة المعتصمات، وجعل الجماهير متأهبة ومتعطشة لقتلهن، والنيل منهن، كل هذا معلوم، ومعروف، وشعبنا جرّبه أكثر من مرة، جرّب كثيراً الاستهانة بأرواح بعض فئاته، واستباحة دمائهم، لكنني سأمرق مباشرة إلى القاعدة التي نفّذها قادة البلد هذه المرة، قاعدة تقول: «حينما ترغب في إجراء عملية إجهاض ابحث عن طبيب قذر يجريها لفتاتك التي تورّطت معها، لا تُجرِها بنفسك!». هكذا رغب البعض في تفادي تكرار المذبحة الشهيرة التي جرت في الثورة، فبدأنا التخطيط. أولاً وضعنا شروطنا، تعهدات مكتوبة بعدم الملاحقة، وأي جثة تسقط منا في الميدان تُكرّم، وتُشيّع بجنازة عسكرية لائقة، وتصرف مستحقات لواء شهيد لأسرة المتوفي.

ثم تلقينا دعماً كبيراً لتنفيذ المذبحة. وصلنا سلاح هائل، وأموال طائلة، وتعتيم إعلامي، وتغطية صحفية ممتازة تمثّلت في تحذيرات كتبها صحفيون من أصدقائنا، عن مخاطر تهدد اعتصام النسوة في ميدان الخضراء، ودعوات لهن بفض الاعتصام سلمياً، نشرنا الرعب في الأنحاء عبر حكايات أسطورية عن عصابات تنوي التحرش بهن، والفتك باعتصامهن. وفي النهاية لعبت المذيعات المعروفات بوطنيتهن الدور الأكبر في تشويه الاعتصام، وتحريض أهل البلد والمستمعين على النسوة المعتصمات.

في ذلك اليوم تحوّلت أرض الميدان إلى أرض مصبوغة باللون الأحمر، قرص شمسٍ مدمًّى وقد سقط على بقعة الميدان ميتاً. حاولنا قدر استطاعتنا ضمان ألا يتبقّى شهودٌ أو ناجيات، لكننا فوجئنا بعد ذلك بكمّ ڤيديوهات ترصد عمليات المقتلة الوحشية منذ بدايتها، كلها مصوّرة من أسطح عمارات أو شرفات الشقق

85%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطلة على الميدان. كان هذا هو الإخفاق الحقيقي والفضيحة المدوية.

طيلة أشهر والبلد تتلقّى مطالبات دولية بفتح تحقيق، وتشكيل لجان تقصّي حقائق في المقتلة، أشهر كاملة والبلد تستقبل وفوداً من الأمم المتحدة، وغيرها من المنظمات القذرة المنحطّة، التي تسمح لنفسها بالتدخل في شؤون البلاد الأخرى، قُطعت معونات دولية، وجُمّدت أرصدة البلد في بنوك أوروبا وأميركا. تلقّيت تقريعاً متواصلاً مع كل نبأ من هذه الأنباء، وغضباً هائلاً. كانت هذه أسوأ فترات عمري. طُلب منا تجميد أنشطتنا لأجل غير مسمّى، وبعد ذلك بأشهر أُغلق الموضوع تماماً.

ثم تدريجياً فوجئنا بسلسلة هجمات لم نتوقعها. رجالنا المرموقين كانوا يقضون نحبهم في عمليات لم تُثر شبهاتنا. أولى تلك العمليات بدأت حينما تلقّى أحد رجالي طعنة في عنقه خلال سهرة له في مطعم فندق شهير. كلّ شهود الحادث أدلوا بأوصاف نادلة كانت تغازله، وهو التقط الطعم. مضى معها إلى باب جانبي من أبواب المطعم، هناك وجدوه مطعوناً خمس طعنات.

وقتذاك لم أعبأ. ولم أنتبه أصلاً إلى أن الواقعة تتخطّى ما هو أبعد من مغازلة من رجلي لنادلة رغبت في سرقته، فحاول اغتصابها، فطعنته في رقبته. هكذا ببساطة ظننتها جريمة قتل عادية، لكنها تكرّرت. استهدفت نسوة مجهولات سائر رجالي الكبار أبطال فضّ الاعتصام، سائقة دهست أحدهم خلال مغادرته شقّته بمدينة سطح اللحم في ساعة مبكرة في الصباح، عاملة حمّامات انتظرت ثالثاً حينما فرغ من التبوّل، وسكبت في أصابعه ماء نار بدلاً من الصابون السائل، ثم طعنته في عينه وفرّت، «كاشّيرة» في مول شهير انتظرت رجلي الرابع بينما كان يتبضّع مع زوجته وأبنائه واستلّت بندقيةً من درج الأموال بماكينة الكاشّير، وأردته قتيلاً بستّ رصاصات مدوية، أرغمت الجميع على أن ينحنوا أرضاً بينما تفرّ ببساطة إلى سيارة كانت تنتظرها خارج المول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عقدت سلسلة اجتماعات مع رجالي الباقين بعدما تكرّرت الجرائم، اكتشفت أن مرتكبيها من النسوة دائماً، فطلبت من رجالي الباقين، أبطال فضّ الاعتصام، السفر إلى خارج البلاد في إجازات مفتوحة. نشرت المخبرين في أنحاء المدينة لجمع الأخبار عن التحركات الشبابية، والتجمّعات النسائية، وحاولت جمع معلومات عمّن يستهدف رجالي.

لكنهم كانوا يتساقطون مني، تم قتلهم وتصفيتهم جميعاً وإنهاء حيواتهم بميتات مرعبة، أحدهم، وبينما يحاول أن يغادر البلاد إلى أميركا، عثر عليه أفراد أمن المطار مُلقى داخل حمّام، برأس مفلوقة، كأن التي قتلته استخدمت بلطة لقطع الأشجار.

تصاعدت العمليات والاغتيالات الموجّهة التي تستهدف رجالي، ضباط الفارما، قبل أن تتطور إلى حرب شوارع مفتوحة بعدها بعامين استهدفت مقرّ مكاتب شركة الفارما وفروعها في مدينة سطح اللحم. كانت مفاجأة قاسية لم نتوقعها.

طلبت تعبئة رجالي، وفكّ الحظر عنهم، واستدعائهم للدفاع عن أنفسنا، وإلا ستواجه البلد ما لا تتمنّاه، فاستجابوا لي. هكذا وبعد أشهر، بدأت أستعيد الزمام، لكن النسوة كنّ قد سبقن بالفعل. نجحن في إقفال شوارع عديدة، وأحياء، وضِمنّ سيطرتهن على ميادين كبيرة، ومهمة. كنت أرقب نطاق توسعهن بأعصاب باردة. قوات العسس النظامية لم تفلح في التصدي للاضطرابات. كنت أعرف أن أحدهم سيستدعينا لعملية الإجهاض الجديدة. وبالفعل هذا ما حدث.

كنت واثقاً أن هناك عقلاً مدبّراً وراء هذه العمليات النوعية القوية. هذا لم يفزعني. أسأل نفسي: من أين للنسوة بهذه الجرأة في التخطيط، والمعلومات المهمة المسرّبة؟ هل لديهم جواسيس؟ قطعاً لا، لكن هناك عقل خطير يعرفنا، ويعرف طريقة تفكيرنا، ويعرف كيف نؤمّن المنشآت الحيوية. مطّلع بالتأكيد على الكثير من خططنا القديمة التي لم تتغيّر، يحتفظ في جعبته بأسماء الضباط، وأوقات تغيير الورديات. تأكدت من ذلك من توقيتات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تنفيذ العمليات. اختياره للضباط الفشلة المنسيين الذين يتولّون ورديات في مواقع منسية، لكنها مع ذلك تحوي ترسانات أسلحة خطيرة ومهمة. يعرفهم، ويعرف أسماء رؤساء المناوبين.

كنت أعقد اجتماعات عديدة مع لواءات وقادة، وأطالبهم بتغيير الخطط القديمة، وتمركز القوات، والكمائن، لكنهم كانوا يتحركون مثل السلاحف، ويتلقون نصائحي بتعالٍ واشمئزاز وتكبُّر. أنا في نظرهم مجرد قائد ميليشيا.

في النهاية اكتشفنا بمحض المصادفة، أن أحد الضباط السابقين ممن عملوا كثيراً في الأقبية السرية لتدريب الضباط، وراء هذه التكتيكات العسكرية الخطيرة التي كبدتنا خسائر مهولة، ولكن لم تكن لدينا ملامح وجهه الدقيقة، فقط صورة رسمها أحد الرسامين بإرشادات ضابط كان قد شاهده في اعتصام الجزارين بشارع المسلخ القديم منذ سنوات.

(3)

كل ما أعرفه عنه أن اسمه حسين، لكنني لم أعرف معلومات أخرى عنه، وعن تحركاته. جلبت لنا الطائرات صوراً عديدة لمواضع في العاصمة اشتبه البعض في استخدامها مناطق للتدريبات، كانت هذه المواضع مغطاة بالخيش العريض، المدهون بمادة الزفت والقطران، بعض هذه المواضع كانت في مساجد ضخمة وكبيرة، لم أستطع أن أقنع أحداً بقصف المساجد، كان الوازع الديني يقف عائقاً أمام هذه القيادات. دخلت في تضارب سلطات، واجهنا شللاً في القيادة هنا في شركة «الفارما». قرّروا ألا يقصفوا جامع المنتصر مثلاً تخوّفاً من إثارة المشاعر الشعبية ضد قيادات البلد، خاصة مع اقتراب الانتخابات، ولكن هذا كان العام الأول للحرب، أي انتخابات عليكم اللعنة تفكرون في إجرائها! الكلّ كانوا يحسبون مواضع أقدامهم، بينما أنا الوحيد الذي كنت أتقدّم بحسم وجسارة، وأنفذ العمليات بكلّ جرأة من دون خوفٍ من مغبّة أيّ إثارة شعبية، لذلك استعان بي راغبو إجراء الإجهاض في حسم هذه المعارك، أنا العزرائيلي مقاول

86%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحرب من الباطن. لكن التردد في اتخاذ القرارات الحاسمة، كإفناء منطقة بحالها، قصف بؤر التمرد، وهدم أحياء الانفصاليين على رؤوسهم، ومباغتتهم بضربة جوية تنهي المسألة، وتقطع جذورهم، جعل أمد الحرب تستمر فترة أطول.

في وسط كلّ الغبار تلقّيت هذه الزيارة المباغتة، مساعدة لم أتلقَّها من المسؤولين الحكوميين المرتعشين، مساعدة من السماء قلبت كل الموازين، وكشفت لي وجهاً عجيباً من أوجه هذه الحرب، كأن المفاجآت لم تقتصر فقط على اندلاع حرب عصابات في أقدم عاصمة بهذا الكون، بواسطة النساء.

أخبرني رجالي عن سيدة عجيبة فاتنة، لكنها تتحدّث ببطء مثل عجوز في الثمانين، تطلب مقابلتي رافضة أن تقول أي كلمة عن سبب رغبتها في لقائي. تنازعني فضولي لرؤيتها، خاصة بعد أن كرّرت مجيئها يومياً من دون يأس أو كلل. سلّمتني السيدة مفتاح الانفصاليين، منحتني سرّ الرجل الذي يئست من مطاردته، لكن حيّرني أمرٌ واحدٌ، طرحته عليها وسط لهفتي على هديتها الكبيرة، وتشكُّكي فيها:

- لكن جيتى إزّاي هنا؟ عدّيتي حواجز مدينة سطح اللحم منين؟ المنطقة الخضراء كلها متقفلة، والكمائن مش بتفوّت دبانة؟

ضحكت في وهن، وقالت:

- أمّال حسين المشرحجي بيعدّي منها إزّاي يوماتي؟

انتابنى ثقل في روحي، معرفتي أن هناك ثغرة أمنية تصيبني بالجنون. اشترطت عليّ ألا أتخلّص من «سين. عين»، مقابل إخطاري بتحركات الفرقة كاملة، حدّدت لي خمسة أهداف: حسين المشرحجي، وذهني، وياسمين، وشخصين آخرين يتوليان إدارة المعارك في ترعة النهر الحافي، جنوب المدينة، وفي علوة المنتصر قزمان بمنتصف المدينة.

وعدتها ألا أمسّ رجلها الناجي، مقابل تسليمي باقي الأهداف، وارتسمت على وجهي بسمة ساخرة. سأحافظ على العهد حتى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقضي على مهندس الحرب حسين المشرحجي. طلبت من قيادة الفـارما إمـدادي بمـروحيتين، لتنفيـذ عمليـة نوعيـة فـي عمـق الانفصاليين، وافقوا على مروحية واحدة، خططت لعملية تعتمد في الأساس على تتبع خطوط سير عربات الدفع الرباعية، سواء فـي ترعـة النـهر الحـافي جنـوب العاصـمة، أو فـي وسطها بحـي المنتصـر قزمـان، همـا أكثـر منطقتين يمرح فيهما الانفصاليون، والإرهابيون.

قضينا أشهراً أنا وزملائي المنافسين لي في مكتب القيادة العليا للثامون، وقد أقنعتهم بتوحيد جهودنا كفرصة أخيرة، ساعدوني خــلال هـذه الأشـهر فـي مراقبـة الأحيـاء بـالأقمار الصـناعية، ومضاهاة الصور التي تصلنا من الرادارات عن التحركات المريبة لقادة الانفصاليين.

لم أستطع التخلّص من شكّي في السيدة الشابة العجوز، كدت أسميها السيدة النصف، يشتبك داخلها الخير والشر، ولدت من محنـة، وتسـبب كربـها فـي تشـويه روحـها، أحكمت الرقابة على منزلها الذي يتجمّع فيه الانفصاليون. جنّدت مخبرين من العاملين في محال الأكل، عمال توصيل طلبات، طباخين، وعمال مخابز، وبائعة جوّالين، هؤلاء هم الفئات المختارة الذين يجب أن توليهم اهتمامك وتستجوبهم إذا رغبت في معرفة تعداد جيش العدو، فقد نقلوا لي في المقابل أعداد الوجبات، كميات الأكل المطبوخ، وكميــات أجولــة الأرز والقمــح التـي تُسـرق وتنقـل إلـى هـؤلاء المعتصمين في منطقة علوة المنتصر في باب الشمس، لصنع حلل الأرز والخبز. نقلت لي هذه العيون أخبار التجمّعات التي تجري فــي شـارع المنتصـر، وتنظيمـات الأحزمـة الأمنيـة وتشـكيلاتها المعقدة التي تستهدف حماية هذه التجمّعات. وطلبيات الأكل التي تُطهى كلما حانت إحدى هذه التجمّعات، في مطاعم شارع المنتصر التي غرزت فيها عيوني. في تلك المرات، كنت أعرف موعد تجمّع القادة الانفصاليين، وكانت إحدى مرات الطهي، تلك التي يستدعون فيها رجالي من الطباخين وعمال المخابز، هي التي حسمت أمري عليها لتنفيذ الهجوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا أيضاً كانت لدي وسائلي، وإلا ما استحققت أن أكون قائداً.

كان شرط القادة الوحيد: لن ننفذ ضربات جوية، هذه الحرب بدأت على الأرض ويجب أن تنتهي على الأرض.

(4)

كنت ألملم أوراقي ككلّ مرّة، منتظراً وصول رئيس التحرير، سبق ذلك العملية المدمرة التي محت مقرّ صحيفته من على الوجود.

في هذه النوعية من المعارك، أنت دائماً تحتاج إلى هؤلاء المطنطنين بحب الوطن، رئيس التحرير كان واحداً منهم، هو يعرفني، يعرف أنني المرتزق، بعل زبول، العزرائيلي الذي يقود الحرب، ويعرف أن كل أدواتي في عقلي الجهنّمي، لذلك هو يخشاني، ويحبني لأنني الوحيد القادر على منحه الأمان الذي ينشده، أمان التمتع بتضخم أرصدته في البنوك، أو أمان العيش في بلد هادئ مطمئن، يسمح له بممارسة تدليسه وكذبه، ويظل مع ذلك ضيفاً مرغوباً على كل الموائد.

تلقى أوامرَ من القادة الرسميين بالتعاون معي، وإمدادي بكلّ الأدوات التي أحتاجها، بل وطاعتي إذا لزم الأمر فيما لو أردته أن ينشر أخبار معيّنة لصالح المعركة.

لذلك ما إن بدأت الحرب، وانتشر الحديث عن شخص لم يزل يحتفظ بخصوبته، حتى بدأنا نبحث عنه، جنّدنا من أجل ذلك آلاف المخبرين، بحثنا في معامل التحاليل، استخرجنا آلاف الأوراق من الداتا المحفوظة بهذه المعامل، ونقّبنا عليه، كما ننقّب عن ألماسة في قلب جبل صخري، أو كمن يبحث عن ريشة عصف بها إعصار.

لكننا لم نجده عبر أرشيف التحاليل، بل قادتني إليه المرأة النصف، التي جاءتني تطلب تعهّدي بصَونه لها. كان موظفاً بقسم الأرشيف بصحيفة رئيس التحرير، لم نكن بحاجة للسيطرة عليه.

كان من الطبيعي أن يشعر بالرعب فور مواجهته بأن المصيبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تبحث عنها البلد، في حجره من البداية.

وهكذا أطاع أوامري مباشرة، ونشر تقارير متتالية عن الرجل الخصب المجنون. الذي كان قد اختفى فعلاً وعجزنا عن الوصول إليه، خاصة أن شاهيناز زارتني وأبلغتني أنهم نقلوه من منزلها. وُصف الرجل الخصب بالمعتوه، قيل إنه منعزل، وإنه يمارس الهوايات الشاذة مثل تربية السلاحف، هكذا نجحنا في تشويه الرجل، لكن كل هذا لم يكن كافياً، كنت أرغب في التعتيم على توصلنا إلى قادة الانفصاليين الرئيسيين، كي لا أفقد همزة الوصل، التي سلّمتني المجموعة، كي لا يشكّوا فيها، ويتخذوا حذرهم، لذلك رسمنا خطة عقب تشويه الرجل، لقتله، أو ضبطه حياً.

لكن السيدة النصف زارتني مرة ثالثة، وأقنعتني أن أول ما يجب عليّ فعله أن أقضي على ياسمين، لأنها يمكن أن تنام مع الرجل وتنجب منه، سيفرح الشعب بطفل يولد بعد طول انتظار وسيصطفون إلى جانب أعدائنا ونخسر الحرب.

إنها حرباء، عرفت أنها غارقة في حب الرجل، لكنني أصررت على خطتي، من دون الالتفات إلى مطلبها بالحفاظ على حياة رجلها الناجي، سارت هذه الخطة جنباً إلى جانب الخطة الأخرى التي وضعناها للقبض على قائد التكتيكات العسكرية للنسوة، حسين المشرحجي. عجزت السيدة النصف عن أن تمدّني بصورة له، خشيت منحها كاميرا صغيرة لتصويره، خشيت أن ينكشف أمرها، ويقتلوها. وضعت خطة لاصطياد حسين.

كنت أجلس في مكتبي بينما كان رجالي هناك، ينفّذون المهمة الأخطر، التي بوسعها أن تحسم الحرب.

(5)

في مكتبي، أو قوقعتي المظلمة كما أحب أن أسميها، تلقّيت أبشع الأخبار وأسوأها، تلقيت نبأ تفجير صحيفة فهمي، مُحيت الصحيفة بمن فيها، لم تستطع التوصل إلى خيط واحد يقود إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منفّذي العملية الإرهابية، هكذا اعتدنا أن نسمّي ما يُرتكب ضدنا بـ«إرهاب»، وما نرتكبه من جرائم نسمّيه: «استرداد حق الوطن».

طلب مني أحدهم تأجيل العملية، قلت لن نؤجّل شيئاً، سنمضي في طريقنا. قال لي: لكنك بحاجة إلى تغطية صحفية، ولن يوفرها لك أحد في غياب فهمي. قلت: عمليتي ستأخذ شكل الرد على عملية الصحيفة، وهو ما سيلقى تأييداً وشعبية كبيرة.

وكان الحق معي. تلقّيت موعد استدعاء الطهاة والشيفات وعمال المخابز، لطهي الأكل للانفصاليين قبل اجتماعهم بيوم، وحينما اقتربت عربات الدفع الرباعي من منطقة المنتصر، التي ظنّوا أنهم يؤمّنونها بالحواجز الحديدية، والرجال المتمترسين بأسلحة بدائية تافهة، انقضّ رجالي من كل المواضع، خرجوا من أسفل أقدامهم من أنفاق المترو، وهبطوا على رؤوسهم من السماء من المروحية التي حملت قوة دلتا، ونجحت العملية.

ظلّ حسين مقاوماً عمليات التعذيب والضرب المبرح الذي تعرض له منذ سقوطه، تذكّرت اللحظات التي جمعتني به، حينما انتزعت مفاتيح شققه وتوقيعه على إيصال أمانة. كنت أنا من نفّذ عملية طرده من مكتب العزيز رئيس الوزراء الأسبق، فإذا به هو قائد الحرب التي أنهكتنا. وقفت أمام الغرفة التي يُحقق معه فيها، كان مستميتاً في الكتمان، ومواصلة الصمت. كيف نجبر هذا الرجل على الاعتراف بمواضع قائدي العمليات ومنفّذي الهجمات على مواقعنا، وضرباتهم وخططهم القادمة؟ وكذلك المتحكمين في مفاصل تنظيم الانفصاليين الإرهابي، إذا كان هو من لقّننا فنون الضرب وانتزاع الاعترافات؟

كان حسين متماسكاً، جسوراً، ويبدو أنه لن يعترف بأي شيء حتى إذا انتُزع لسانه، وكان المحققون يبذلون الكثير من الحيل، في البداية تحدّثوا معه بوصفه رجلاً سابقاً من رجال الدولة، ثم حاولوا الضغط عليه بحبسه في زنزانة بحجم الدولاب، جدرانها باردة، ولا يمكنه أن يخطو فيها نصف خطوة، فقط دفعوه فيها كأنهم يضعون ملابس في دولاب ضيق. ظلّ واقفاً في هذا القبر،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خمسة أيام، اعتصر جسمه كل قطرة ماء فيه، وقضى حاجته الصلبة والسائلة، كاد يختنق ببرازه، وأخيراً أطلقوا سراحه، وساوموه على الاعتراف مقابل الاستحمام، لكنه رفض، تركوه في زنزانة أخرى أوسع، من دون طعام، ومن دون خرقة لتنظيف جسده، جعلوه يعطش، ويجوع، لكنه لم يرضخ، بل اعتبرها هدنة من التعذيب البدني.

مرّت أشهر وهو رافض أن يلين، أو يتعاون، إلى أن حانت لحظة النهاية حينما اقتحمت الشمطاء الشابّة قوقعتي من جديد، قالت لي أخبارهم، حكت لي كيف نقل الانفصاليون رجل أحلامها إلى مخبأ عجيب، أسفل قصر في منطقة جبل الشيخ، تقطنه معلّمة وجزّارة، تسمّي نفسها الست «أم دينا». تتسع المغامرة، وتتطوّر إلى منعطفات مثيرة، رؤسائي يتململون، يودّون إنهاء الحرب بأي وسيلة، وأنا أرغب في فتح معملي الخاص، واجهتني الشمطاء الشابة من جديد:

- رجعه.. أنا عاوزاه.. أنت وعدت!

تأملتها مليّاً، متعجّباً من ملامح وجهها الصبوح، وصوتها الواهن، هي أسطورة أخرى، لكنّها أسطورة منتهية، مقضيٌّ عليها بالخلود مع نكبتها، ظلّت تحملق فيّ بنظراتٍ كلّها رجاء، واستعطاف، قلت ببطء:

- الحرب تخلص.. وياخد كل واحد منّنا اللي نفسه فيه.

قالت وقد انقلبت سحنتها إلى التمرّد الهائل:

- لو ما نفذتش وعدك.. هموّته...

أيقنت أنها صادقة في ما تنذر، وأنه من العبث اللهو بها، أو مماطلتها، فابتسمت مشجّعاً:

- هنفّذ وعدي.. سيكون الرجل ملكك.

وضحكتُ لدى مغادرتها وأنا أضمر شيئاً آخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تسلّمني شاهيناز للمرتزقة، لكنني لم أتخيّل قطّ أنها ارتكبت ما ارتكبته من أجل الحب. الحب يفعل المعجزات، ويخرب الدنيا. تلقّيت أخبار كل ما دار بين المشرحجي والمرتزق، بالطبع الرجل لم يكتب لي شيئاً، لكنني كنت واسع العلم، وأتلقى ما يفيد تقريري الطويل من مصادري السرية، بوسع الأجانب أن يثيروا شغف المحليين، ويستدرجوهم ليقولوا ما يحدث في الغرف السرية وأقبية التعذيب، وحتى أعتى القاعات قتامة وتأميناً.

أما عن المشرحجي، فأظنّه رضخ، أخفقت في الوصول إلى ما حدث معه في النهاية، رغم كل محاولاتي. تواصلت فظائع حرب الولادة، بينما مفاوضات باردة تجري في الغرف المغلقة.

في هذا الجزء من التقرير، الذي أعتبره أهم أجزائه، كنت محظوظاً لأنني اقتربت من «سين. عين»، الرجل الناجي من الوباء المتفشّي، كأنه كان في الفضاء حينما ضرب الڤيروس نصف سكان المدينة، اقتربت منه، وعشت معه في علوة المنتصر، بباب الشمس، بعد إنقاذه من منزله في عين الشوق. حكى لي كثيراً، حكى كيف عاش بخصوبته ونطفه قبل اندلاع الحرب وهو لا يعرف أنه نجا من مصير أهل بلد المحيط. وكيف كانت حياته أثناءها. حكى كيف انتهى. كيف توصل إليه ذهني وحسين المشرحجي وياسمين، وكيف كان مصيره في النهاية. ما لم أعلمه فعلاً، ما إن كان قُتل أم سقط في قبضة المرتزق وأخفاه الأخير.

تركنا المشرحجي واقفاً على بوابة كهف الستّ أم دينا السري، وتركناه مرة أخرى مقبوضاً عليه في مواجهة المرتزق، لا نعرف مصيره. السطور التالية ستكشف هذه التفاصيل، نحاول هنا هتك السر الذي حُظر في هذه الأحداث، سنقترب هذه المرة من بطل هذا التقرير «سين. عين» الناجي، مربي السلاحف أو الرجل الخصب الأخير. الحديث عنه سيكون منتهى الوصول لنهاية هذا التقرير، لهذا تركته حتى النهاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«سين. عين» الناجي: الضحية المغلوب على أمره

(1)

كل صباح أنهض من النوم بصعوبة، أستيقظ مترنّحاً، ثم أعود لأضع وجهي على المخدة، فأشعر بالقلق. إنه جورج الذي لن يعتقني إذا ما تأخرت دقيقتين عليه. منحه رئيس التحرير محمولاً للاتصال بنا بدءاً من التاسعة. كل دقيقة باتصال، كل دقيقة يوجّه لنا تقريعاً في الهاتف، وحينما نصل الجرنان أخيراً نتلقى تقريعاً إضافياً. جورج ميهوب رئيس قسم الأرشيف الذي أعمل فيه، وظيفته الحقيقية هي الإشراف على مواعيد حضورنا وانصرافنا، لا يعمل أي شيء طيلة يومنا، المفروض أن يشاركنا واجباتنا اليومية ومهام عملنا، من استخراج الصور المطلوبة للموضوعات التي تُنشر في الصحيفة الورقية، أو يشاركنا أرشفتها، لكنه لا يفعل شيئاً من هذا.

يكتفي بالمرور فوق رؤوسنا والتأكد أننا لا نلهو في «فيسبوك»، أو نفعل أي شيء آخر ليس له علاقة بالعمل.

أدّخر كل يوم رغبة دفينة في ضربه، أو توجيه لكمة إلى أنفه، لكنني لا أشتبك معه أبداً. ولا ألجأ للتشاجر. يسمونني صاحب الأعصاب المثلجة، يعرفون أنني صبور، وصامت دوماً، ولا أمارس أي هواية في الدنيا سوى تربية السلاحف، وأعتبر جورج رئيسي في العمل، سلحفاة يجب أن نمدها بالجرجير والخس، لعلها تختبئ داخل قوقعتها، أتمنى أن يختفي جورج، داخل قوقعة ما، ولا يعود. هذه هي الأمنية الوحيدة السيئة التي أتمناها لأحدهم في العالم، غير ذلك، لا شأن لي بالعالم، سوى ما يوفّره لي من طعام لسلاحفي.

دائماً ما أنجح في كتمان مشاعري مثل سلاحفي، أشد فوقي قبّةً وهمية تشبه قبة سلاحفي المقواة، صمتي هو سمائي التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعزلني عن الهراء اليومي. أتمنى التحرر من وظيفتي لأتفرغ لتربية سلاحفي، ومراقبتها وهي تنمو، وأشعر بشغف من فكرة أنها ستعيش أكثر مني، لهذا أتمنى البعد عن البشر في المطلق، والتوحد مع سلاحفي. لا أرغب بعمر مديد، كثيراً ما تمنيت الموت قبل النوم، وأجهّز نفسي لهذا الموت بارتداء أنظف ثيابي قبل دخول السرير. البشر كائنات كريهة، أسوأ ما خلق الله، لماذا خلقني مثلهم؟

أحياناً أشعر أنني لست مرئياً، لا أحد يشعر بي، لا أحد يتحدّث عني، أو يذكرني مصادفة. في جدول المرتبات الشهر الماضي، سقط اسمي سهواً، هكذا فجأة، ومن دون مقدمات، ذهبت لأقبض الراتب من ماكينة «الإي تي إم»، فوجدت بضعة جنيهات بالرصيد. فضلة راتب الشهر الماضي، لم أشك في سقوط اسمي سهواً، بل أرجعته لتأخر الرواتب.

كانوا ينسون استدعائي لحضور اجتماعات مع رئيس التحرير، وهذا كان يسعدني، لكنني كثيراً ما كنت أشك أن الناس لا يشعرون بي، لا يشعرون بوجودي. حينما تكررت واقعة عجيبة ومشابهة مثل واقعة سقوط اسمي سهواً من الراتب، إذ انقطع صاحب البيت الذي أسكنه، عن تحصيل الإيجار مني ستة أشهر.

إلى أن رأيته مصادفة ذات يوم، فقلت له بدهشة:

- حاج محمد.. حضرتك ما أخدتش مني الإيجار بقالك ستة أشهر؟ خير؟ أنت كنت عيان؟

حدّق الرجل فيّ بدهشة، كأنه تذكّر ميتاً كان يجب أن يدفنه. عدت يومئذٍ إلى العمل، محاولاً إيجاد تفسير منطقي لهذه الوقائع، لماذا ينساني الناس؟ لم أشعر بظلم كبير، لكنني شعرت بدهشة مستمرة، وسعادة مستترة، على ما يبدو أن أمنيتي تتحقق، وأنه سيكون بمقدوري قريباً أن أعيش وحيداً مع سلاحفي.

في الشقة التي نجتمع فيها بجمعية الرفق بالجاموس، كان هناك ركنٌ يحرص عمّ سامي الكهربائي، أحد رفاقنا في الجمعية، على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تزويده باستمرار بوجبات طازجة من الخضراوات، التفاح، الخس، والجـــرجير، وكـذلك السـلطات الخضـراء، والـجزر، والخيـار، والكمثرى، والكانتلوب في بعض الأحيان. كنت أدسّ خِفية عدداً مـن ثمـرات التفاح والكمثرى فـي حقيبتي، لميمي سـلحفاتي الجديدة. تحب التفاح للغاية، ويلتهمه أشقاؤها في شهوة، كانت ميمي محطّ اهتمامي مثل مولود جديد، جنين يرى النور في منزل مليء بالأطفال الأشقياء. لم أستطع التركيز في ما يقال، حينما بدأ الاجتماع كان محور الحديث يدور حول إضراب الجزارين، كان رأي معظمهم هو استغلال هذه الفرصة والتحدّث مع المضربين لإقناعهم بأن مهنتهم هي أسوأ مهنة على سطح الأرض.

(2)

لم أعرف كنه البقعة الصفراء التي واجهتني بها جارتي «فوقية».

كانت تصرّ دائماً على غسل ثيابي، تفعل ذلك محبةً وطمعاً في المبلغ الذي أدفعه لها كل شهر. تكسب رزقها من الخدمة في البيوت، لكن معاملتها لي كانت مختلفة، لا أظنها تقترب جسدياً من صاحب كل بيت تعمل فيه، مثلما تفعل معي، كلما جاءت لمهمتها الثقيلة عندي في البيت تفضّل ارتداء عباءات حابكة تبرز تضاريس جسدها وجغرافيته، تقف في حمّامي، بعدما تتجرّد من العباءة وتبقى فقط بجلباب بيت وردي اللون.

فوقية أرملة، توفي زوجها بعد اشتعال عربة من عربات قطار السولار الذي كان يقوده، لم يترك لها أي شيء، ظلت وحيدة، أنقذها استعمالها لجسدها من التشرّد. هكذا كانت تصف الأمر: «استعمال جسدها»، إلى أن عثرت على عمل في منزل إحدى الجزّارات.

وكلما جاء يوم إجازتي الأسبوعية، تصدِّع رأسي بنفوذ سيدتها، وحبّها للخير، تحكي عن الست التي اجتمعت لها أسباب الثروة والنفوذ، لكنها لم تُوفَّق إلى رجل يصونها من همزات الشياطين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنت أستمع لها بعقلٍ فارغ، وفؤاد مطمئن مستكين لزوال الهموم التي تثقل قلوب باقي الخلق.

في ذلك الصباح، حينما رفعت فوقية اللباس الداخلي الذي كنت أرتديه أول من أمس، هتفت في جذل: «أنت لسّه بخيرك؟».

لم أفهم شيئاً. اقتربت مني وعيناها تلمعان في شغف، تحسّستني في لهفة، كأنها تتأكد من وجودي، وتلمّست خديّ بكفّيها في شوق وهيام، وشهوة مستعرة مكبوتة. دفعت أصابعها في ريبة، فأقبلت أكثر تجاهي، وسألتني وأنفاسها تتلاحق إن كنت قد نمت مع إحداهن ليلة البارحة.

لم أنم مع أحد طبعاً. شيء ما أثارني، أعتقد أنني حلمت حلماً جنسياً، يجمعني بسلحفاتي، أظنني رأيتها في هيئة إنسانية. لكن كان هناك شارب في وجهها، شارب وذقن نابتة، سرعان ما تبيّنت أن سلحفاتي تحوّلت إلى نصف سمكة، ونصف شاب نضر، شيء من هذا القبيل، وكان شاباً فاتناً، بينما أعانقه لثمت شفتيه في شوق، احتضن ذراعي على الرغم من قوقعته الصلدة. استيقظت من الحلم، فوجدت ردائي مبتلاً، لم أتوقف عند الأمر كثيراً. منذ فترة اعتدت أن تتولى أحلامي تنفيس كبت جسدي، أظن أن غضبي يتجمّع طيلة النهار، ويتحوّل عند النوم إلى مادة سريعة الذوبان، ترغب في أن تخرج من جسدي بأي طريقة، لهذا تعاودني الأحلام، وأصحو رطباً.

هرعت فوقية إلى الصالة، ممسكة الملاءة، وقطعة ملابسي الداخلية، ودسّتهما في حقيبتها، كأنها تذكرت شيئاً. التفتت إليّ مرتبكة، قائلة في رجاء: «والنبي يا بيه.. اسقيني!».

أطلّت من عينيها نظرة حرمان قاسية، ممتزجة بفيض أمل، اقتربت مني، والتصقت بي، شعرت بطاقة جسدها الهائلة، انتقلت إليّ رجفتها، ولسعتني درجة حرارتها المباغتة، لم أبعدها عني، سبقتني وقبضت على أصابعي احترازاً، كدت أجيبها إجابة مضحكة على غرار: «الماء في الثلاجة»، لكنني استرجعت نفسي برهة، طلبها لا يدور حول الماء بالتأكيد، إنها تطلب شيئاً آخر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بإصرار وبإلحاح، ولكنني لا أرغب في ذلك أبداً، لا أرغب فيه، ربما تكون فوقية مثيرة، جسدها ممتلئ وخصرها مستدير، مؤخرتها بالتأكيد لدنة، شهية، لكنني لم أختبرها، أما وجهها فلم يكن جميلاً، ملامحها تعلوها طبقات الذل والخدمة والشقاء، قلت لها حذراً: «أنت واخدة هدومي على فين؟».

انتبهت إلى أنني لحظت ما فعلت، دفعتني وهرعت إلى باب الشقة، وهي تحتضن ملابسي الداخلية، كأنها عثرت على كنز، وابتلعها السلّم.

(3)

بعد يوم مرهق في العمل، عدت أخيراً إلى منزلي، بينما كنت أمرق إلى مدخل البيت، مررت بجوار ثلاث سيارات سوداء تقف في مواجهة مدخل العمارة، كعادتي لم أعبأ في البداية لها، إلا حينما نزل أحدهم من سيارة منها، وطلب أن يتحدّث معي قليلاً في شقتي. وقفت برهة متجمداً أمام طلبه، فابتسم، وقال لي وهو يظن نفسه قادراً أن يطمئنني: «أنا من طرف فوقية».

لم أعقّب، ظللت واقفاً قلقاً، أتفرّس فيه، هذه هي المرة الأولى التي يقترب فيها أحدهم مني، ويطلب الحديث معي، هتف الرجل بعد قليل: «ذهني»، فهبط من سيارته نفسها شابٌّ آخر، يصغره في السن، وإن تشابه معه في الوجوم نفسه المرتسم بالملامح، وقف يتأملني من رأسي إلى قدمي، يتفحصني كأنه لا يتصوّر وجودي، يرمقني بنظرات كلها شك، وحزن، وغيرة، ثم مدَّ لي يده عكس الأول، ليصافحني.

قال الأخير إنه زوج صديقتي «ياسمين» في جمعية الرفق بالجاموس، ثم أعاد الطلب في أن نصعد إلى الشقة لنتكلم على راحتنا.

***

قال الرجل الأول، الذي عرّفني أن اسمه «حسين»:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إحنا طريقتنا تظهر غريبة شوية.. لكن كل حاجة غريبة دلوقتي هي اللي بقيت بتحصل يا أستاذ.

صمت، فلم أعقب، لأنني لم أفهم، حاول أن يقول شيئاً، فخرجت منه تمتمات غير واضحة في البداية، قاطعه زوج ياسمين لأول مرة:

- حضرتك متجوز يا أستاذ؟

- معقولة ناس تيجي في ساعة زي دي.. ومتعرفنيش ولا فيه بيني وبينهم حاجة وتسألني إن كنت متجوز ولا لأ؟

قال حسين:

- لأنك لو متجوز هتكون عارف إن العالم نشف.. هتكون جربت دا، لو مش متجوز.. هنضطر نشرح لك، أو يمكن يكون هو دا السبب اللي مخليك ساهي ومتعرفش حكاية الوباء.

ارتسمت عليّ علامات الجهل، حدّقت في الأرض، هكذا أفعل كلما أهرب من شيء أجهله، انتزعني ذهني من أفكاري:

- إحنا بقالنا سنة بندوَّر على حدّ لسّه فيه الرمق.. الرجالة قطعت.. وفوقية لقيت بقعتين في ملابسك الداخلية.. مش الحاجات دي تخصّك؟

قالها وهو يضع أمام وجهي ملابسي الداخلية. شعرت بالخجل، كيف لا يخجل الرجال؟ في النهاية الخجل مغروز أسفل جلدنا، يوجد في مكانٍ ما في إحدى الخلايا المجهولة، كنت مثل فتاة يواجهونها بدم البكارة، لم أستطع أن أرفع رأسي لأواجه ذهني، الذي بدا كما لو كان يواجهني بجريمة، قال حسين:

- إحنا آسفين لو بنحرجك أو بنتكلم كلام مجانين.. الناس بتموت، لو مكنتش تعرف، الناس رايحة في سكة واحدة أو ماشية في طريق واحد.

قاطعته فجأة وأنا أحدّق فيه بنظرة من يختنق، أو يعجز عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التنفس:

- أنا معنديش أي فكرة عن الكلام اللي أنت بتقوله.. أنا كل يوم بروح الشغل وباجي من الشغل.. مش بمشي في سكة واحدة.

تراجعا، لمحا في وجهي نظرات عدوانية، ولمحت في وجهيهما استنكاراً لغبائي، شعرا بالدهشة، بالصدمة، استعاد ذهني هدوءه، وقال بعدما تجشّأ:

- المعلومة شكلها لسّه ما وصلتش.. فيه حدّ لازم يفضل يخلّف.. ممكن الحل الأصح في الحالة دي هو أنه يختار يحطّ بذرته فين لكن ميبطلش خلفة.

نهضت من على مقعدي محتدّاً وأنا أتحرك تجاه الباب:

- لمّا هفكر وملاقيش حل مع بذوري هبقى أتصل بيكم..في اللحظة دي أنا مضطر أقول لكم اتفضلوا برّا بيتي.. أنا مش ناوي أفكر في حلول لإنقاذ الدنيا النهاردة.

(4)

هبطا والفشل يثقل كاهليهما، كانت المناقشة عبثية للغاية، ومستفزّة، وغير مفهومة. أيّ عالم هذا الذي يدعونني لإنقاذه؟ وكيف يلتقي أحدهم بشخص ما للمرة الأولى، ويتحدّث معه عن ضرورة أن ينجب.

هذا العالم الذي ينساني، ولا يشعر بوجودي، هذا العالم الذي بمجرد أن تشرق الشمس، يسارع أبناؤه لتقبيل أحذية مديريهم في العمل، هذا هو العالم الذي يدعونني إلى إنقاذه، العالم الذي يدعونني إلى الحفاظ عليه، وحمايته من الفناء، لا يشعر بوجودي، وأنا كارهٌ له، نتبادل الكراهية، أي عالم يدعونني لإنقاذه من الفناء؟

لا شيء في هذا العالم يستحقّ النجاة من الفناء سوى سلاحفي اللاتي تخطو في بطء بالقرب مني، لأنها عاجزة عن أي شيء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتحتاجني أن أمد لها كفي كل يوم بالخس والجرجير، هي علي الأقل لا تكذب، لم تخترع وسائل لنشر الكذب، لم تخترع التلفزيون، لم تخترع الصحافة، لم تخترع الخطابة السياسية، سلحفاتي مزوّدة بقواقع صلدة تحميها من مخاطر البشر وكذبهم، ونفاقهم، لأن الخالق أدرك حاجتها إلى مثل هذا الدرع في عالم يعيش فيه البشر. سلحفاتي لا تغتاب زميلتها، ولا تنافق سلحفاة أخرى، لا تحتاج أن ترشوها، لا تحتاج أن تستدعيها إلى قبو مظلم لتحقق معها بالساعات، لا تحتاج أي سلحفاة لتعذيب سلحفاة أخرى، أو إلى كهربتها، أو إلى إهانتها بأقبح الألفاظ.

الآن يدعوني هذان الشخصان لإنقاذ المدينة، التي نسيني كلّ أفرادها وحكومتها، حتى مؤسسة المجتمع المستقيم نسيتني وتركتني عازباً، فلم تجبرني على الزواج، مثلما فعلت مع غيري. وهذا ما أراحني، لأني لا أحب النساء، وربما أفضّل عليهن أبناء جنسي.

تلك الليلة استقبلت زيارات من شيوخ أرادوا تزويجي، وانتهت كلّ تلك الزيارات نهايات صادمة. هدّدوني بمصادرة بدني وتأميمه، وهدّدتهم بقتل نفسي إذا ما حاولوا تزويجي رغماً عن أنفي.

جلست أفكر في كل ما حدث، وأنا أتخبّط في أفكاري سمعت الباب يطرق، توجّهت إليه وفتحته، فوجدت أمامي ياسمين!

(5)

شعرت من نظراتها أنها تراني للمرة الأولى، كأنها لا تصدّق أن زميلها عضو جمعية الرفق بالجاموس، هو الرجل الذي يتحدّثون عنه، هو الرجل الذي حوّلوه إلى أسطورة.

واقفة على عتبة الباب، بكلّ بهائها، وجمالها، وفتنتها. لم أتمنَّها يوماً، لكنني لمحت في عينيها تلك النظرة، النظرة التي تفتن الرجال، تقلب كيانهم، لكنني كنت ساهياً في ملكوتٍ آخر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تصافحني، اكتفت بقول:

- ممكن أدخل؟

- طبعاً، دا أنتي جيتي في لحظة مهمة!

كنت أقولها متهكّماً، مبتسماً ابتسامة مريرة، أو قلقة. دخلت، بعبيرها، وخفّتها، وجدائل شعرها الطويل، هي لم تنتقل كتلة واحدة إلى الشقة، شعرت أنها تنتقل طرفاً طرفاً، أو جزءاً جزءاً، شعرت بخفّتها في هذه اللحظة، روحها تخفق، بينما ينتقل جسدها إلى داخل شقّتي لتمرّ بجواري، وهي تتأملني عن قرب، شعرت بخفقان روحها، شعرت أنني لم أرها من قبل، لكنها كانت تراني، وفي هذه اللحظة التي دخلت فيها شقتي، كنت أنا من يكتشفها، وليست هي.

كما أشكو من أن الناس لا يرونني، أكتشف الآن أنني لم أكن أراهم. كيف لم أرَ ياسمين من قبل؟! جلستْ، ووضعت ساقاً على ساق، تراجعت حافة فستانها قليلاً إلى ركبتيها، كانت ترتدي حذاءً جلدياً أنيقاً، ظللت أرمق ساقيها البضّتين، فضحكت، قائلة:

- هتفضل واقف كتير تبصّ على رجلي؟

انتبهت في هذه اللحظة إلى أنني كنت فظّاً أكثر من اللازم، قلت:

- احنا بنتقابل في الجمعية، لكن عمري ما خدت بالي إنك جميلة.

ضحكت وهي تجيبني:

- حد يقول كدا برضه لواحدة ستّ؟ عمرك ما خدت بالك من إني جميلة؟! طب حاول تصلّح غلطتك دي بكلام تاني.

قلت وأنا أجلس قبالتها:

- أنا معرفش إيه الكلام اللي المفروض أقوله للست الجميلة، ممكن أكون فعلاً عايش فترة مش واخد بالي من حاجات مهمة حواليّا، لكن الناس مش واخدة بالها مني، فأنا قررت أتجاهلهم.. أنا مش حاسس إن فيه حاجة نقصاني وأنا بعيد عن الناس.. دا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مريّحني أكتر.

حدّقت فيّ بعينين لم أتخيّل أنهما فاتنتان هكذا، ثم مدّت كفّها الأيمن وتحسّست كتفي، قائلة:

- دلوقتي أنت كل الناس محتاجاك.

- آه، وأعلى مؤسسة دينية في البلد، الجامع الكبير، بعتوا لي شيخين النهاردة الصبح عشان يأمموني.. هياخدوا جتتي ويجوّزوها ثماني ستّات!

امتقعت ملامحها، وتراجعت في جلستها، ثم أطلقت ضحكة مجلجلة. كانت تبدو في ضحكتها مثل مدينة تحتفل، أو شجرة تطرح ثمارها وتضرب بها الأرض بقوة، كأنها تحاول أن توقظها.

- ذهني اللي جه يقابلك هو والمشرحجي يبقي جوزي على فكرة.

فقلت مبتسماً في حرج:

- عرّفني بنفسه.. وهو برضه معندوش؟

- مفيش حد عنده غيرك.. الستات هتقطع إيديها بالسكاكين على نقطة منك، رجالة البلد كلها مشغولة بك، هتكون أنت سبب فتنة الدنيا الجديدة، هتكون الجنة اللي الناس مطرودين منها، جايز يقتلوك، وجايز يمصوا دمك نقطة نقطة، جايز يعملوا منك معمل لتلقيح آلاف الستات.. هتكون أنت الزهرة، والوردة، وكل النحل هييجي يلدغك، هيتخانقوا عليك، هيصلبوك، إزاي تفضل أنت ببركتك، وهم معدومين، وناشفين؟ إزاي فيه واحد زيك، مش ملك؟

شعرت بالقلق مما قالت، كانت تقوله بجدية، بصدق، ارتعدت ركبتاي، واحمّر وجهي، فجلست. جاءت وجلست بجواري، وعانقتني، كأنها شعرت بذنبها الفادح في بث الهلع بقلبي. لا أتذكر تحديداً كيف حدث ما حدث بعد ذلك.

في لحظة من اللحظات تذكّرت أنني وحيدٌ للغاية، وبدأت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البكاء، لم أبكِ منذ فترة، لم أبكِ منذ سنوات، هل صحيح ما يقال إن الرجل كي يبكي يحتاج إلى حضن أمه؟ لكن هذا ما حدث، بكيت، فاحتضنتني ياسمين، فزاد بكائي بغتةً، شهقت مثل طفلٍ تكاثر حوله الأشقياء وضربوه، تذكّرت اللحظة التي فتحوا فيها باب الحمّام، وكنت عارياً، وزميلي الفظّ يقبض عليّ من خصري كأني خروف يتهيّأ للذبح، ويضع عضوه فيّ، تذكّرت صفعات المشرفة على وجهي، وصرختها وهي تقول لي: «يا خول»، كأنها قالتها لي الآن وأنا في حضن ياسمين.

شعرت في لحظة أنهم جميعاً يطلبون رأسي، وأنني لا أبكي من أجل هذا الرأس، بل أبكي لغرض مجهول. كنت أرغب أن يطول عناق ياسمين لي، لكنها حوّلته إلى شيء آخر.

انهالت قبلاتها على شفتي، بينما أنا مستسلم، كنت غرّاً، يجرّب للمرة الأولى معنى القبل، ومعنى هذه الحياة الجديدة، تعانقني، وتتحوّل دموعي إلى دموعها، فأكتشف عشوائيتي، وكيف أعجز عن منحها قبلها، فترشدني، تهديني الطريق، أكتشف معها أنني طفل، يتعلّم الخطو للمرة الأولى، كيف أمنح العالم نطفي وأنا أعجز عن منح قبلة؟ قبلة تافهة، قبلة هي أولى عتبات هذا الفعل الحسّيّ الكبير، الحب، التلاحم، ولكن في النهاية قبلة لا يمكنها أن تفعل أكثر من أن تجعل أحدهم يتعرّف على بداية هذا الطريق الهانئ، اللانهائي، طريق النعيم.

في هذه اللحظة التي تعلّمني ياسمين كيف أقبّلها، وتربّت على رأسي، وتجعلني أكتشف معها طريق القطن الأبيض، البياض الأخير المتبقي في هذه المدينة، بياض جسدها الناصع البضّ، أسير في هذا اللؤلؤ المنثور تائهاً، أتخبط في الفراء الحريري الناعم، وأتعثّر، ولا أسقط، أتنهّد فأستنشق عبيرها الأبيض، أستنشقها، فتمتزج داخلي روائح الفلّ والريحان، يعانقني لحم ياسمين، يحتضن أجزاءً مني للمرة الأولى، فأسمع العصافير تزقزق، بينما خشب فراشي يصدر صريراً مرحّباً بنا للمرة الأولى، أسمعه يتمتم قائلاً: «ماذا يحدث هنا؟ جميلة ترقد أعلاي؟ من أين جاءت الجميلة؟».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من القبلة الأولى على رقبة ياسمين، حتى القبلة الأخيرة بين فخذيها، شعرت أننا ننتقل بخفّة دخولها للمرة الأولى إلى عالم آخر، عالم استوائي، تهطل فيه الأمطار الموسمية باستمرار، تزهر فيه الزهور اليانعة، ونمرق بين عبير الورود، ونلمس الندى على جبيننا، على رقبتها، وعلى صفحتي خديها.

***

بعد ثلاثة أيام من الانقطاع عن العالم، فتحت ياسمين هاتفها. وما هي إلا دقائق حتى جاءها اتصال. حينما أجابت، تلوّن وجهها وامتقع، فتحت بثاً مباشراً لإحدى القنوات على هاتفها المحمول، لنستمع معاً إلى البيان الذي تبثّه التلفزيونات، كانت وزارة العسس تعرض بياناً عن مجرم مطلوب للعدالة:

«إلى السادة المواطنين

جاءنا البيان التالي من وزارتي العسس والصحة

تحذّركم وزارتا الصحة والعسس من شخص مريض بأمراض مزمنة مستعصية، يدّعي قدرته على إخصاب النساء، وجعلهن قادرات على الإنجاب، تحذّركم الحكومة من أن أي تعامل مع هذا الشخص، سوف يؤدي إلى أمراض مستعصية، لا حصر لها، وتعلمكم الأجهزة المعنية، أنه إيماناً منها بدورها في حماية مواطنيها، فإن قوة منها تتحرك الآن لضبط الشخص المريض المذكور وإحضاره، وحجزه في وحدة صحية، وعزله عن كل فئات الشعب، لمنع انتقال أي عدوى فيروسية إلى أي شخص سليم».

هبّت ياسمين لترتدي ملابسها، وجلبت قميصي وبنطلوني، وشرعت تجبرني على ارتدائهما، كنت متجمّداً، عاجزاً عن الفهم، مشلول الفكر تماماً، كأبله أصيب فوراً بالشلل، مرعوباً هو الوصف الأدقّ لحالتي. اتصلت بالشخص الذي هاتفها، وسط حالة الخرس التي أصابتني، طلبت منه أن يأتي بسرعة، أجابها الآخر بما يعني أنه استمع للبيان، وأنه قادم فوراً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد دقائق من بث البيان، لم يكن الليل قد سكب سواده على وجه الدنيا، نظرت ياسمين من النافذة، وهي تخشى أن نغادر. من بعيد، من أول شارع عين الشوق الرئيسي، بدأت تقترب سيارات جيب مدنية، تقلّ غرباء مجهولين مدججين بالسلاح، هتفت ياسمين في هلع:

- أنت فين يا ذهني؟ أنت فين أنت والمشرحجي؟

كانت الأقدام تتسارع نحونا، وكنت عاجزاً عن الإدراك، مثل أبله تماماً، فجأة ظهرت مجموعة من النسوة في محيط الشارع، كان عددهن كبيراً، كأنهن مسيرة ضخمة، تدعو للمساواة، أحاطت النسوة البيت كأنهن يحرسن أطفالهن في الحضانة، هتفت فيّ ياسمين:

- يالله لازم نمشي من هنا...

قلت وانفعالي يقيّد قدمي في مكانها أكثر:

- هنروح فين؟ والسلاحف؟

تعالت أصوات النسوة، شعرت بالغثيان، والدوار الشديد، بدأت الأشياء تهتز، الحوائط، المكتبة، حوض الأسماك، الماء يضطرب، أصوات النسوة في الشارع تتحوّل من هتاف إلى صراخ، لماذا تهتز هذه الأشياء؟ في الخارج هتفت النساء، بينما مجموعة من الغرباء يحاولون شق جمعهن، واختراقهن، فجأة تحطم باب الشقة، دخل حسين المشرحجي يمسك مدفعاً، وخلفه ذهني يمسك بقبضته سلاحاً آخر، ويحاول أن يخبئه في صدره، كان مشهدهما منتزعاً من فيلم كابوسي، الليل خيّم، وبدأ إطلاق النار في الخارج، هتف فيّ حسين وهو ينتزع عباءة نسائية من حقيبة يده:

- البس دي بسرعة، وأنتي يا ياسمين لبسيه الإسكارف بتاعك.

هل سينجيني الإسكارف؟ هل سيكون السجادة السحرية التي أمتطيها للهروب منه هنا على طريقة لص بغداد؟ ارتديت العباءة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأصوات الطلقات تشقّ سمعي في الخارج، وصرخات نسائية تندلع مختلطة بضرب النار، وفزع هائل يخيّم على المنطقة، انتزعني حسين المشرحجي، وطوّقني ذهني، وجاءت خلفنا ياسمين وهي تحيط رأسي بوشاحها، هبطنا إلى الطابق الأرضي، بمواجهة مدخل العمارة كانت جحافل النسوة يحتشدن ويمنعن المجهولين المدججين بالسلاح من اقتحام العمارة، وكانت الرؤوس متدلية من البلكونات تراقب في فضول، على الرغم من ضرب النار.

سرنا بعيداً عن جنود العسس. فجأة ظهر رجلان من بعيد، وأطلقا النار بجنون تجاه الجنود المحتشدين. التفت هؤلاء وقد أدركوا أن أحدهم يحاصرهم، هرعوا نحو الرجلين، وبادلوهما إطلاق النار، فألقى أحدهما قنبلة دخان، انفجرت بصوت مدوٍّ. اختفى المهاجمان، وهرع الجنود لتأمين المنطقة، فانتهزنا الفرصة، وابتعدنا عن الحصار المضروب حول بيتي. فجأة فكّت النسوة السوار الذي عقدوه حولي، بعدما تأكدن من مغادرتي مع ياسمين.

(6)

في باب الشمس في علوة المنتصر بمنزل كئيب يقع في شارع ضيق يسمى «عطفة عطالله»، قرروا أن يكون محل إقامتي الجديد. عرّفوني هناك على شخصين غريبي الأطوار، رجل أجنبي يكتب تقريراً عن ظاهرة جفاف الرجال، وسيدة فاتنة، تبدو يافعة، في بداية حياتها، ملامحها غضة، نضرة، لكنها ما أن تتكلّم، حتى يتبيّن من يسمعها أن سنها يفوق مظهرها بالكثير، كانت تسمى شاهيناز. وكانت تكره كل الناس، مثلي، وتظن أنهم يضمرون لها الشر. كانت تشبهني بشكل ما، لكننا لم نرتح أبداً للحياة معاً في البداية. الأجنبي اعتبر نفسه محظوظاً لأنه يعيش معنا، أسفل سقف واحد.

شعرت بالتعاسة، لقد تحوّل مجرى حياتي إلى الأبد، صرت حبيساً، مقموعاً، تحركاتي مرهونة بكلمة من ذهني، والمشرحجي. حتى ياسمين، لم تستطع أن» تبوح بما حدث بيننا، لكنها كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتمنى شيئاً. كانت تتمنى أن يثمر ما حدث بيننا عن شيء، تأتي لزيارتي كثيراً، وسط استياء عارم تبديه شاهيناز نحوها. كان القرار أن أقيم في هذا المكان حتى تنتهي الاضطربات، ويكف البحث عني، لكن الاضطربات زادت، وتحوّلت إلى مواجهات، وحرب شوارع، ثم استقرت على الصورة التي عرفناها في ما بعد بعام، صارت حرباً أهليةً تدور رحاها في بلد المحيط.

كانوا يدركون من البداية أن ثمة حرباً ستندلع، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك، قالوا لي إن كل شيء يدور أنا السبب فيه، قالوا لي إن كل نفس تزهق، كل دم يسفك، يتعلّق بي. رفضت من البداية أن أكون سبب هذه المعركة، طالبتهم أن يتوقف هذا الابتزاز، قلت إنني سأسلّم نفسي، سأصارحهم أنني عنّين، لا أصلح للنساء.

تبقي حياتي مرهونة هنا، بالبقاء مع شاهيناز، التي تفعل كل ما في وسعها، لترضيني. تصبح حانية، وأماً، ربما رأت حلماً طمأنها تجاهي، المهم أن معاملتها تغيّرت، وصارت تفعل ما بوسعها لتجعل إقامتي مريحة. لم تجرّب أن تقترب مني، لكنها فَسَّرت ضجري منها على أنه ميل تجاه ياسمين، مما زاد من جنونها.

استمر الوضع هكذا إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قال لي فيه المشرحجي أن الست أم دينا تقترح أن أنتقل إلى قصرها في بلد الشيخ لأنه أكثر أمناً، ويحوي مخبأ لا يستطيع أحد الوصول إليه أو تفتيشه.

سمعت شاهيناز ما يقوله، وارتعشت غضباً، قاطعته فجأة: «قصرها إيه دا اللي هيكون فيه بأمان؟ أنت مش هتبطّل شغل القوادة دا!».

هبطت كلماتها على رأسه كالصاعقة، اضطرب جفناه غضباً، وعضّ شفتيه كاظماً غيظه، ثم استدار وغادر. كانت المرة الأخيرة التي نراه فيها، قبل سقوطه مباشرة، حدجته شاهيناز بنظرة حاقدة. كانت تراقب الجميع بينما يسلّمون عليّ، ويصافحونني قبل المغادرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم اشتعلت الدنيا، كان صوت الرصاص إلى الجوار، شديداً وهائلاً، الضرب اشتغل، رصاص، وصرخات، وتفجيرات متعاقبة. مصدر الأصوات شارع المنتصر، هرعنا إلى البلكونة حيث يقف الأجنبي، الذي بدا عليه أنه لا يعبأ بأي شيء، مكتفياً بمواصلة تدخين سيجارته بشراهة.

(7)

فاحت رائحة الخيانة بعد أسر حسين. خاصة أن ذهني نجا من قبضة المرتزقة الذين نفّذوا عملية الإنزال والقبض على المشرحجي. عقد ذهني اجتماعات عديدة مع النسوة اللاتي يتحمّلن مسؤوليات الشوارع الراضخة لهن. وسط شكوك في قدراته على مواصلة ما بدأه المشرحجي، ورغبة في الأجواء في تحميله مسؤولية سقوطه. كانت شاشات قنوات ميليشيا الفارما تنقل صور حسين بغزارة وكثافة غير مسبوقتين، مصحوبة ببيانات حماسية، تشيد بقدرة المرتزقة على إنهاء الحرب. استمر بث الأغاني الوطنية، مصحوباً بصورة حسين، بعد عامين لم يتعرّفوا خلالها على وجهه، بينما يتلقون الضربات، والخسائر المهولة بسبب قدرته على إخفاء وجهه وملامحه طيلة هذه الفترة، ونجاحه في التعرّف على رجالهم وعجزهم عن الوصول إليه، فكيف توصلوا إليه؟ زاد خوفي، اختفى ذهني فترة، ثم اختفت ياسمين، لكن الأحداث لم تكفّ عن التسارع. انهيارات عديدة بدأت تتوالى. بؤر مهمة كانت تستسلم، قادة مناطق يسلّمون أسلحتهم، ويطلب كبارها الأمان، مقابل الخروج الآمن، ونزع السلاح، وعدم المحاكمة. كفة المعركة كانت تميل، والهزيمة باتت وشيكة.

كنت أستيقظ خائفاً، وأنام خائفاً، لم تنتبني هذه المشاعر من قبل، شعرت أنني عاجز عن الحياة، بينما أنا أتنفس، للمرة الأولى أشعر أنني أرغب في الاستمناء، وحينما دخلت الحمّام، عجزت عن القذف، صرت مثل الجميع، مصاباً بالعجز، والنشفان، الآن لم أعد ناجياً، فقدت تاجي وصولجاني، ومع ذلك ظلّ الكلّ يطلب رأسي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحياة ملغزة، والجنون يستعمر النجوم، والقلق يخفق في جسدي خفقات أعلى من خفقات قلبي. كنا قد اعتدنا مشهد السماء المليئة بشهب الصواريخ، لا نعرف أيها سيدكّنا، لكنها آتية، آتية من كل موضع، إنها الحرب التي متنا فيها أكثر من مرة، ولم نحيَ أبداً.

حتى جاء اليوم الموعود، الذي ظهر فيه ذهني وياسمين فجأة، ظهرا من قلب الرعب المدوي في الخارج. جاءا ليحملاني بعيداً عن هنا، عن منزل شاهيناز. كأنها كانت تستعد لهذا اليوم، انفجر حقدها كله، لم تكن المواجهة سهلة. لكن في النهاية استطعنا أن نتركها ونذهب.

ولكننا لم نصل إلى المكان الذي أرادا أخذي إليه، إذ سقط ثلاثتنا في قبضة المرتزقة في الطريق.

كأنهم كانوا ينتظروننا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«شاهيناز»

منذ أن رأيته أدركت أنه الرجل الذي ظللت أنتظره منذ عقدين. هو الذي بمقدوره أن يدخل بكامل روحه داخل روحي، ويستقرّ، دون خدشٍ واحد في قلبي. قلبي الذي رهنته منذ عقود، وحمّلته الكثير من الحزن، وأعوامي المئة عبأته بالوجع، وأغلقت نوافذه بالأقفال، بعدما عانى من الصدود، والعزلة. الآن عاد ليصلّي، فتحت له نوافذه، وأزلت الأقفال. قلبي الآن يصلي، بينما هذا العاشق، يجلس في محرابه.

للوهلة الأولى، حينما رأيت «سين. عين»، وقد ارتسم عليه الهلع، والخوف، لا يدرك كيف تورّط في كل هذه الأحداث، شعرت برغبة عارمة في أن أحتضنه كأمّ، وأن أطمئنه كحبيبة، وأن أربّت على رأسه مثل عاشقة، وأن أقبّله مثل زوجة تخفّف جراح زوجها، تساءلت في نفسي: ماذا يحدث حينما تهطل قطرة ماء في القلب الخالي؟

جاء «سين. عين» وهو الذي لم يختلط من قبل بمن حوله، فوجد نفسه في صراع هائل، البعض يطلب رأسه، والبعض الآخر -وما أكثرهن- يطلبون منه شيئاً عزيزاً، لا يمكن له أن يمنحه كمن يمنح كوب ماء.

نشبت مشادّة بيني وبين ياسمين في مرّة من المرّات اللاتي تردّدت فيها على بيتي لرؤية الرجل الناجي من الوباء، صرخت فيها مهدّدة:

- هسلّمك ليهم.. ابعدي عنه!

-مش هتقدري تبعديني عنه.. أنا اللي هفضحك.. هقول لهم هنا فيه كائنة ممسوخة.. نص جميلة نص شمطاء.

مضيت إلى الطريق الملوّث حتى نهايته، بعتهم جميعاً، سلّمتهم واحداً تلو الآخر، بعد حسين المشرحجي، تردّدت مرات على الرجل القوي، وأنبأته بتحركات ذهني، وأنه سيحتمي في ضريح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سيدي العريان بسكّة سوق الزلط، ليدير منه المعارك، بدلاً من مسجد المنتصر الذي صار مكشوفاً. تحوّلت من خدمة الضريح إلى الخائنة اللعينة، أتردّد بردائي الأبيض على الضريح، وأجري سراً المكالمات من هاتف «الثريا» الوحيد الذي بمقدوره الاتصال بقوات المرتزقة التي تنتظر الفتك بالمصابين، العالقين، والراغبين والراغبات في النجاة من ويلات هذه الحرب.

حين جاء ذهني وياسمين، وقررا نقل «سين. عين» من بيتي، إلى بيت المعلّمة الست أم دينا، تحجّجا بأن المدينة تسقط في يد المرتزقة، وأنهم يكسبون الحرب، قالا إن حسين المشرحجي اعترف على ما يبدو بكلّ شيء، لم يشكّا أنني من يشي بهم، وأنني أخبرت الرجل بقصة المخبأ الذي حفرته الست أم دينا أسفل قصرها. تصوّرا أن سيطرة المرتزقة على جامع المنتصر، الذي كان يحوي آخر مستودعات سلاح كتائب النسوة، دليل على اعتراف المشرحجي ورضوخه للمرتزقة. لم يعرفا، أنهما بينما يقتادا رجلي إلى قصر الست أم دينا سيسقطان وسيصبح رجلي في خبر كان.

أخفقت في تعطيلهما، شعرت بالحاجة لافتعال مشاجرة، قلت:

- مش هتاخدوه من بيتي.. لو انطبقت السماء على الأرض.. مش هسيبكم تاخدوه من هنا.

حدجتني ياسمين بنظرات ساخرة، لم أفهمها، صحت في وجهها:

- بصي على قدّك يا وسخة!

تقدّم ذهني، وقال في جدية وتوتر:

- بصي يا ستّ الكل.. احنا عارفين ظروفك الخاصة.. دا لا يعني أبداً إنك تتطاولي علينا.. آه فتحت لنا بيتك، لكن الأوضاع دلوقتي اتبدلت.. لازم ننقله من هنا، الست أم دينا وعدتنا باستضافته في مخبئها، هيكون في أمان عندها.

- مش هسيبكم تاخدوه من هنا.. اللي عاوز ياخده من هنا لازم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقتلني الأول!

قلتها وأنا أحدّق في ياسمين، التي ظلت مبتسمة بسمتها الساخرة المستهزئة، فيما أطرق «سين. عين» بنظراته أرضاً، لم أمنح ذهني فرصة ليرد عليّ، انقضضت عليه بقولي:

- مراتك خانتك معاه! أي راجل عنده نخوة.. لو أنا في مكانه.. أموّتها.. دا لو عنده نخوة!

قال ذهني وهو يحكّ فكّه، وعلامات الشرود تبدو على نظراته الساهمة:

- أنا عارف إنك بتغيري من ياسمين.. لكن ياسمين لا يمكن تعمل كدا.

سكت قليلاً بعد جملته، كأنه يحاول أن يتنفس، ثم استجمع قواه وقال:

- اللي أنت بتفكري فيه يا ست الكل مش هينفع.. الراجل دا مش مفيد ليكي.. أنت نص ست.. دا مش زمانك.. عارفة عندك كام سنة؟ 100 سنة!

كانت كلماته قاسية، لم يصفعني أحدهم بهذه القسوة، ربما منذ عقدين على الأقل، زلزلني ما قاله، تحرّكت ببطء نحو المطبخ، وفتحت أحد أدراجه، وأخرجت سكيناً، وتحركت نحوهم بالبطء نفسه، ووقفت أمام «سين. عين»، كأنني أصنع ساتراً، صرخت:

- اللي هيقرّب منه هموّته.. يا تمشوا وتسيبوه.. يا تاخدوه جثة.

رمقني ذهني بدهشة، فيما هبّت ياسمين مذعورة، وصفعتني على وجهي، صفعة انتزعت السكين من كفي، قبل أن أرفعه محاولة طعنها، لكن حركتها كانت أسرع من حركتي بمراحل. قذفتني صفعتها إلى الخلف، اصطدم رأسي بالحائط، وسقطت.

حينما أفقت كانوا قد مضوا بالفتى. جلس بجواري الرجل الأجنبي، يضمد جرح رأسي. حينما هبط الليل، كنت أجد طريقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى الضريح، هاتفت الرجل المرتزق، جاءني صوته مبتهجاً، وشاكراً، أفلح في القبض على ذهني، وياسمين. ارتبك صوته، حينما سألته عن «سين. عين الناجي»، قال: «مكنش معاهم، لكننا بنحاول مع ذهني، عشان يقول لنا هو فين».

كيف هذا؟ هل يكذب عليّ؟ الناجي كان بحوزتهما، وبالتأكيد صار في قبضة يده. كدت أضرب رأسي بالحائط، أما الرجل الأجنبي فكان لديه رأي آخر هو أنهم قبضوا عليه ولكن الرجل لا يريد إخباري.

لم يكن جون آسفاً لخيانتي للمجموعة، كان يفكر في مصيبته، أن يجد وسيلة للعودة إلى بلده. كان ينتظر سقوط باب الشمس، حتى ينتهي الحصار، لكن باب الشمس كانت صامدة بشكل غريب، على الرغم من السيطرة على جامع المنتصر، إلا أن الشباب ونساء الحي قرروا الصمود في وجه الرعب الآتي من ميدان السيدة وردة وشارع الخفراء، والحصار المفروض على دخول الأكل والبقول إلى شارع المنتصر. الحي بالكامل يصمد، رغم العطش والجوع. كنت أتردد على ضريح سيدي العريان، داخل جامع العروسي بشارع السكة، قررت أن أفعل المستحيل في سبيل منعهم من الوصول إلى «سين. عين»، لكن كيف أحميه وأنا لا أعرف أين هو؟ لقد راهنت على المرتزق، وكما خُنت الرفاق خانني. ضعت، وتبدّدت أحلامي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جون: كاتب التقرير

في اليوم الأخير من الحرب، ظفر المرتزق بالرجل. سقط «سين. عين» الناجي في قبضته.

كتب المرتزق تاريخاً جديداً لبلد المحيط، بعدما اجتاحت ميليشياته شارع المنتصر، حاصروا العلوة في باب الشمس بالمروحيات والهليوكوبتر، ثم اقتحموها، فتشوها بيتاً بيتاً، وعلى الرغم من أنها كانت أطلالاً مهدمة، لم تفلت من دانات الآر بي جي المحمول على الأكتاف. بيت شاهيناز في عطفة عطا الله كان الوحيد الذي نجا من القصف الذي دكّوا به بيوت المنطقة ثلاث ليال بعد نفاد صبرهم من هذه الحرب الطويلة.

كانت العجوز معي حينما اقتحموا البيت، تركوها واتجهوا نحوي، أمسكوا نسخ تقاريري، كنت قد أعددت ثلاث نسخ، حملت نسختين أسفل طيات ملابسي، بينما يقبضون عليّ، ويقتادونني في حزم وصرامة إلى مقر مبنى المرتزق. في الليلة السابقة على دكّ البيوت، واقتحام شارع المنتصر كانت شاهيناز واقفة بجرأة عجيبة، ترمق الصواريخ وهي تشقّ السماء، كأنها تشاهد شهباً تتساقط في مشهد طبيعي بديع، كانت الصواريخ تتهاوى على أسطح البيوت، فتهدمها، وتدوي الانفجارات البشعة، والمروعة، أما شاهيناز، فكانت تهتف بحزن بارد مخيف: «دي مش بلد المحيط.. دا الطوفان.. طوفان نوح».

كنت أنهي على عجالة تقريري. «سين. عين» غادر مع ذهني وياسمين، لم تستطع شاهيناز أن تودّعه. احترت ماذا أكتب في نهاية الصفحات عن قصة حبها للرجل، كتبت أولاً: «يبدو أنها أحبته، لكنه الحب الذي يولد في الحرب، ليست له أي نهاية سعيدة».

ثم شطبت هذه العبارة، وأعدت كتابتها على هذا النحو: «لم يكن من الممكن أن تنتهي هذه العلاقة نهاية سعيدة. هي تنتمي لزمن وهو ينتمي لزمن آخر. هي معتمة وهو رجل أبيض».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تـأملت مـا كتبـت، ثـم نظـرت إليـها، كـانت تتـأهب للـذهاب إلـى الضـريح، هنـاك مثواهـا الأخـير، سـتموت راضـية بينمـا تخـدم المحتمين بالضريح، تأملت صفحات التقرير المكتظة، وشعرت بالأسى، كيف أغادر من هنا؟ كيف أذهب ومعي وقائع إدانتي؟

جاءت القوة لتنهي حيرتي، اقتادوني بفرح مجلجل، كأنهم عثروا علـى «سـين. عـين» النـاجي. تـركوا شـاهيناز، يبـدو أنـهم تلقـوا تعليمات بذلك، كانت المدرعات والحافلات المموّهة، والمصفحات تقف في كل مكان.

ما حدث بعد ذلك لم تتوفر الفرصة لكتابته، حينما اقتادوني إلى المرتزق بعل زبول، أو سيد المزبلة، تفحّصني باهتمام، وقال في حزم: «طلبت منهم ما يقتلوش ولا بني آدم يلاقوه مع شاهيناز».

لـم أفـهم مقصـده، سلّمه رجالـه نسـختي التقـرير، تفـرّس فـي الصـفحات بـاهتمام، تـوقف طـويلاً عنـد مـا كتبتـه علـى لسـانه، وابتسم، ثم حملق فيّ طويلاً، قائلاً: «أنت خطير جداً. كيف عرفت ما دار بيني وبين حسين؟ عموماً أوحيت لي بنهاية مريحة».

لم أفهم، فأكمل: «أنا مش محتاج أقول لك دا.. صحيح قبضت على الراجل الناجي بتاعكم، لكني مش بفكر أبداً إني أقتله.. يمكن نحتاجه.. يمكن أنا أحتاجه».

قالها وابتسامة ظفر ترتسم على شفتيه، رمقته بنظرة خاوية، قال لي وهو يقذف تجاهي بنسخة جريدة هذا الصباح الكابي: «صور إعدام ذهني وياسمين في الصفحات الأولى.. أعتقد إن الجرايد محتاجة جثة كمان.. ولا إيه؟».

بصوت مسموع بلعت ريقي، تذكّرت أنني تركت نسخة من التقرير فـي بـيت شـاهيناز، وحملـت نسـختين، عمـا قليـل سـأغادر هـذه الحياة، سيستبدلني المرتزق، بالرجل الناجي الأخير. لعله سيحرق وجهي، كي لا يتعرّفوا على ملامحه، هكذا ينهي الحرب متوّجاً بنصـره، ويحتفـظ بخصـوبة «سـين. عـين» لحسابه. وإذا طالبت الأمم المتحدة بالكشف عن مصيري، ربما سيردون بأنه جاسوس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقُتل خلال المواجهات، سيدبّرون حالهم كما يفعلون كل مرة. لكن الآن فقط، صدقت رؤياي، تلك الرؤيا التي تخص غرفة الإعدام، التي رأيتني فيها واقفاً على عتبة الحجرة، بينما الناس يدورون في الدائرة الجهنمية، قبل أن تتدلى أعناقهم من المشنقة الغليظة، تذكّرت ياسمين، وشاهيناز، والنسوة اللاتي...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكر واجب

إلى صديقتي العزيزة الناقدة الدكتورة هبة شريف لقراءتها وملحوظاتها المهمة، وإلى الروائي عادل أسعد الميري، فعل الشيء نفسه مع أول مسودة من هذه الرواية.

إلى الشاعر عبد الرحمن مقلد، لجهده الكبير وملحوظاته القيمة، وإلى الباحث يوسف رامز الذي أعانني بحثه المهم عن الفياغرا وساعدني بمعلومات في أثناء الكتابة.

شكر واجب أيضاً إلى الصديق سيف سلماوي.

وإلى الصديق فايز علام وملحوظاته القيمة وإشاراته التي أفادت هذا النص وخدمته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner